وليم سـاليفان

امريكا وايران

دار الملتقى للنشر



امريكا وإيران

امريكا وإيران

تأليف: وليم سَاليفان

ترجمة: نجدة الشوّاف

دار الملتقى للنشر
AL-MOULTAKA Publishing Co.LTD
ليماسول ـ قبرص ـ ص.ب. 6527

الطبعة الأولى

1991 م

دار الملتقى للنشر

كلمة الناشر

عندما قررت «دار الملتقى» إصدار كتاب «أمريكا وايران»(*) مترجماً إلى العربية كانت «الملتقى» كعادتها في تعاطيها مع كل المخطوطات، أمام هاجس سؤال أساسي يكمن في «أهمية» نشر هذا الكتاب معرّباً، وما الذي يقدمه، أو يضيفه أو يكشفه.

فكتاب «أمريكا وايران» الذي ألفه آخر سفير أمريكي إلى ايران «وليم ساليفان» في عهد الشاه، لا يؤرخ فقط للسنوات الأخيرة من العلاقة بين واشنطن وطهران ولكنه يلقي المزيد من الأضواء على تفاصيل وحقائق وكيفية تعامل الادارة الأمريكية وتعاطيها مع مجمل قضايا المنطقة، وتحديداً في ايران إبان «شاهها» الذي فشل رغم دعم إدارة كارتر المطلق له في ابقائه على قمة هرم السلطة متحكماً في مصير البلاد ورقاب العباد، عندما اهتزّت الأرض وارتجت تحت عرشه أمام تعاظم قوة الجماهير وثورتها الشعبية العارمة التي أنهت حكم طاغية مستبد عرف «بملك الملوك» جراء قوته وجبروته.

«أمريكا وايران» الذي كتبه دبلوماسي أمريكي محترف يكشف منذ البداية حرص الادارة الأمريكية ـ أي ادارة ـ على مصالح الولايات المتحدة ومواقعها

(*) العنوان الأصلي للكتاب بالانجليزية هو «بعثة إلى إيران». أما العنوان أعلاه فهو من قبل الناشر.

ومردودات حضورها وتواجدها حتى عندما يتعلق الأمر بالأصدقاء والحلفاء والمرتبطين بها والدائرين في فلك سياستها. و «وليم ساليفان» يشهد على ذلك من داخل كواليس ادارته، ومن خلال توجيهات رؤسائه في الخارجية أو في غيرها من الدوائر الرسمية أو العسكرية وصولاً إلى توجيهات وأوامر المكتب البيضاوي.

لنقرأ هذه الشهادة في مقدمة الكتاب كما عرضها المؤلف:

«إن الأمر الأساسي الذي أخذ في الاعتبار لاختيار سفير جديد في طهران كان مسألة التعامل والتصرف مع نظام استبدادي، وحاكم قوي الشخصية، مطلق السلطة «و» هو أمر يحتاج خبرة وتجارب دبلوماسي محترف سبق له الخدمة في بلاد مماثلة ونظم مشابهة».

هذه الإجابة الوافية، التي لا تحتمل تأويلاً أو تشكيكاً هي التي تلقاها «السفير» من وزير خارجيته آنذاك «سايروس فانس» كمبرر لاختيار الأول لشغل منصب السفير الشاغر في طهران.

ما يستوقفنا في هذه الإجابة، هو هذا الاعتراف الارادي، والسر الخفي الذي يكشفه «ساليفان» على لسان «فانس» من التعامل والتصرف والتنسيق «الأمريكي» مع النظم «الاستبدادية» والحكام «مطلقي الصلاحية»، الأمر الذي تحاول الادارات الأمريكية انكاره وأن تنفيه عن نفسها، وعن سياستها، وساستها.

و «أمريكا وايران»، وفي مقدمة الكتاب مرة أخرى، وقبل أن يصل «ساليفان» إلى مقر عمله الجديد في طهران يقدم المزيد من الحقائق والاعترافات المذهلة ومن قمة هرم السلطة في الادارة الأمريكية.

وهذه المرة من «الرئيس» الذي قابله للتزود بالتعليمات والتوجيهات والنصائح وهو بعد أن يقر «بأن الرئيس كان محيطاً بالموضوع الذي عرضه بشكل نقاط منتظمة ومسلسلة» ربما صدم ـ أي السفير ـ عندما أشار رئيسه إلى «أن ايران

تعتبر شديدة الأهمية من الناحية الاستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة ولحلفائها، كما أن الشاه يعتبر صديقاً حميماً وحليفاً موثوقاً».

إذن فالولايات المتحدة وعلى لسان رئيسها وفي جلسة خاصة له مع سفيرها الجديد إلى العاصمة طهران تعترف بأن «النظام الاستبدادي» نظام صديق حميم وحليف موثوق، وعلى السفير المجرب والمحترف أن يلتزم بهذا الخط، وهذا التوجه حتى ـ أقول حتى ـ لو تعارض ذلك مع قناعاته الشخصية أو معلوماته الخاصة.

ومرة أخرى يجد السفير الجديد نفسه في ورطة عندما يكتشف تناقض رئيسه ولاأخلاقيته، وسقوط مصداقيته خاصة عندما يتعلق الأمر «بحقوق الإنسان» التي أوصلت «كارتر» إلى الرئاسة فأوصلها بدوره إلى الحضيض.

نعود إلى ما يقدمه السفير، فهو يعترف أن السؤال الأكثر «حساسية» الذي عرضه على الرئيس «بحضور مساعده لشؤون الأمن القومي» هو الذي يتعلق بعلاقات العمل القائمة منذ مدة طويلة بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ومنظمة الاستخبارات الايرانية «السافاك»، وهو قبل أن يعرض لهذا السؤال الحساس يشرح «أن السافاك تحول بمرور الزمن من منظمة مهمتها الأولى جمع المعلومات التي تهدد أمن ايران إلى منظمة بوليسية سياسية رديئة السمعة» بيد أن الإجابة تأتي قاطعة عندما يقول الرئيس «أنه فكر طويلاً في هذا الموضوع، وتوصل إلى نتيجة بأن المعلومات التي نحصل عليها وخاصة من مراكز التصنت الموجهة نحو الاتحاد السوفييتي بالغة الأهمية».

ولهذا:

فإنه ـ أي الرئيس ـ يعتقد بضرورة استمرار التعاون بين المنظمتين ـ أي ـ الاستخبارات الأمريكية والسافاك.

ما لم يكشفه «ساليفان» أو أنه تكتم عليه أو أقنع بنقيضه هو أنه خرج من مقابلته لرئيسه وقد وضع جانباً كافة ما يمكن أن يكون قد حمله في جعبته من معلومات أو قناعات مغايرة.

وبعد،

«الملتقى» وهي تضع «أمريكا وايران» أمام القارىء، لا تجد إلا أن تقول إنه كتاب يفضح من الداخل جوانب مهمة في صناعة القرار السياسي الأمريكي، وهو بشهادة واعتراف أحد الذين قضوا فترة طويلة تزيد على ثلاثة عقود من العمل السياسي وتعاطوا مع عدد هام وخطير من القضايا السياسية التي أثّرت وانعكست على مجمل التحولات السياسية في مناطق متباعدة من العالم.

الملتقى

1

كان الموقف غريباً حقاً(*)

«باغيو» مدينة صغيرة تقع فوق هضبة مستوية في جزيرة «لوزو» شمالي مانيلا عاصمة الفيليبين كانت أثناء سنوات الاستعمار الأمريكي، وما قبل عصر المكيفات الهوائية العاصمة الصيفية لمدة ثلاثة أشهر في السنة.

ترتبط باغيو بالعاصمة مانيلا بطرق جبلية تبدأ من السهل ثم تصعد متعرجة ملتوية للوصول إلى سقف الهضبة حيث تنام المدينة الصغيرة المطلة على الوديان العميقة التي تكسوها أشجار الصنوبر والتي ينتصب في وسطها بناء ضخم الجدران كان في عهد الاستعمار الامريكي مقراً لإقامة الحاكم العام الأمريكي. عام 1935 أصبحت الفيليبين جمهورية «كومونولث» فتحول ذلك البناء الضخم ليصبح مقراً لرئيس الجمهورية بينما شيدت دارة جميلة لإقامة المندوب السامي الأمريكي. بعد أن نالت الفيليبين استقلالها أصبحت الدارة تلك ذات الجدران البيضاء والسطح الذي تغطيه أزهار «بوغونفليا» المسكن الصيفي للسفير الأمريكي.

في بداية ربيع 1977 وبعد الانتخابات الأمريكية ومجيء ادارة الرئيس جيمي كارتر دخلت مفاوضاتنا مع الحكومة الفيليبينية حول القواعد الأمريكية في

(*) العنوان من قبل الناشر. ولم يرد في النص الأساسي كعنوان لهذا الفصل. الناشر.

الفيليبين فترة من السكون حتى تتوضح توجهات وسياسة الادارة الأمريكية الجديدة.

في تلك الأثناء كنت شخصياً أنتظر منذ مدة وصول خبر من واشنطن عن مقر سفارتي الجديدة بعد أن أمضيت في الفيليبين مدة أربع سنوات كاملة ولذلك قررت وقرينتي الاستفادة من فترة الهدوء السائدة بصورة مؤقتة وتمضية عطلة نهاية الأسبوع في باغيو. بعد ظهر يوم الجمعة كنا في مسكننا الصيفي نتهيأ لممارسة هوايتنا المفضلة وتمضية بعض الوقت في لعبة «الغولف» ولكن قبل أن نغادر المكان سمعنا جرس الهاتف المباشر الذي يرتبط بالسفارة في مانيلا يدق بشدة فتبادر إلى ذهني وأنا في طريقي إلى غرفة النوم حيث جهاز الهاتف (الخط الحار) أن مشكلة ما في السفارة استدعت هذا الاتصال السريع ولما يمضي على مغادرتنا مانيلا غير بضع ساعات فقط غير أن أمينة سري «مولي ستيغنز» التي كانت على الجانب الآخر من الخط أخبرتني أن الخبر الذي طال انتظاري له قد وصل أخيراً.

شكلت الادارة الامريكية الجديدة لجنة خاصة لمساعدتها في تسمية ممثليها الدبلوماسيين برئاسة «روبين اسكيو» حاكم ولاية فلوريدا مع عضوين أحدهما «دين رسك» والآخر «افريل هاريمان» اللذين أعرفهما منذ مدة طويلة وأسند إلى اللجنة واجب غربلة وتقييم قائمة المرشحين سواء كانوا في الخدمة الخارجية أو من خارج الخدمة. وبما أني كنت واحداً من الدبلوماسيين القدماء وأمضيت سنوات عديدة في شرقي آسيا فقد كنت أتوقع ـ وآمل أيضاً ـ أن يتم تعييني في المكسيك، ولكن أمينة السر مولي فاجأتني بخبر لم أكن أتوقعه عندما أخبرتني أن البلد الذي وقع علي الاختيار لأكون سفيراً لبلادي فيه هي ايران.

إن أقرب موقع من طهران سبق لي معرفته والخدمة فيه هو كلكتا وذلك منذ نحو ثلاثين عاماً مضت، ولم يسبق طوال سنوات خدمتي الدبلوماسية أن خدمت في أي بلد إسلامي. ولذلك فإن ما لدي من خبرة ومعلومات عن العالم الإسلامي ضئيلة ومحدودة. ومع أني كنت مدركاً ما لإيران من أهمية كبيرة، إلا أن فكرة ترشيحي للعمل في طهران لم تكن مبعث سرور كبير. ولما كانت أمينة

سري ما زالت على الطرف الآخر من الخط بانتظار جوابي لذا أسرعت قائلاً إنني سأتصل بالسفارة بعد حوالي ساعتين لاعطاء رأيي الذي عليها إرساله إلى واشنطن.

لم تكن رياضتنا بعد ظهر ذلك اليوم شديدة المتعة لانشغال فكرنا بهذا الموضوع إذ لم نكن متحمسين للذهاب إلى بلد سمعته رديئة في الولايات المتحدة كما أني من ناحية أخرى لم أكن متأكداً أن مؤهلاتي وخبرتي السابقة تؤهلني للعمل في بلد إسلامي، غير أني كنت أدرك جيداً الأهمية الستراتيجية التي تتمتع بها ايران وأهمية القضايا السياسية التي سأواجهها هناك. ولكن في مقابل ذلك كنت أعلم أن اللجنة الرئاسية عندما قررت ترشيحي لهذا المركز المهم كانت مدركة أن هذا الترشيح يشكل تحدياً بالنسبة لكل دبلوماسي ولهذا قررت قبول ذلك الترشيح التحدي فاتصلت بالسفارة في مانيلا وطلبت من أمينة سري إرسال موافقتي على الترشيح وقبولي سفارة طهران.

الأسابيع الثلاثة التي تلت ذلك كانت مزدحمة بالإجراءات الاعتيادية التي تسبق عادة مغادرة البلاد بصورة نهائية من زيارات وداعية للمسؤولين في الحكومة الفيليبينية وزملائي السفراء والحفلات الرسمية وأخيراً اعداد الحقائب وأنفسنا للرجوع إلى واشنطن.

لا شك أن إقامتنا في مانيلا كانت ممتعة ومفيدة ولكن الأمر الذي كان يضايقني هو عدم تمكني من تحقيق جميع الأهداف التي كنت حددتها لنفسي عند مجيئي إلى مانيلا في 1973. فالاتفاقيات الخاصة بالقواعد العسكرية الأمريكية التي أشغلتني نحو سنة كاملة لم تكتمل بعد وكذلك الاتفاقية التجارية الجديدة التي سوف تحل محل الاتفاقية القديمة التي انقضى أمدها ما زالت هي الأخرى في مراحلها الأخيرة، وبالإضافة إلى هذين الموضوعين بقيت العلاقات بين الولايات المتحدة والفيليبين يسودها الفتور بسبب خلافات بين الحكومتين على قضايا تتعلق بحقوق الإنسان والأحكام العرفية لسنوات طويلة.

بالإضافة إلى كل هذه الأمور كانت قضية أخرى تضايقني دون أن يكون لها علاقة بالفيليبين ولكن تتعلق بفيتنام. فالمفاوضات التي أدت إلى إنهاء الحرب في

فيتنام والتي كان دوري في متابعتها رئيسياً جاء في أحد بنودهـا اتفاق الحكـومتين الأمريكية والفيتنـامية عـلى اقامـة علاقـات دبلوماسيـة بينهما بـدرجة سفـارة فتم ترشيحي رسمياً لأكون أول سفير أمريكي في هانـوي مع الاحتفـاظ بسفارتي في الفيليبـين على أن أزور هـانوي لفـترات قصيرة وحسبـما تقتضي متطلبـات العمل ووضعت من أجل ذلك طـائرة نفـاثة تحت تصرفي في قـاعدة كـلارك الجويـة في الفيليبـين، وعلى أن يشرف عـلى السفارة قـائم بـالأعـمال مـع هيئـة صغـيرة من الموظفين الدبلوماسيين والاداريين يقيمون في هانوي.

ولكن فكرة اقامة علاقات دبلوماسية مع فيتنام الشمالية وترشيحي كأول سفير أمريكي في هانوي بقيت مجرد فكرة دون أن تخرج إلى حيـز الوجـود بسبب فشل حكومة فيتنام الشمالية في تنفيذ معاهدة باريس ونقضها بصورة خاصة للاتفاقات العسكرية، الأمر الذي جعل حكومة الولايات المتحدة تقرر بعدم جدوى إقامـة علاقات دبلوماسية مع هانوي. فانتهاكات فيتنام الشمالية لمعاهدة باريس قوضت مشروع السـلام الذي كنـا نتفاوض من أجـل تحقيقـه وبـالتـالي أدت إلى انهيـار جمهـورية فيتنـام الجنوبيـة الذي قـاتـل الأمـريكيـون سنـوات طـويلة من أجـل تفاديه(*). ولما وقعت الكارثة واجتاحت القوات الشمالية الجزء الجنـوبي من فيتنام هـرب إلى الفيليبين أولئـك الذين حـاولوا النجـاة من المأسـاة عن طريق قـاعدة سبيك البحرية وقاعدة كلارك الجوية وبالطائرات المروحيـة التي كانت تهبط عـلى مسافة قريبة من البوابة الرئيسية لسفارتنا.

تلك الصدمة القوية التي اجتـاحت جنوب شرقي آسيـا ومعظم أنحـاء العالم عام 1975 كان لها تأثير قوي على طبيعة السنتـين الأخيرتـين اللتين أمضينـاهما في الفيليبين. ثم جاءت قضيـة «ووترغيت» لـتزيد الـطين بلة بالنسبـة إلينا بعـد أن أصيبت حكـومة الـولايات المتحـدة بما يشبـه الشلل، الأمر الـذي أضر بشكـل جدي بتمثيلها الـرسمي في مانيـلا. لهذا كله، فـإني شعرت بـالارتياح لإمكـان

(*) انحياز المؤلف إلى وجهة النظر الامريكية لا يحتاج إلى تدليل خاصة وهو مشارك في مـوقع متقـدم في تنفيذ هذه السياسة بحكم وظيفته. أما ما يحتاج إلى توضيح فهـو ان أزمة فيتنـام منذ البـداية وحتى النهاية هي بسبب تدخل الولايات المتحدة في المنطقة. الناشر.

رحيلنا عن الفيليبين، رغم كل ما يقدمه هذا البلد في الظروف الاعتيادية من مغريات فصرت أترقب إمكان العمل مع حكومة جديدة في أجواء جديدة ومركز جديد.

غادرنا مانيلا في 25 نيسان/ ابريل 1977 عن طريق طوكيو وهونولولو حيث كان علي تأدية آخر مهمة تتعلق بعملي في الفيليبين والتي كانت أيضاً المهمة الدبلوماسية الأخيرة لخدمتي في شرقي آسيا ومنطقة المحيط الهادىء التي استمرت مدة ثلاثين عاماً. اقتصرت تلك المهمة على اجراء مشاورات وتبادل الآراء والمعلومات المفيدة مع المسؤولين في المقر العام للقوات العسكرية الأمريكية في هونولولو والذي كان مسؤولاً عن سياساتنا العسكرية والحضور العسكري الأمريكي في جميع منطقة المحيط الهادي. كان معظم المسؤولين من معارفي الذين تربطني بهم معرفة قديمة تعود إلى أيام الحرب الكورية والنزاعات الممتدة إلى مناطق جنوب شرقي آسيا. كان الاجتماع مريحاً ومنسجماً من الناحية الشخصية ولكن دون تفاؤل كبير بصورة عامة لما سينجم من مضاعفات ومشاكل نتيجة الاهتزاز الكبير الذي منيت به هيبة الولايات المتحدة في الهند الصينية. ومع ذلك كانت توقعاتنا أن توازن القوى في المراكز الغربية الهامة قد يثبت ويترسخ مدة طويلة الأمر الذي يبعد أخطار حروب جديدة قد تضطر الولايات المتحدة للتورط فيها.

كان لمقر قيادة المحيط الهادي واجبات معينة أخرى تمتد إلى منطقة المحيط الهندي والخليج العربي، الأمر الذي جعل من المناسب أن نتطرق خلال المشاورات التي أجريتها إلى موضوع عملي في ايران. وقد زودتني محادثات هونولولو بمعلومات وافية عن التسهيلات العسكرية في جزيرة «دييغو غارسيا» واحتمالات استخدام البحرية الأمريكية في المحيط الهندي وطبيعة الوجود السوفييتي العسكري والبحري في تلك المنطقة من العالم. كما تبين لي أيضاً من خلال محادثاتي مع المسؤولين أن الصلة بيني وبين هيئة القيادة العسكرية في هاواي لن تنقطع كلياً بعد انتقال مقر عملي من مانيلا إلى طهران.

بعد الانتهاء من الاجتماعات والمشاورات في هونولولو واصلنا السفر إلى

واشنطن التي كانت قد أبلغتني مسبقاً عدم امكان منحي إجازة طويلة، كما كنت أرغب، قبل التحاقي بوظيفتي في طهران نظراً لخلو مركز السفير منذ استقالة سلفي السفير «ريتشارد هيلمز» في كانون الأول ديسمبر 1976 مما جعل ادارة كارتر الجديدة تلح على وزارة الخارجية لإرسال سفير جديد إلى هناك في أقرب وقت ممكن. ولكنني شعرت بحاجتي لاستيعاب أكبر قدر ممكن من المعلومات المفيدة عن ايران قبل أن أستلم مهام وظيفتي فزودتني مكتبة وزارة الخارجية بعدد من الكتب التي تبْحث في تاريخ ايران القديم والحديث وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومع أن مطالعة تلك الكتب زودتني بمعلومات جيدة ومفيدة لمباشرة عملي إلا أنها لم تكن من نوع المعلومات التي يحتاجها سفير سوف يعمل في ذلك البلد الذي كان حتى وقت قصير يجهل الكثير الكثير عنه ولذلك بدأت أستعين بمعلومات وخبرات زملائي في الوزارة ممن لديهم الاطلاع والمعلومات المفيدة لسفير جديد عن الشرق الأوسط عامة وإيران بصورة خاصة.

ولكن قبل أن أبدأ بجولتي على الخبراء بشؤون ايران في وزارة الخارجية للاستفادة من معلوماتهم، رأيت أن أقوم بزيارات مجاملة لبعض المسؤولين في حكومة كارتر الجديدة. كان في مقدمتهم طبعاً وزير الخارجية الجديد «سايروس فانس» الذي تربطني به أواصر صداقة قديمة منذ نحو عشر سنوات تقريباً والذي أكنّ له احتراماً كبيراً. في ذلك اللقاء سألت الوزير فانس عن سبب اختياري لسفارة طهران وأنا أكاد أجهل كل شيء عن ايران وتلك المنطقة! أجاب الوزير بما مضمونه، إن الأمر الأساسي الذي أخذ بنظر الاعتبار لاختيار سفير جديد في طهران كان مسألة التعامل والتصرف مع نظام استبدادي وحاكم قوي الشخصية مطلق السلطة وهو أمر يحتاج لخبرة وتجارب دبلوماسي محترف سبق له الخدمة في بلاد مماثلة ونظم مشابهة! ولكن رغم هذا التفسير المنطقي الذي عرضه الوزير فإن شعوري بنقص معلوماتي عن إيران ما زال يستبد بتفكيري ويدفعني لالتهام كل المعلومات التي أتمكن من التزود بها قبل أن أستلم مهمتي الجديدة بصورة رسمية. جمعت من مكتبة وزارة الخارجية كل الكتب التي تبحث في تاريخ ايران، قديمه وحديثه، وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومع أن الكتب التي قرأتها زودتني بمعلومات طيبة ولكنها لم تكن المعلومات الوحيدة التي

يحتاجها سفير يخدم لأول مرة في هذه المنطقة الحيوية، الخطوة التالية التي خطوتها لتحقيق هدفي في جمع أكثر كمية من المعلومات المفيدة عن ايران كانت في عقد لقاءات مع بعض المسؤولين في الوزارة الذين أستطيع أن أستعين بمعلوماتهم.

«روي اثرتون» صديق قديم وزميل شخصي منذ أن التحقنا قبل سنوات طويلة بالخدمة الخارجية في نفس الوقت. كان أثرتون يشغل في تلك الآونة مركز مساعد لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وقد سبق وقدم لي نصائح وآراء حصينة وصائبة. ولكني وجدته غارقاً في واجبات عمله حتى أذنيه وفي مشاكل عويصة تتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي، الأمر الذي جعل اجتماعنا قصيراً غير وافٍ للغرض الذي قصدته من أجله. ولذلك انتقلت مسؤولية ارشادي وتثقيفي إلى «شارلز ناس» رئيس قسم الشؤون الايرانية بوزارة الخارجية. كان شارلز ناس قد أمضى سنوات طويلة من خدمته الدبلوماسية في ايران (مرتين) والدول المحيطة بها كأفغانستان وباكستان قبل أن يعين رئيساً لقسم الشؤون الايرانية بوزارة الخارجية وخبيرها الأول في شؤون ايران والمنطقة.

بعد أن زودني شارلز بما لديه من معلومات قيمة هيأ لي فرصة الاجتماع بجميع مسؤولي الوزارة الذين تتطلب مسؤولياتهم البقاء على اتصال دائم بايران والتعامل معها. وختم شارلز جهوده المشكورة بأن عقد ندوة خاصة من أجلي ضمت عدداً طيباً من الأكاديميين الاخصائيين بالشؤون الايرانية وكانت الندوة ذات فائدة كبيرة زودتني بمعلومات لا يمكن العثور عليها في الكتب. بعد كل هذا التقيت عدداً من الشخصيات الأخرى كانت لهم علاقة بايران بشكل أو آخر مثل «كيم روزفلت» الذي لعب دوراً بارزاً في احداث ايران عام 1953(*) وإسقاط حكومة الدكتور مصدق وإرجاع الشاه من المنفى إلى بلاده وعرشه.

بعد هذا قمت بزيارة الادميرال «تيرنر» رئيس المخابرات المركزية الذي أبدى اهتماماً كبيراً بإيران وأوضاعها. وزرت أيضاً مقر هيئة الأركان المشتركة الذين

(*) أحداث ايران عام 1953، هي المؤامرة التي دبرتها ونفذتها وكالة المخابرات المركزية الامريكية لاثارة القلاقل والاضطرابات بهدف اسقاط حكومة الدكتور مصدق التقدمية في ايران ولاعادة الشاه من المنفى إلى عرشه. الناشر.

كنت على معرفة سابقة بمعظمهم. وفي البنتاغون اجتمعت بعدد من العسكريين والمدنيين الذين كانوا يشرفون على المبيعات العسكرية الضخمة لايران حيث كانوا يشترون أكثر الأسلحة والمعدات الأمريكية المتطورة.

بعد هذه الجولة من الزيارات رأيت من المناسب مقابلة رئيس الجمهورية ولما كانت وزارة الخارجية هي الجهة المختصة لتحديد مقابلات السفراء فقد طلبت من دائرة التشريفات بالوزارة تحديد موعد مع البيت الأبيض ولكني فوجئت بقولهم إن الرئيس أدخل تغييراً على هذا التقليد إذ لا يرغب في مقابلة كل سفير يغادر البلاد لاستلام مهام عمله التمثيلي في الخارج ولذلك حدد الرئيس عدداً معيناً من السفراء الذين يقابلهم في كل فترة وإن العدد المحدد للفترة الحالية قد اكتمل! ومع أني وجدت ذلك التصرف غريباً بعض الشيء وخاصة بالنسبة لسفير ذاهب إلى مركز شديد الحساسية كايران ولكني خلال سنوات خدمتي الطويلة كنت قد تعودت أن أتقبل نماذج مختلفة من سلوك الرؤساء الأمريكيين. ولذلك رأيت أن تقتصر زيارتي للبيت الأبيض على رئيس وأعضاء مجلس الأمن القومي.

في أثناء مقابلتي لمساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي «زبغنيو بريجنسكي» استفسر أثناء الحديث عن الموعد الذي تحدد لمقابلتي لرئيس الجمهورية فأخبرته بما أُبلغت به حول الترتيبات الجديدة لمقابلات الرئيس للسفراء فبادر بريجنسكي حالاً لتصحيح الموقف.

رغم التعليمات الجديدة حول هذا الموضوع فقد أخبرتني وزارة الخارجية بأن موعداً سيتحدد خلال اليومين أو الثلاثة القادمة لأقابل الرئيس كارتر. سيكون اللقاء القادم المرة الأولى التي أقابل فيها الرئيس كارتر الذي كنت أثناء وجودي في الفيليبين أشاهده على الشاشة المرئية حينما كان يقوم بحملته الانتخابية.

تأخرت المقابلة قليلاً عن موعدها المحدد بسبب انشغال الرئيس في مؤتمر صحفي في مبنى المكتب التنفيذي المجاور للبيت الأبيض. أثناء انتظاري مع بريجنسكي في المكتب البيضاوي أجلت النظر حولي لرؤية ما أدخل على هذه الغرفة من تغييرات خلال السنوات الماضية منذ أن دخلتها للمرة الأولى في عهد

الـرئيس دوايت أيزنهاور. بعـد ذلك تكـررت زياراتي لتلك الغـرفة البيضـاويـة الشكل مرات عديدة في عهد الرئيس كنيدي ثم في عهد خلفـه الرئيس لينـدون جونسون. أما مقابلاتي مع الرئيس نيكسون فكانت أقل عـدداً، فالمـرات القليلة التي قابلته فيها كانت تتم في أماكن أخرى في البيت الأبيض أو أثنـاء جولاتـه في الخـارج. لاحظت وأنـا أجيل النـظر حولي أن الغـرفة قـد أعيد تـرتيبها وتبـدل منـظرها بعـد أن غطيت جـدرانها بورق فـاتـح اللون ورفعت الأدوات والقـطع التذكارية ولم يبق منها غير القليل وبدت بصورة عامة تتسم بالبساطة والجدية.

وبينما كنت مشغولاً بأفكاري الخاصة إذ بالرئيس يدخل فجـأة ويتجه نحـوي بخطى ثابتة توحي بالحيوية والطاقة رغم جسمه النحيل.

كان الرئيس قادماً من مؤتمر صحافي مباشرة ومع ذلك ظهر وكـأنه تـرك وراءه كل ما دار في المؤتمر من مواضيع ومختلف أنواع الأسئلة المحرجة. بعد المصافحـة دعاني الرئيس للوقوف بجانبه لالتقاط الصور التذكارية. هـذا النوع من الصـور التي يظهر فيها السفير بجانب رئس الجمهورية تحظى باهتمام سفاراتنا في الخارج من الناحية الإعلامية حيث تظهر للرأي العـام في البلد الذي يعمـل فيه السفـير العلاقة الـوثيقة بينـه وبين رئيس دولتـه الذي انتـدبه ممثـلاً شخصياً لـه في ذلك البلد. فتحت أبواب الغرفـة البيضاويـة للصحافيـين والمصورين وبـدأت عملية التصوير من كل ركن وزاوية. بعد الانتهاء من ذلـك وخروج المصـورين دعانـا الرئيس (بريجنسكي وأنا) للجلوس واستهل حديثه مباشرة دون مقدمات عارضـاً الملامح الرئيسية لسياسته المتعلقة بإيران. وإذا أخذنـا بنظر الاعتبـار أنه كـان في مؤتمر صحافي مـا قبل دقـائق معدودة وعـدم استعانتـه أثناء الشرح الـذي قدمـه بملاحظات مدونة، وأن ذهنه كان بدون شك مشغولاً بمشاكل وقضايا أخرى قـد تكون أكثر أهمية، أقول، إذا أخذنا بنظر الاعتبار كل هذه الأمور فالذي لا شك فيه أن الرئيس كارتر كان محيطاً بـالموضـوع الذي عـرضه بشكـل نقاط منتـظمة وسلسة مما أثار مزيد اعجابي وتقديري.

قال الرئيس إن ايران تعتبر شديدة الأهميـة من الناحيـة الستراتيجيـة بالنسبـة

للولايات المتحدة وحلفائها كما أن الشاه يعتبر صديقاً حميماً وحليفاً موثوقاً(*). بالإضافة إلى هذا فإنه من الأهمية بمكان بالنسبة للدول الغربية أن تستمر ايران كعامل فعال لاستتباب الأمن والاستقرار في منطقة الخليج. وبعد أن تطرق الرئيس لموضوع النفط وأسعاره ثم بعض القضايا الثنائية بين البلدين استفسر عما إذا كانت لدي بعض الأسئلة التي أود أن أوجهها إليه. ولما كانت الادارة الجديدة لم تحدد بعد خياراتها السياسية لمختلف القضايا الخطيرة التي تهم الولايات المتحدة في ايران، فقد خرجت من مداولاتي مع مختلف الجهات التنفيذية لغرض التزود بآخر المعلومات والتوجهات وفي ذهني عدد من الأسئلة التي بقيت دون إجابات واضحة وحاسمة ولذلك ألقيت على الرئيس كارتر ثلاثة أسئلة.

السؤال الأول كان متعلقاً بكميات وأنواع الأسلحة والمعدات العسكرية التي لا تمانع الادارة من بيعها لإيران. ففي العهود السابقة لإدارة كارتر كان مسموحاً لإيران بشراء أية كمية أو صنف من الأسلحة والمعدات العسكرية الأخرى التي تعتقد أنها تحتاجها عدا الأسلحة الأكثر حداثة وتطوراً. وبما أن الإدارة الجديدة تعتزم وضع بعض التقييدات على مبيعات الأسلحة للدول الأجنبية وبالنظر لما بلغني من وجود قائمة جديدة وكبيرة لمختلف المعدات والأسلحة ترغب الحكومة الإيرانية بشرائها فقد استفسرت من الرئيس عن مدى تطبيق القيود الجديدة بالنسبة لإيران؟

كان جواب الرئيس سريعاً ودقيقاً فقال إنه يود أن يكون سمحاً مع ايران في موضوع الأسلحة وأنه لا يعتقد أن قائمتهم الجديدة التي اطلع عليها تتضمن أنواعاً لا يمكننا تزويدهم بها بما في ذلك طائرات «أواكس» التي يجري في الوقت الحاضر تزويد القوة الجوية الأمريكية بها. أما بالنسبة لمشتريات المستقبل فإن المذكرة التي أعدها بهذا الشأن والتي ستزود بها الجهات المختصة في وقت قريب

(*) نظام الشاه، نظام استبدادي لحاكم مطلق السلطة كما يقول وزير الخارجية سابقاً، لكنه في ذات الوقت صديق حميم وحليف موثوق كما يقول الرئيس. لا تناقض، فهذا ما تمليه مصالح صناعة القرار الامريكي. الناشر.

يمكن أن تكون دليلاً استرشد به بالنسبة لطلباتهم في المستقبل.

كان السؤال الثاني يتعلق ببيع المفاعلات النووية الأمريكية لتوليد الطاقة لإيران. فقد وضعت الحكومة الإيرانية برنامجاً طموحاً لتزويد كافة المناطق الايرانية بالكهرباء قبل نهاية القرن الحالي لتوفير طاقة كهربائية رخيصة قبل نفاد النفط كمصدر للطاقة.

أجاب الرئيس بالقول أنْ لا مشكلة هناك تحول دون بيع مفاعلات نووية أمريكية لتوليد الطاقة لإيران شرط موافقتها على تطبيق الاتفاقات الدولية المتعلقة بالاستعمال والاجراءات الوقائية ووسائل التخلص من مخلفات الوقود. وقال أيضاً إن الولايات المتحدة مستعدة لمعالجة الوقود المستهلكة ثم اعادة الناتج إلى ايران لاستعماله في توليد الطاقة. ويعني هذا أن موافقة الرئيس على تصدير الطاقة النووية إلى إيران مطلقة وبدون قيد.

السؤال الثالث الذي وجهته للرئيس كان أكثر حساسية ويتعلق بعلاقات العمل القائمة منذ مدة طويلة بين وكالة الاستخبارات المركزية (سي. آي. اي) ومنظمة الاستخبارات الايرانية (سافاك).

قلت للرئيس إن السافاك تحوّل بمرور الزمن من منظمة مهمتها الأولى جمع المعلومات التي قد تهدد أمن ايران إلى منظمة «بوليسية» سياسية رديئة السمعة. وبالنظر لما أعرفه من الاهتمام الكبير الذي توليه ادارته لقضايا حقوق الإنسان فإني أود أن أسأل فيما إذا كان الرئيس يرغب أن تستمر علاقات العمل والتعاون بين المنظمتين الأمريكية والايرانية؟

قال الرئيس إنه فكر طويلاً في هذا الموضوع وتوصل إلى نتيجة بأن المعلومات التي نحصل عليها وخاصة من مراكز التصنت الموجهة نحو الاتحاد السوفييتي بالغة الأهمية ولهذا فإنه يعتقد بضرورة استمرار التعاون بين المنظمتين(*) ولكنه

(*) تأكيد على زيف ادعاءات كارتر واهتمامه بحقوق الانسان وتشدقه بها ابان فترة رئاسته، إذ أن كل ذلك لا يمنع من التعامل والتعاون مع منظمة «بوليسية» سياسية رديئة السمعة كما قدم سفيره. الناشر.

يأمل في نفس الوقت أن أوفق بإقناع الشاه بضرورة تحسين موقف حكومته من القضايا المتعلقة بحقوق الإنسان في كافة النواحي.

في غضون ذلك كان الوقت المحدد للمقابلة قد انتهى وتجاوزه بحوالي عشرين دقيقة الأمر الذي جعل أحد مساعديه يأتي مرة واحدة على الأقل ليلفت انتباه الرئيس إلى انتهاء وقت المقابلة وأن لديه موعداً آخر حان وقته. ولكني كنت قد تدربت من تجاربي السابقة في مقابلة رؤساء السلطة التنفيذية أنه من غير الجائز أن أنهي المقابلة وأنصرف قبل صدور اشارة من الرئيس عن انتهائها.

بعد انتهائنا من بحث الموضوعات التي تطرقنا إليها أنهى الرئيس المقابلة بالنهوض واقفاً وبعد أن شد على يدي ويد بريجنسكي مصافحاً بحرارة وهو يعرب عن تمنياته بأن تكون إقامتي في طهران موفقة ومريحة رافقنا مودعاً حتى باب الغرفة البيضاوية. لقد تركت تلك المقابلة أطيب الأثر في نفسي لما رأيته في رئيسنا الجديد من دماثة الخلق والاطلاع الواسع والقدرة على الاضطلاع بمسؤولياته بكل صدق وصراحة.

خرجت من البيت الأبيض وتوجهت مباشرة إلى وزارة الخارجية لرؤية صديقي الحميم والقديم وكيل وزارة الخارجية فيليب حبيب حيث رويت له مقابلتي مع الرئيس بكل التفاصيل والتوجيهات السياسية التي تلقيتها منه بشأن القضايا الثلاثة التي وردت في أسئلتي. كان سرور فيليب حبيب واعجابه بأسلوب عمل الرئيس لا يقل عن سروري واعجابي فاقترح علي أن أملي على أمينة السر مذكرة تتضمن القرارات التي أصدرها الرئيس حول القضايا الثلاثة ليجري توزيعها على الأقسام المعنية بالوزارة، الأمر الذي سيجعل من السهل على تلك الأقسام الرجوع إليها عند اللزوم دون الحاجة لتحرير عشرات المذكرات حول كل قضية. بعد أن عملت باقتراح فيليب حبيب غادرت مبنى الوزارة وأنا مطمئن أن مشاكل اتخاذ القرارات في القضايا المهمة لن تكون معقدة ولن نضيع الكثير من الجهد والوقت في عهد الادارة الجديدة مثلما كانت في السابق. ولكني اكتشفت بعد بضعة أيام أن أسلوب الرئيس كارتر قوبل بالفتور والتحدي من قبل بعض البيروقراطيين في الوزارة الذين يفضلون طريقة معالجة

كل قضية سياسية لوحدها عن طريق المذكرات التي تتداولها أيدي عدد كبير من المسؤولين. وقد حاولت مرة تنبيه أولئك المعارضين بأن دستورنا يمنح رئيس الجمهورية صلاحية اتخاذ القرارات السياسية وعليهم أن يشكروا طالعهم لوجود رئيس لديه القدرة اطلاعاً وجرأة لاتخاذ القرارات ويكفيهم مؤونة التصاريح مع عشرات المذكرات المتضاربة حول كل قضية. غير أن من تحدثت إليهم أبدوا سخريتهم من رأيي وأصروا على رأيهم القائل بأن الرئيس لم يدرس هذه القضايا دراسة عميقة ولذلك فإنهم سيواصلون العمل بطريقتهم التقليدية ودراسة كل قضية بمفردها ليقدموا للرئيس وجهة نظرهم حول القضية بشكل قوي ومفحم.

ومع أني لم أعر المسألة اهتماماً جدياً في وقته إلا أنه تبين بعد مدة أن موقف البيروقراطية الرافض قد أصبح مشكلة قائمة أصيبت بها ادارة كارتر وولدت لها ضعفاً في داخلها.

إن عدم احترام المرؤوسين في وزارة الخارجية وغيرها لقرارات الرئيس كارتر فيما يتعلق بالقضايا السياسية الرئيسية قد يكون بسبب ظروف اختيارهم وانتمائهم في داخل الحزب الديمقراطي لاتجاهات سياسية مختلفة ممن لا يكنون ولاءً شخصياً لكارتر ويشعرون في نفس الوقت أن كارتر نفسه لا يشعر نحوهم بولاء خاص. كان الموقف غريباً حقاً(*).

(*) أُستخلصت الجملة الأخيرة من هذا الفصل كعنوان له. الناشر.

2

الاستعدادات في واشنطن

نظراً لغيابي الطويل في الخارج لم تكن لدي فكرة واضحة عما يعرفه الامريكيون ويشعرون به نحو ايران حيث سأمثل فيها بلادي قريباً. كنت أعلم أن وجود اعداد هائلة من الطلاب الايرانيين في مختلف الولايات المتحدة صار من الأمور المعروفة لدى الكثيرين من الأمريكيين الذين يعيشون على مقربة من المعاهد والكليات والجامعات التي يدرس فيها هؤلاء الطلاب. وكنت أعلم أيضاً أن الجزء الأكبر من الطلاب هم من المعارضين للشاه ونظامه وأن الصخب الذي يحدثونه لإعلان معارضتهم يزداد اتساعاً وحدة بمرور الأيام والأسابيع وانهم يتبعون نفس الطرق والأشكال التي كانت تلجأ إليها حركات الاحتجاج الامريكية أثناء حرب فيتنام، وأن مظاهرات الايرانيين قد انتشرت في عدة ولايات أمريكية. وتوصلت من نتيجة استطلاعاتي الشخصية أن جزءاً كبيراً من المواطنين الأمريكيين لا يشعرون بالتعاطف الكبير مع الطلاب الأجانب الذين يثيرون مشاكل بلادهم الداخلية على الأرض الأمريكية لما يلازم حركات الاحتجاج والتظاهرات من أعمال العنف والارتباك واقلاق راحة الناس وإرباك أعمالهم الاعتيادية. بل إن البعض منهم كان يرى في تلك الأعمال اساءة موجهة للولايات المتحدة التي تستضيفهم وتزودهم بالعلم والتدريب لخدمة بلادهم.

ولكن اكتشفت أيضاً أن الصخب الذي يحدثه الطلاب الايرانيون ومعهم زملاؤهم الطلاب الأمريكيون الذين يتعاطفون معهم قد نجح إلى حدٍ ما في

تغيير الصورة القديمة التي كانت في أذهان الناخبين الأمريكيين عن الشاه من صورة رجل متنور يحمل أفكاراً إصلاحية وملك مطبوع على حب الخير لشعبه يحاول، رغم اوتوقراطيته، إخراج شعبه من فقر وبؤس الماضي لتحل محلها صورة أخرى مغايرة حيث صار الكثيرون ينظرون إليه كطاغية مستبد ينهب ثروات شعبه ويسحق طموحاتهم السياسية والدينية والثقافية. وهكذا أصبحت للشاه في الولايات المتحدة صورتان تناقض إحداهما الأخرى. أما في واشنطن وخاصة في «الكونغرس» فإن صورة الشاه فيها كانت أكثر رونقاً وبهاءً. فلقد قام عدد كبير من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب، وخاصة البارزين منهم، بزيارات عديدة لإيران حيث كان الشاه يبالغ في مظاهر الحفاوة والترحيب بهم ويطلعهم على برامجه الطموحة لتطوير ايران بما كان يسميه «الثورة البيضاء» وكان أولئك الشيوخ والنواب يبدون إعجابهم الشديد بما يحققه لبلاده من تقدم في شتى مجالات الحياة بالإضافة إلى اعجابهم بصداقته الحميمة والصادقة للولايات المتحدة ويعتبرونه قوة نافعة وعاملاً مهماً للاستقرار والتقدم في تلك المنطقة المضطربة من العالم.

هذه الصورة البراقة للشاه يعود الفضل فيها بدرجة كبيرة لجهود سفير الشاه في واشنطن «ازدشير زاهدي» الذي كان معروفاً في العاصمة الأمريكية أنه أكثر الممثلين الدبلوماسيين الأجانب حيوية ونشاطاً وتأثيراً في الأوساط السياسية في العاصمة. وقد تمكن من تحقيق تلك المكانة المرموقة بحفلاته المتسمة بالبذخ والأبهة ونشاطه الواسع في مختلف الأعمال والمشاريع الخيرية ثم لدوره الناجح بالوساطة لوقف العمليات الإرهابية التي كان يقوم بها المسلمون الأمريكيون السود والتي كانت مصدر قلق للسلطات لعدة سنوات خلت. كنت فعلاً أتطلع بشوق للتعرف على هذا الرجل.

قابلته لأول مرة عندما أديت زيارة مجاملة له قبل ذهابي لعاصمة بلاده ومعي مدير الشؤون الإيرانية في وزارة الخارجية فاستقبلنا في مكتبه بالطابق الأول من مسكنه بدل أن يكون ذلك في مكتبه بمبنى السفارة وهو ما أثار استغرابي. ثم استغربت مرة جديدة عندما دعيت لحفلة العشاء التي أقامها في قاعة كبيرة فخمة في مبنى السفارة بدل أن يكون ذلك في المسكن.

كـان زاهدي رجـلاً طويـل القامـة وسيـماً لـه جسم ريـاضي يفيض حيـويـة ونشاطاً. كان يتكلم اللغة الانكليزية بطلاقة ولكن مع نبرة أجنبية.

في تلك المقـابلة الأولى تحدث زاهـدي بمزيـد من الحـماس عن عمله كسفـير لبـلاده في واشنـطن ذاكـراً عـدة أسماء معـروفـة من الشخصيـات السيـاسيـة والاجتماعية ومدى العلاقات الوثيقـة التي تربـطه معهم. وإذا ما تـطرق الحديث إلى الشاه فإنـه يتكلم عنه بمنتهى التـوقير والتبجيـل ولكنه من النـاحية الأخـرى يحاول إفهام الحاضرين بمتانة علاقـاته الشخصيـة بالعـرش والعائلة المـالكة. ولا يكنّ زاهدي لرئيس الوزراء عباس أمير هويدا الكثير من المودة والاحترام. كـان لقائي الأول مع نظيري ممتعاً.

لقائي الثاني مع زاهدي كان في حفلة العشاء الخاصة التي أقامها لنـا مساعـد وزير الخارجية «سدني سوبر» حيث أتيحت لي الفرصة لـلاستماع لـزاهدي وهـو يتحـدث بصورة أقـل مسرحية من المـرة الأولى. تحـدث زاهـدي عن ذكـريـاتـه الماضية في الولايات المتحدة حينما كان طالباً في جامعة «أوتا» لدراسة الـزراعة في الأراضي القـاحلة وكيف تجول في جميـع أنحـاء الـولايـات المتحـدة وأصبـح من المعجبين بالحيـاة الأمريكيـة وكل شيء أمـريكي. بعد رجـوعه إلى بـلاده التحق بمنظمة النقطة الرابعة الأمريكية التي أقامت في إيـران عدداً من مشـاريع التنميـة الاقتصـادية. ثم تحـدث عن ارتقائـه السريع في سلم البـيروقـراطيـة الايـرانيـة وأسهب في الحديث عن علاقاته مع وكالة المخابرات الأمريكية (سي. آي. اي) أثناء الانقلاب المضـاد الذي قـاده والده الجنـرال بالجيش الايـراني ضد حكـومة الدكتور مصدق والذي أعاد الشاه إلى عـرشه عـام 1953 وأن تلك العلاقـة التي تكونت بينه وبين الشاه أدت بالتالي إلى زواجه من ابنة الشاه الوحيدة من زوجته الأولى الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق. في تلك الحفلة قدم الينا ابنته الوحيدة وصغيرة الشاه الوحيدة والطالبة في جامعة «برنستون».

لم يشر زاهدي لدي في الاجتماعين بأنه شخص جـدي، فهو يتكلم في أغلب الأحيان بعبارات فلسفية عامـة مشوبـة بإيمـان غير متحفظ بعقيـدته الإسـلامية. ولست قادراً على القول ما إذا كان هذا يخفي وراءه عقلية شديدة التألق أو ستاراً

لشيء هو أقل مما تراه العين. ولكنه في كل الأحوال رجل ذكي لديه القدرة على الرؤية بوضوح أين تكمن مصالح بلاده الرئيسية وكذلك مستقبله الشخصي بالإضافة إلى قدرته على التأثير على الأمريكيين ببراعة. وعلى العموم لا أعتقد أنه يتحلى بفكر ثاقب وبارع في التحليل أو أن لديه القدرة على الاستيعاب أكثر من النهج المرسومة خطوطه العريضة في طهران.

المرة الثالثة التي قابلت فيها زاهدي كان غاية في التألق والبراعة. فقد دعيت وعقيلتي وابنتانا لحضور حفلة العشاء الرسمية التي أقامها على شرف وزير الزراعة الجديد «روبرت برغلاند» وكانت الحفلة تضم عدداً غير قليل من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب ورجال الصحافة بالإضافة إلى بعض السيدات الشابات الجميلات اللواتي يمثلن المجتمع الرسمي الراقي في واشنطن.

بعد انتهاء العشاء رأيت زاهدي يتنقل بين ضيوفه الذين توزعوا في أرجاء قاعة الاستقبال الفسيحة إلى مجموعات مختلطة صغيرة مستعملاً كل ما لديه من ظرف وكياسة ومجاملة مقدماً لهم أفخر الأنواع المعتقة من الخمور (دون أن يتناول شيئاً منها) ويجد لكل واحد ما يحدثه به في عباراته المختصرة التي قلما يكملها حتى النهاية. أما مع السيدات فكانت كياسته ومجاملته في أقصى الحدود. وقد لفت نظري وجود عدد كبير من الشبان الايرانيين والشابات وجميعهم في ملابس السهرة يتجولون بين المدعوين لخدمتهم والاطمئنان على راحتهم بمنتهى الذوق واللياقة وعلمت فيما بعد أن الشبان من موظفي السفارة الدبلوماسيين مع زوجاتهم. حقاً كانت حفلة في منتهى الأناقة والانشراح والذوق السليم من البداية وحتى نهايتها. ولا بد أن يقر الإنسان أن حكومة الشاه تملك فعلاً تمثيلاً دبلوماسياً في غاية الكفاءة والاقتدار في مدينة تهتم بمظاهر المجاملة الشخصية أكثر من اهتمامها بجوهر الحدث والنتيجة.

بالإضافة إلى المعلومات التي تجمعت لدي من مقابلاتي مع الموظفين الحكوميين وعدد من الأكاديميين أردت الحصول على معلومات مختلفة من رجال الأعمال الأمريكيين الذين لديهم صلات عمل واسعة مع ايران. كان عدد الأمريكيين الذين يقيمون ويعملون في إيران عام 1977 حوالي 35 ألف مواطن

أمريكي (ألفان في مشاريع القطاع العام والباقي في القطاع الخاص) ومع أن غالبية الشركات الخاصة كانت تعمل في ميدان الأسلحة والمعدات العسكرية والتكنولوجيا إلا أنها كانت شركات خاصة أكثر من كونها وكالات حكومية.

الشركة الأولى التي درست أوضاعها هي شركة «بل» لصناعة الطائرات المروحية وهي فرع من فروع مجموعة «تكتسرون» والتي تصنع طائرات «هووي» المروحية التي كانت تستعمل على نطاق واسع في فيتنام. كانت الشركة قد زودت إيران بعدد من هذه الطائرات مع طائرات أخرى أكبر حجماً وأكثر تطوراً وأرسلت إلى إيران عدداً كبيراً من المدربين والفنيين لغرض تدريب الطيارين الإيرانيين وصيانة الطائرات وأصبحت شركة «بل» بمرور الزمن وزيادة المشتريات الإيرانية من الطائرات وقطع الغيار والأدوات الاحتياطية أكبر شركة أمريكية في ايران تستخدم عدداً هائلاً من المواطنين الأمريكيين بين مدربين وفنيين وإداريين وعمال. ولما كان رئيس الشركة قد طلب مقابلتي بعيد وصولي من الفيليبين أردت الاطلاع على أوضاع الشركة وعقود عملها في ايران قبل مقابلته.

المعلومات التي حصلت عليها من وزارتي الخارجية والدفاع كانت تدل على أن المشروعات التي تشرف عليها الشركة غير محددة بفترة زمنية لا بسبب مشتريات ايران الجديدة من الطائرات فحسب وإنما لوجود مشاريع جديدة لصناعة وتجميع أنواع أخرى من الطائرات المروحية في ايران. ومرة أخرى لم تتضمن العقود الجديدة أي اشارة إلى تاريخ انتهاء العمل وتسليم المشروع للايرانيين لإدارتها بأنفسهم. ويبدو أن مجلس الشيوخ الأمريكي قد تنبه لهذا الإغفال وقامت لجنة ألفت لهذا الغرض بتقديم تقرير مسهب اختتمته بإبداء القلق من أن يصبح المواطنون الأمريكيون الذين يعملون في تلك المشاريع لسنوات طويلة مجموعة من المرتزقة الملحقة بالقوات المسلحة الإيرانية. وهو شعور بات يساورني أيضاً بعد الاطلاع على أسلوب عمل شركة «بل».

عندما جاء رئيس الشركة لزيارتي وضعت أمامه على الطاولة عدداً من عقود العمل وأبديت ملاحظة حول عدم ورود ما يشير إلى تاريخ كل مشروع وأني أستدل من ذلك أن شركة «بل» تعتزم البقاء في ايران إلى ما لا نهاية وتحاول

تغطية جزء كبير من ميزانيتها من الأرباح التي تحصل عليها في ايران. ومع أن رئيس الشركة لم يرد على ملاحظتي الصريحة إلا أنه بدا متضايقاً وبالتالي اتخذ موقف الدفاع والتبريرات لهذا الاغفال. وقبل أن ينتهي ذلك الاجتماع غير الودي اقترحت عليه ضرورة اجراء تغيير على هذا الأسلوب من العمل وتحديد تاريخ واضح لكل مشروع يتم تحويله بعدها إلى الإيرانيين لإدارته والاشراف على سيره.

بعد ذلك جاء لزيارتي رئيس شركة «طيران نورثروب» لإطلاعي على أعمال شركته في ايران. كان الايرانيون قد ابتاعوا قبل عدة سنوات طائرات (اف ـ 5) ثم اشتروا بعد ذلك أصنافاً أخرى أكثر تطوراً. قال رئيس الشركة إنهم قاموا بتدريب الايرانيين على قيادة الطائرات وصيانتها في الوقت المحدد لكل عملية.

كانت الشركة تدير أعمالها بنظام ونجاح بشكل طبيعي. لكن «نورثروب» تواجه في الوقت الحاضر مشكلة تتلخص بأن الشركة قد طورت طائرة جديدة شبيهة بمواصفاتها لطائرة (اف ـ 18) التي تستخدمها البحرية الأمريكية لغرض التصدير فقط. ولكن التعليمات الجديدة الصادرة مؤخراً عن ادارة الرئيس كارتر تحظر بيع أي طائرة جديدة في الخارج قبل أن تشتري القوة الجوية الأمريكية ما تحتاجه منها. ولما كانت الحكومة الإيرانية قد أبدت رغبتها بشراء عدد من هذه الطائرات الجديدة فإن الشركة في حيرة من أمرها! اعتذرت لرئيس الشركة لعدم استطاعتي ابداء المساعدة لحل هذه المشكلة.

بعد ذلك زارني عدد من مندوبي الشركات التي تتعامل بتصدير الأسلحة والمعدات العسكرية وكان معظمهم من الضباط المتقاعدين الذين سبق لي معرفتهم في شرقي آسيا أو أماكن أخرى والذين يعملون الآن بصفة ضباط ارتباط بين الشركات والدوائر الحكومية. ومع أن هؤلاء المندوبين لم يكن لديهم شيئاً يريدون تسويقه فإن زياراتهم أريد منها تجديد معرفتنا السابقة.

لم يكن النشاط التجاري الأمريكي في ايران مقتصراً بطبيعة الحال على بيع الأسلحة والمعدات العسكرية فقط إذ كان يشمل مختلف أوجه النشاط التجاري بصورة عامة ولذلك كانت مقرات الشركات الكبرى منها في نيويورك ونادراً ما

كان المسؤولون فيها يزورون واشنطن. ولما كنت أرغب في الاطلاع على هذه الناحية من الأعمال والتجارة الأمريكية في ايران فإني أجريت ترتيباً عن طريق إحدى الوكالات لعقد اجتماع مع رؤساء أكبر الشركات التي تتعامل مع ايران في نيويورك في تاريخ تم تحديده مسبقاً.

في ذلك الموعد المحدد اجتمعت بما يزيد عن ثلاثين من كبار المسؤولين في الشركات وأصغيت أكثر من نصف ساعة إلى وجهات نظرهم وآرائهم في المجالات التي تعمل فيها شركاتهم ومستقبل ايران من الناحية الاقتصادية. الجميع أبدى رضاه عن عمله وأرباحه وأعرب عن كثير التفاؤل بالاقتصاد الايراني ومستقبله. ولكن الرأي الذي خرجت به من أحاديثهم هو أن القسم الأكبر من هذه الشركات لم يكن استثمارها عادلاً ومنصفاً وإن شراكتهم للإيرانيين في المشاريع المشتركة التي يديرونها هي مقابل الخدمات التي يقدمونها دون المساهمة برأس المال. أثناء عملي في السفارة بالفيليبين اطّلعت على المشاكل المعقدة الناجمة عن انعدام التكافؤ والتوازن بين وسائل الانتاج ورأس المال، الأمر الذي جعلني أشك في صحة تفاؤلهم بمستقبل الاقتصاد الايراني. في الفيليبين كان العمال المهرة أكثر من أن يستوعبهمَ اقتصاد البلاد الفقير بينما الأمر معكوس في ايران حيث توجد وفرة كبيرة في رأس المال ونقص خطير في اليد العاملة الماهرة. فقد بلغت ايرادات ايران عام 1977 من تصدير النفط الخام حوالي 23 مليار دولار ولكن البلاد كانت تفتقر بشكل خطير للعمال الماهرين بل وحتى غير الماهرين. كما أني كنت أشك أيضاً بقدرة اقتصاد ايران على الاستيعاب السريع لبرامج التصنيع الضخمة التي يريد الشاه تطبيقها بقوة وسرعة واصرار. أعربت عن هذا الرأي من خلال الأسئلة والأجوبة التي تبودلت أثناء الاجتماع.

«والتر ليفي» الخبير بشؤون النفط والذي تربطني به معرفة قديمة كان أحد الحاضرين في الاجتماع واستمع مثلي للآراء المتفائلة لرجال الأعمال الأمريكيين حول الاقتصاد الإيراني. بعد انتهاء الجميع من ابداء وجهات نظرهم نهض ليفي قائلاً أنه يود التعليق على الآراء التي سمعناها وأن له وجهة نظر مخالفة

لكل ما قيل في الاجتماع. استهل ليفي كلامه بمهاجمة طبيعة النظام القائم في ايران من الناحية السياسية وتحدث بإسهاب عن حالة الفساد المستشرية في أجهزة الدولة وانتقل بعد ذلك إلى سوء أوضاع الطبقة العاملة وانتشار السخط والتذمر ضد النظام في أوساطهم. وانتقل بعد هذا إلى الحالة الاقتصادية ووصفها بالضعف والوهن وفند الآراء القائلة بسلامة الاقتصاد الإيراني وقوته. أثارت أقوال ليفي انزعاجاً كبيراً لدى رجال الأعمال ورد عليه بعضهم مؤكدين آراءهم المتفائلة حول الأوضاع الاقتصادية السليمة مستشهدين بوفاء الحكومة بجميع التزاماتها المالية كما أنكروا وجود أي تذمر جدي في صفوف العمال الذين أصبحوا ينعمون لأول مرة في تاريخ ايران بمستوى جيد من الدخل الذي يؤمن لهم حياة ناعمة ومستقبل مضمون. رغم ما كنت أعرفه عن والتر ليفي من المبالغة والتشاؤم إلا أني شعرت غريزياً أن الصورة المتشائمة التي قدمها عن أوضاع ايران قد تكون أقرب الى الحقيقة والواقع من تلك الصورة البراقة التي قدمها رجال الأعمال الأمريكيون. انفض اجتماعنا وغادرت المكان وأنا أشعر بعدم الارتياح لاجماع هؤلاء الرجال الذين يتمتعون بالنضج والذكاء على تجاهل حقائق باتت معلومة لدى الكثيرين من الأمريكيين.

بعد ذلك كان الإجراء الآخر المطلوب مني القيام به في واشنطن هو زيارة الكونغرس والإدلاء بشهادتي أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. ولكني أردت قبل ذلك عقد جلسة عمل قصيرة مع لجان التنسيق في مجلسي الشيوخ والنواب لاستطلاع آرائهم حول ايران وأوضاعها. كان رئيسا اللجنتين وبعض أعضائهما من أصدقائي المقربين مدة تزيد عن ثلاثين سنة حيث كنا من أبناء جيل واحد ونشأنا على مفاهيم وقناعات متماثلة. أما بقية الأعضاء فإنهم كانوا أصغر سناً وأكثر حداثة في العمل السياسي ولديهم قناعاتهم ووجهات نظرهم المختلفة وبالتالي أكثر تعاطفاً مع الحركات الطلابية الإيرانية المناوئة لنظام الشاه. وقد حذرني أولئك الأعضاء من احتمال تفاقم الاضطرابات السياسية في ايران شدة واتساعاً. وإن الكثيرين من الأمريكيين باتوا ينظرون إلى الدعم الذي تقدمه الولايات المتحدة للشاه بمزيد من التحفظ والحذر. ولكن في الحديث الذي دار بيني وبين بعض كبار الأعضاء في مجلس الشيوخ والنواب

وجدتهم غير غافلين عن الضجة القائمة حول الشاه ونظامه إلا أنهم يرون أنها قليلة الأهمية والتأثير لأنها ليست المرة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا الضجيج خلال سنوات حكم الشاه الطويلة.

كان السبب الرئيسي لزيارة الكونغرس هو الحصول على تأييد مجلس الشيوخ بتعييني سفيراً للولايات المتحدة في ايران، وهو اجراء يتحتم على كل سفير مرشح تأديته. فرؤساء الجمهورية يستطيعون ترشيح السفراء ولكن تثبيتهم في هذا المنصب لا يتم قانونياً إلا بعد تصديق مجلس الشيوخ عليه.

كان رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ «جون سباركمان» من ولاية ألاباما وقد حل محل الشيخ «فولبرايت».

كانت لي معرفة قديمة برئيس وأعضاء اللجنة إذ سبق وأدليت بشهادتي أمامهم في عدة مناسبات حول قضايا سياسية تتعلق بأقطار الهند الصينية وذلك أثناء خدمتي في تلك المنطقة من العالم. ورغم مشاعر القلق نحو الأوضاع في ايران وصلتي الوثيقة بحكم منصبي الرسمي ببعض مشاكل الهند الصينية لم أكن أتوقع قيام أية مشكلة في أمر تثبيتي بالمنصب الذي رشحت له. ولكن قبل موعد انعقاد الجلسة بوقت قصير علمت أن اللجنة استدعت أستاذين جامعيين للإدلاء بشهادتيهما، الأول من جامعة «برنستون» والثاني من جامعة «جورج تاون» وفهمت أيضاً أن الشهادتين سوف تكونان ضد ترشيحي لسفارة ايران وأن معارضة الأول تقوم على أساس علاقتي بقضايا الهند الصينية بينما تقوم معارضة الأستاذ الثاني على أساس معارضته الشخصية لنظام الشاه. كما علمت أيضاً أن الأستاذ القادم من جامعة «جورج تاون» سيصطحب معه إلى اللجنة حوالي خمسين طالباً ايرانياً.

في يوم انعقاد اللجنة حاول حوالي خمسين شاباً يرتدون الأقنعة لاخفاء هوياتهم الدخول إلى مبنى الكونغرس إلا أن الشرطة منعتهم من الدخول وسمح لهم بالوقوف على الرصيف على مسافة قريبة من البوابة الرئيسية.

مثلت أمام اللجنة في الموعد المحدد وألقيت بياناً موجزاً ثم أجبت على الأسئلة التي وجهها بعض أعضاء اللجنة وبذلك انتهى دوري وسمح لي

بـالانصراف لئلا أكـون حـاضـراً في الغـرفـة أثنـاء إدلاء الأستـاذين الجـامعيـين بشهـادتيهما. غـادرت مبنى الكونغـرس وشاهـدت مجموعـة من الشبان المقنعـين يقفـون على مسـافـة قصـيرة فـاتجهت نحـوهم بـأمـل اكتشـاف هـويتهم وسبب حضـورهم. ولكن لمـا رأيت أنهم فسحـوا لي مجـالاً للمـرور بينهم بـدل اغـلاق الطريق بوجهي أدركت أنهم لم يكتشفوا هويتي فواصلت السير بصورة طبيعية.

خلال أيام قليلة أرسلت اللجنة تقريرها وبذلك تمت مـوافقة مجلس الشيـوخ على تأييد ترشيحي للسفارة في ايران وجـاءت الموافقـة باجمـاع آراء اللجنة عـدا صوت واحد هو صوت الشيخ «دين كلارك» والأمر الذي أثـار استغرابي هـو أنه كان متغيباً عن الجلسة في يوم اجتماعها ولذلك أردت معـرفة السبب الـذي دفع هذا العضو الشيخ الذي لا تربطني به معرفة سابقة للاعتراض وما الذي يزعجه من ذهابي سفيراً إلى ايران! طلبت من موظفي الدائرة المختصة بوزارة الخـارجية ترتيب موعد لزيارة السيد كلارك ولكنه وقـد أدرك بالبـداهة سبب زيـارتي بعث يقول إن تسجيل صـوته كمعـترض على قـرار اللجنة كـان خطأ صـدر عن أحد مساعديه ولكنه مع ذلك ليست لديه الرغبة بزيارتي!

بعـد يومـين من ذلك أديت القسم القـانوني في مكتب مـديـر دائـرة المـراسم بوزارة الخارجية وبذلك انتهت جميع الإجراءات الرسمية ولم يعد هناك ما يـدعو لبقائي في واشنطن فأكملت الاستعدادات لمغادرتها في أقرب وقت ممكن لاستلام مهمتي الدبلوماسية الجديدة في ايران.

3

الوصول إلى مقر العمل

نظراً لوجود عدد ضخم من العسكريين الأمريكيين في ايران من ناحية ومشتريات ايران الكبيرة والمتنوعة من الأسلحة والمعدات العسكرية الأمريكية من الناحية الأخرى فقد تلقيت دعوة من القيادة العسكرية الأمريكية في أوروبا لزيارة مقر القيادة في طريقي إلى ايران. هذه القيادة كانت الجهة المسؤولة عن تأمين نقل وايواء وتموين الأشخاص العسكريين الذين ينتدبون للخدمة مع بعثة المساعدات العسكرية والاستشارية الأمريكية في ايران. لهذا قررت وعقيلتي التوقف في فرانكفورت للانتقال منها إلى مدينة شتوتغارت حيث يوجد مقر القيادة العسكرية الأمريكية في أوروبا.

انتقلنا من فرانكفورت إلى شتوتغارت بطائرة عسكرية صغيرة حيث كان بانتظارنا ضابط أوفدته القيادة لمرافقتنا إلى منزل نائب القائد الأعلى لقوات الولايات المتحدة في أوروبا «الجنرال روبرت هيزر». ورغم عدم وجود معرفة سابقة بيننا من قبل فإن علاقة ودية وحميمة قامت بيننا بعد ذلك الاجتماع القصير حيث أعجبني فيه دماثة الخلق والصراحة والاستقامة.

أقام الجنرال مساء ذلك اليوم حفلة عشاء كبرى على شرفنا حضرها عدد من كبار ضباط مقر القيادة مع عقيلاتهم وبعض شخصيات مدينة شتوتغارت البارزة من الألمان. بعد انتهاء الحفلة ومغادرة المدعوين دار حديث قصير بيني وبين الجنرال هيزر أوجز فيه بعض المشاكل التي تواجهها عادة بعثة عسكرية كبيرة

مثل بعثة ايران تعمل في موقع بعيد عن البنية المركزية لقيادة القوات الأمريكية في أوروبا.

في صباح اليوم التالي عقد اجتماع رسمي حضره بالإضافة إلى الجنرال عدد من كبار مساعديه لإعطائي مزيداً من المعلومات عن المشاكل المتعلقة بالجالية العسكرية الكبيرة في ايران. غادرنا شتوتغارت بعد انتهاء الاجتماع مباشرة بنفس الطائرة الصغيرة التي أقلتنا إليها في اليوم السابق ووصلنا فرانكفورت في وقت مناسب لنستقل الطائرة المتوجهة إلى طهران. وصلنا أجواء طهران بعد حلول الظلام بقليل ورأينا من الطائرة أنوارها المتألقة والممتدة حتى سفوح جبال «البرز» الشاهقة المطلة على المدينة ذات الملايين الخمسة من السكان. كان باستقبالنا على أرض المطار مدير دائرة التشريفات الإيراني ومعه القائم بأعمال سفارتنا ولكن عند دخولنا إلى قاعة التشريفات المخصصة لاستقبال ضيوف الدولة والشخصيات المهمة وجدنا بانتظارنا حوالي عشرين من موظفي سفارتنا قدموا مع قريناتهم لاستقبالنا.

بعد استراحة قصيرة غادرنا القاعة ووجدنا السيارة الرسمية المصفحة بانتظارنا مع السائق الأرمني الذي سمعت عنه قبل وصولي إلى طهران. كان السائق يعمل مع سفارتنا مدة تزيد على عشرين سنة، وقد سمعت الكثير عن مهارته الفائقة في القيادة بالإضافة إلى الشجاعة التي يتحلى بها وكيف تمكن بمهارته تلك وشجاعته من انقاذ حياة سفير أمريكي سابق في طهران «دوغلاس ماك ارثر الثاني» عندما جرت محاولة لاغتياله في أحد شوارع طهران قبل عدة سنوات. بالإضافة إلى ذلك كان رجلاً يتصف برجاحة العقل والاتزان مع روح مرحة لا تفارقه في أحرج الظروف. والطريف في ما سمعته أيضاً عن هذا السائق هو أن معلوماته عما يحدث في طهران مذهلة ومدهشة.

قطعت سيارتنا شوارع طهران الواسعة حتى وصلنا إلى شارع أيزنهاور ومن هناك الى تقاطع لعدد من الطرق تؤدي واحدة منها إلى السفارة الأمريكية بأقل من عشرين دقيقة بينما يحتاج الإنسان لقطع نفس المسافة نهاراً ما يقرب من ساعة كاملة نظراً للازدحام الشديد في الشوارع.

عند وصولنا إلى مجمع السفارة الواقعة في زاوية بين شارع روزفلت وتختة جمشيه اجتازت السيارة بوابة حديدية ضخمة ثم قطعت طريقاً جميلاً بين الأشجار وتوقفت أمام مدخل مسكن السفارة.

كانت البناية من تصميم معماريين أمريكيين مع زخرفة فارسية، ومع أن المزج لم يكن ناجحاً تماماً من ناحية الذوق المعماري إلا أنها كانت جميلة ومريحة ومتينة.

ولما كانت جميع مستلزمات الحياة اليومية ووسائل الراحة متوفرة في المسكن لم تكن هناك حاجة لأية زيادة أو إضافة أو إجراء تغيير في الأثاث والأدوات، الأمر الذي جعل من الممكن أن أباشر عملي الرسمي ابتداءً من اليوم التالي لوصولنا طهران.

بدأت عملي، كما هي عادتي في السفارات التي عملت فيها قبل طهران، بالتعرف على هيئة الموظفين وطبيعة عمل كل قسم على حدة لتكوين فكرة واضحة عن سير العمل قبل وضع الأسلوب والمنهاج الذي أراه ملائماً لإنجاز واجبات كل قسم بيسر وسهولة وتعاون مختلف الأقسام مع بعضها البعض. الأسلوب الذي كنت أتبعه دائماً هو تمضية يوم عمل مع كل قسم لأطلع على واجبات كل موظف فيه وطريقة عمله ثم نجري مناقشة مفتوحة يشترك فيها جميع موظفي القسم فتطرح الآراء والأفكار ثم نتفق على طريقة وأسلوب لتحسين نوعية الانجاز وسرعته.

كانت بعثة طهران كبيرة بعدد موظفيها والملحقين بها والمنتسبين إليها ولو أنها كانت أصغر قليلاً عن بعثة الفيليبين. كان عدد موظفي سفارة طهران يضاف إليهم مختلف درجات البعثة العسكرية يزيد على ألفي شخص. ويبلغ عددهم بعد اضافة عائلاتهم حوالي خمسة آلاف شخص. كما كان يبلغ عدد الإيرانيين المستخدمين في السفارة والمنتسبين إليها حوالي ألفين آخرين ولذلك كنت بحاجة لبعض الوقت لمعرفة ما يعمله كل واحد من هذا العدد الضخم. أما عدد الفريق العسكري فإنه كان أكبر من هذا بكثير، كما كان القسم الأكبر منهم من العسكريين الذين ينتدبون للخدمة في ايران لمدة سنة واحدة بدون عائلاتهم

للمساعدة في تدريب القوات الايرانية على استعمال واستيعاب المعدات العسكرية المتطورة التي كانت الحكومة الايرانية تبتاعها من الولايات المتحدة. بالإضافة إلى كل هذا كانت لأمريكا مؤسسات تعمل في المجالات السياسية والاقتصادية والاعلامية والادارية والقنصلية. وكان هناك أيضاً بطبيعة الحال فريق كبير من رجال المخابرات الذين يعملون بارتباط وثيق مع الايرانيين. الشيء الذي لفت انتباهي بعد أن اطّلعت على وضع السفارة والموظفين هو أن عدداً قليلاً منهم لديهم خبرة سابقة بايران وعدداً أقل من ذلك من له معرفة باللغة الفارسية. ولما تحريت عن الأسباب علمت أن معظم الموظفين الذين يمضون فترة خدمة واحدة لعدة سنوات في ايران لا يرغبون في العودة إليها مرة أخرى بسبب ما يحملونه معهم من فكرة سيئة عن الحياة فيها كمشكلة تعليم أولادهم وعدم استساغتهم لنمط الحياة والثقافة فيها. الأمر الآخر الذي أثار استغرابي هو الارتفاع الكبير لعدد الإيرانيين الأرمن والقلة الملحوظة في عدد الإيرانيين المسلمين المستخدمين في السفارة، وعندما بحثت هذه الظاهرة الغريبة مع بعض زملائي من السفراء الغربيين المعتمدين في طهران قيل لي إن نفس الظاهرة موجودة في سفاراتهم. وتفسيرهم لها هو أن المسلمين الشيعة لا يستسيغون الخدمة لدى سفارات أجنبية، كما يعتقدون أيضاً أن الانضباط في العمل الذي تتطلبه أخلاقيات الخدمة في الغرب لا يقبله الإيراني المسلم ويجده جارحاً لأعرافه وتقاليده. لم أشعر بالعزلة في مختلف البلاد التي خدمت فيها طوال سنوات عملي مثلما شعرت في ايران ولهذا قررت تعلم اللغة الفارسية في أقرب وقت ممكن لأخترق هذا الحاجز الذي يحول دون تعرفي على حضارة البلاد ومجتمعها.

النتيجة التي خرجت بها من دراستي لأوضاع السفارة كانت مطمئنة ومسرّة لما شاهدته من حُسن سير العمل في مختلف الأقسام والكفاءة العالية التي يتمتع بها الموظفون وإخلاصهم في اداء واجباتهم. كما أني شعرت بالسرور لما بذله نائبي «جاك سيكلوس» من جهد وعناء خلال عمله كقائم بالأعمال لإدارة شؤون السفارة وانتظام سير أعمالها ونشاطها في كافة المجالات.

بعد هذا اتجه اهتمامي لموضوعين آخرين أولهما يتعلق بالمبيعات العسكرية

الأمريكية لإيران والثاني حول سياسة الشاه لتصنيع ايران في أسرع وقت ممكن.

منذ أوائل السبعينات بدأت ايران بشراء الأسلحة والمعدات العسكرية من الولايات المتحدة بكميات هائلة وغير محدودة فأقيمت بعثتنا العسكرية. في تلك الأثناء كانت الهيئة الاستشارية العسكرية تؤدي بصورة رئيسية دور الوكيل لمشتريات ايران العسكرية. فالحكومة الايرانية تضع خطة مفصلة باحتياجاتها من الأسلحة والمعدات ثم تسلم لهيئة المساعدات العسكرية لشرائها في الولايات المتحدة من الاعتمادات المالية الايرانية المخصصة لهذا الغرض. إن هذه الطريق المتبعة لا يجب تغييرها بسبب تعليمات الرئيس كارتر الجديدة حول مبيعات الأسلحة فحسب وإنما أيضاً لاعتقادي بأن الهيئة الاستشارية العسكرية الأمريكية مطلوب منها أن تعطي الايرانيين شيئاً أكثر من النصح حول قدراتهم على استيعاب الأسلحة التي يتزودون بها وكيفية خدمتها وصيانتها واستعمالها بكفاءة. ولقد رأيت من ملاحظاتي الأولية أن باستطاعتنا تقديم خدمة بناءة للإيرانيين إذا خطونا خطوة أوسع وأخذنا عنهم الالتزامات المستمرة الناجمة عن شرائهم معدات متطورة. الموضوع الثاني الذي كان يشغل بالي يتعلق بمستقبل سياسة الشاه الهادفة إلى تحويل إيران إلى دولة صناعية واحتمالات نجاحها أو فشلها وذلك ضمن دراسة شاملة للاقتصاد الايراني ومواطن ضعفه وقوته، فلقد بدأت الشكوك تساورني حول واقعية هذه السياسة بعد سماعي أحاديث رجال الأعمال الأمريكيين في نيويورك ثم زادت تلك الشكوك عندما اطّلعت بشكل أعمق على التوازن الاقتصادي في ايران ولذلك كنت بحاجة لدراسة اقتصادية شاملة حول قدرة الاقتصاد الايراني على استيعاب برامج التصنيع الضخمة والمعقدة التي كان الشاه يصر على فرضها على شعبه، أي أنني كنت أريد معرفة قدرة الإيرانيين على استيعاب عملية التصنيع كالحاجة لليد العاملة المدربة والإمكانيات الفنية والتقنية وغير ذلك. ولما لم يكن بمقدور الدائرة الاقتصادية للسفارة التفرغ لمثل هذا العمل الذي يحتاج كثيراً من الوقت والجهد نظراً لانشغال الدائرة برمتها وبصورة تكاد تكون مستمرة دون انقطاع لمساعدة وتسهيل أمور رجال الأعمال الأمريكيين الوافدين بأعداد كبيرة إلى طهران فقد اضطرنا الأمر لطلب مساعدة وزارة الخارجية في واشنطن للاستعانة بعدد من

الباحثين الاقتصاديين. غير أني لم أتمكن من الحصول على مثل الدراسة التي كنت أنشدها رغم أن الموضوع أصبح هاجسي الذي ظل يلازمني طول الوقت ورغم مضايقاتي المتواصلة لموظفي الدائرة الاقتصادية في السفارة.

الشيء الجديد الذي وجدته في سفارة طهران هو أن حياتنا الخاصة والعامة كانت تدور في مجمع واحد حيث مكاتب السفارة ومسكن السفير شيدت قريبة من بعضها داخل سياج واحد وهو ما لم أشاهده طوال سنوات خدمتي الدبلوماسية الثلاث والثلاثين. ولا شك أن السكن على مسافة خطوات من مكان العمل الرسمي كانت توفر عليّ مشقة الانتقال بالسيارة في شوارع طهران المزدحمة بالسيارات والبشر والاختناقات الطويلة في حركة المرور وهو شيء جيد ولكنني كنت أشعر طوال الوقت أني أحمل معي مشاكل العمل الرسمي خاصة وأن غرفة الشيفرة كانت على مسافة أمتار معدودة من مكان إقامتي. كان للسفارة مجمع آخر في السابق يقع في طرف المدينة الشمالي ويحتل مساحة لا تقل عن اثني عشر هكتاراً، ولكن بعد الزيادة الكبيرة في عدد سكان العاصمة اتسعت حركة العمران وتمددت المدينة في جميع الاتجاهات بحيث أصبح مجمع السفارة هناك محاطاً من جهاته الثلاثة بعمارات سكنية عالية كما أقيم في الجهة الرابعة الشرقية ملعب كبير لكرة القدم كانت المباريات اليومية لا تتوقف فيه.

النواحي الأخرى في سفارة طهران لم تكن تختلف عن السفارات الأمريكية الأخرى عدا بعض الأشياء التي كان يتطلبها وجود جالية أمريكية ضخمة في ايران. على سبيل المثال تلك المدرسة الأمريكية الضخمة في شمالي المدينة في مجمع من الأبنية شيدت أصلاً لتكون ملحقاً للكلية العسكرية الإيرانية تستوعب عدداً لا يقل عن ثلاثة آلاف طالب. ثم كان هناك مستشفى أمريكي صغير لا يزيد عدد الأسرّة فيه عن 25 سريراً مجهزاً بأحدث المعدات والأدوات الطبية وتحت إدارة أطباء عسكريين أمريكيين. ولعل الشيء الفريد في طهران هو مركز الخدمات الاجتماعية الذي أنشىء لمعالجة حالات الاضطرابات النفسية التي كانت تصيب بعض أفراد الجالية الأمريكية الذين كانوا يجدون صعوبة في معالجة مشاكلهم الحياتية والتكيف مع ظروف وتقاليد غريبة عنهم وبالتالي يقعون ضحية الإدمان على الخمرة أو المخدرات أو التوتر النفسي الشديد. كان المركز بإدارة

طبيب أخصائي في علم النفس يساعده بعض الموظفين المؤهلين. الأموال اللازمة لإدارة هذا المركز كانت تجمع من تبرعات الشركات الأمريكية العاملة في إيران.

خلاصة القول، كانت سفارة طهران من البعثات الكبيرة والمعقدة التي تتطلب إدارة واسعة. فبالإضافة إلى المواطنين الأمريكيين الذين كانوا يقيمون في طهران كانت هناك جاليات أمريكية صغيرة متفرقة في أنحاء مختلفة من ايران ثم قنصليات عامة في تبريز وأصفهان وشيراز كما كان للمركز الإعلامي فروع للجمعيات الأمريكية الإيرانية في كل من مشهد والأهواز وهمدان. ولذلك قررت القيام بجولة واسعة خلال الشهور القليلة الأولى من استلامي لشؤون السفارة لزيارة جميع هذه الأماكن والاطلاع على الأوجه الأخرى للمصالح الأمريكية في هذا البلد الغريب والمثير للاهتمام. ولكن قبل ذلك كان علي تقديم أوراق اعتمادي للشاه ثم زيارة كبار المسؤولين في الحكومة الإيرانية وكذلك زيارات المجاملة والتعارف لزملائي السفراء المعتمدين في طهران. ونظراً للأهمية التي تتمتع بها ايران كدولة رئيسية مصدّرة للنفط كان عدد السفراء في طهران يتجاوز السبعين سفيراً كان عليّ تبادل الزيارات مع كل واحد منهم.

4

الشاه محمد رضا بهلوي

الاحتفال الخاص بتقديم أوراق الاعتماد لسفير دولة من الدول لرئيس دولة أخرى اعتمد لتمثيل بلاده فيها يتضمن عادة مراسم معينة حسب نظام الدولة المضيفة وتقاليدها. البلاد ذات النظام الجمهوري تميل إلى تبسيط المراسم قدر الإمكان (في الولايات المتحدة يستلم الرئيس أوراق اعتماد ستة سفراء دفعة واحدة وفي مراسم بسيطة) ولكن البلاد ذات النظم الملكية ـ كبريطانيا مثلاً ـ تضفي على المناسبة كثيراً من مظاهر الفخامة والأبهة كالعربات المطلية بالذهب والفرسان الذين يمتطون صهوة الجياد المطهمة والملابس الرسمية الخاصة وغير ذلك. فيما يتعلق بإيران وبلاطها الشاهنشاهي فالمراسم فيها تتسم بالوقار والهيبة ولكن دون مظاهر الفخامة المبالغ فيها.

في مساء اليوم السابق ليوم تقديم أوراق اعتمادي للشاه كان عليّ أن أذهب إلى القصر وبرفقتي كبار موظفي سفارتنا لإجراء تمرين على مراسم اليوم التالي التي ستتضمن تقديمي للشاه كتاب استدعاء سلفي مع كتاب اعتمادي سفيراً لدى البلاط الامبراطوري بتوقيع رئيس الولايات المتحدة ثم أتلو أمام الشاه البيان السياسي القصير الذي أكون قد أعددته مسبقاً حول سياسة الولايات المتحدة نحو إيران. بعد الانتهاء من ذلك يرد الشاه مرتجلاً بكلمة قصيرة على البيان الذي ألقيته ثم أقوم بتقديم كبار المسؤولين في سفارتي إلى الشاه وأنتقل بعد ذلك مرافقاً الشاه إلى غرفة مكتبه حيث نتداول حديثاً قصيراً وبذلك ينتهي

الاحتفـال. بعد الانتهـاء من اجراء التمـرين عدت إلى دار السكن لأراجـع مع نفسي ما استوعبته من معلومات عامة عن ايران خلال المـدة القصيرة الفـائتة. لم تكن معلومات واسعة أو عميقـة وإنما سـطحية بعض الشيء حصلت عليهـا من الكتب القليلة التي تمكنت من الاطلاع عليها مؤخراً.

الإيرانيون هم أحفاد الفرس القدماء الذين أقاموا قبل ما يزيد عن 2500 سنة امبراطورية واسعة الأرجـاء تمتد من الأطـراف الجنوبيـة للاتحـاد السوفييتي اليـوم وحتى مصر غـرباً حيث بلغت تلك الامـبراطوريـة شأنـاً عظيـماً في عهد كـورش وداريوس. وقد وضع أولئك الشـاهات الأسس لمبـدأ القانـون والمسؤولية المـالية والإدارة المـركزيـة. وحتى بعد سقـوط امبراطـوريتهم كان الفـرس يخـدمـون في الـوظـائف الادارية لـدى معـظم الـدول التي قـامت في المنـطقـة بعـد انهيـار الامبراطورية الفارسية.

تلك الذكريـات الماضيـة جعلت الكثيرين من الايـرانيين يحملون حتى يـومنا هذا أفكاراً رومانسية عن الماضي البعيد ويشعرون بأن التـاريخ قـد هضم حقهم وحـرمهم من جني ثمار المـاضي السعيد وهم يتـطلعون إلى انبعـاث جديـد يعيـد إليهم هيمنتهم على المنطقة. ثم إن الفرس يشعرون أيضاً بنـوع من الترفـع على الأقوام التي تجاورهم ويعتبرون أنفسهم أمة تستحق مكانة تحت الشمس أفضـل مما أعطتهم أحداث التاريخ ويتطلعون إلى يوم يعيد لهم عظمة فارس القديمة.

وقد تعرضت بلاد فارس خـلال قرون عـديدة لـوطأة الاحتـلال الأجنبي من أمم أخرى كاليـونان والـرومان والأتـراك السلاجقـة والمغول والعـرب والانكليز والروس، ومع ذلـك استطاعـوا بوسيلة أو أخـرى الاحتفاظ بهـويتهم القوميـة. يقول بعض المؤرخين إنهم تمكنوا من تحقيق ذلك مقابل ثمن دفعوه وهو اتخاذهم مبدأ النفعية، أي النزوع إلى جر المغانم من غير اعتبار لأخلاقية الوسيلة سلوكـاً سيـاسياً مقبـولاً. ويقولـون أيضاً إن هـذا السلوك بالـذات جعل الفـرس خبراء ماهرين في تمييـز الفئة أو الأمـة السائـرة في طريق النجـاح والقوة لـلالتصاق بهـا وضمان صداقتها. وللسبب نفسه اشتهر الفرس بقدرتهم على تمييـز من بدأ يفقـد السلطة من الـزعماء ـ أو الشعـوب ـ للاسراع بـالانفصـال والابتعـاد عن الجهـة الخاسرة.

في القرن التاسع عشر وجدت فارس نفسها محشورة وسط صراع عنيف على مناطق النفوذ بين قوتين عظميين في ذلك الوقت هما الامبراطورية الروسية الزاحفة من الشمال نحو الجنوب والامبراطورية البريطانية المتقدمة من ممتلكاتها الهندية نحو الشرق الأوسط، الأمر الذي جعل بلاد فارس بيدقة في «لعبة كبرى» بين الامبراطوريتين. كانت بلاد فارس في ذلك الوقت دولة بالاسم فقط إذ لم تكن سلطة حكومة الشاه القاجاري تتجاوز ضواحي العاصمة طهران أما بقية أنحاء البلاد فإن أصحاب الاقطاعيات الكبيرة ورؤساء القبائل كانوا يحكمون مناطقهم مستقلين عن سلطة الحكومة الشاهنشاهية في العاصمة، ولكنهم كانوا يخضعون للنفوذ الروسي في الشمال والبريطاني في الأقاليم الشرقية والجنوبية. وقد وصل ضعف حكومة الشاه في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لدرجة تمكن معها الروس من انشاء جيش محلي تحت قيادة الضباط الروس في الشمال (لواء القوازق) وأقام البريطانيون جيشاً محلياً آخر في الجنوب (كتيبة البنادق الخفيفة) بقيادة ضباط بريطانيين كانت تستعار خدماتهم من الجيش البريطاني في الهند.

في مثل هذه الأوضاع المزرية كان رجل الشارع الفارسي يدرك جيداً أن حكومة الشاه في طهران عديمة الحول والطول وإن القرارات المتعلقة بشؤون حياته تأتي من موسكو أو لندن. وقد ترسخ هذا الواقع في وعي الفرد الفارسي السياسي بمرور الزمن رسوخاً عميقاً بحيث صار الفرد الإيراني حتى يومنا هذا يعتقد اعتقاداً جازماً أن جميع المشاكل والمتاعب التي تواجهها إيران هي من صنع قوى أجنبية معادية. وقد يتفهم المرء وجود مثل هذا الشعور لدى أغلبية الايرانيين بسبب ما عانوه من تدخل الأجانب في شؤونهم الداخلية على مدى قرون عديدة. غير أن هذه الحالة النفسية التي تؤدي بصاحبها للشك بكل ما هو غريب وأجنبي جعلت من الصعوبة بمكان على أي أجنبي أن ينشىء مع الإيراني علاقة حميمة قائمة على الثقة المتبادلة، وهي ظاهرة غريبة ولكنها تكاد تكون عامة ابتداءً من رجل الشارع العادي حتى تصل إلى الشاه نفسه.

الشاه محمد رضا بهلوي هو ابن الشاه رضا بهلوي الذي أقام الحكم البهلوي في ايران عام 1925. ولد الأب رضا بهلوي في احدى الأقاليم الشمالية لبلاد

فارس بالقرب من بحر قزوين. كان في مقتبل عمره شاباً فارع القامة ضخم البنية قوي الجسم يتمتع بالذكاء ويتحلى بصفات تؤهله للقيادة. اختار الشاب رضا بهلوي حياة الجندية مسلكاً والتحق بقوات القوازق التي شكلتها روسيا القيصرية في الأقاليم الشمالية وأظهر أثناء خدمته تفوقاً ملحوظاً على أقرانه من الفرس المجندين في لواء القوازق وتسلق بسرعة سلم الدرجات العسكرية حتى نال لقب «رضا خان» برتبة مقدم. عندما قامت الثورة الشيوعية في روسيا غادر الضباط الروس مراكزهم في لواء القوازق وعادوا إلى بلادهم وبذلك فتح المجال أمام رضا خان ليتسلم قيادة اللواء بصفته أقدم ضابط فارسي داخل صفوفه. البريطانيون الذين كانوا يسيطرون على الأقسام الجنوبية من بلاد فارس رأوا في مغادرة الضباط الروس وعودتهم إلى بلادهم فرصة ذهبية لبسط سيطرتهم على جميع أرجاء البلاد فاقترح الجنرال البريطاني «آيرون سايد» الذي كان يتولى قيادة كتيبة البنادق الخفيفة البريطانية في الجنوب على قائد لواء القوازق الجديد رضا خان أن يزحف بقواته نحو الجنوب حتى أبواب العاصمة طهران والضغط على الشاه القاجاري للقبول بالحماية البريطانية على فارس. رضا خان، الذي كانت لديه طموحاته وخططه زحف فعلاً بقواته حتى أبواب طهران ولكنه لم يضغط على الشاه لقبول الحماية البريطانية إذ كان يخطط لإجبار الشاه على التنازل عن العرش لإقامة نظام جمهوري في ايران على غرار ما فعل كمال أتاتورك في تركيا.

كان رضا خان شديد الإعجاب بجاره في تركيا كمال أتاتورك الذي انتهز فرصة هزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى وأجبر الخليفة على التنازل وأعلن قيام الجمهورية التركية الحديثة ثم طبق برنامجاً طموحاً لتحديث بلاده في مختلف مجالات الحياة وجعلها دولة علمانية على غرار الدول الغربية.

كان طموح رضا خان أن يحقق في فارس ما حققه كمال أتاتورك في تركيا الحديثة.

خلال السنوات القليلة التالية كان رضا خان يناور البريطانيين والعرش القاجاري بمزيد من الدهاء إلى أن قامت في البلاد أوضاع ساعدته على تحقيق هدفه الأول وإسقاط الملكية القاجارية وتسلم زمام الأمور في البلاد ولكنه تخلى

عن الهدف الثاني بإقامة جمهورية فارسية فأعلن نفسه الشاه الجديد وذلك بالاتفاق مع القيادات الروحية في البلاد.

في العام 1906 تمكنت القيادات الدينية بالتعاون مع بقية الفئات المعارضة وخاصة طبقة التجار أن يفرضوا على الشاه القاجاري دستوراً تضمن عدداً من النصوص التي تدعم مركز رجال الدين وتضمن مشاركتهم بإدارة البلاد ومن جملتها مثلاً نص يعتبر المذهب الشيعي الإسلامي ديناً رسمياً للدولة، ومادة أخرى تقضي بإنشاء لجنة تتكون من علماء الدين تتمتع بصلاحية مراجعة ما يصدر عن «البرلمان» من تشريعات وقوانين لتقرير درجة مطابقتها لتعاليم القرآن والرسول وتقرير الغاء ما تراه منافياً ومخالفاً لذلك. بسبب هذه الاعتبارات وغيرها اتفق رجال الدين مع رضا خان للابقاء على النظام الملكي واعتلاء عرش بلاد فارس.

وهكذا بدأ في ايران عهد ملكي جديد عام 1925 بارتقاء رضا خان عرش فارس.

الدولة التي ورثها رضا شاه عن سلفه الشاه القاجاري كانت في حالة التفسخ والخراب حيث واجهته مشاكل خارجية وداخلية. فبعد أن وضعت الثورة الشيوعية في روسيا حداً لتغلغل روسيا القيصرية بدأ النظام السوفييتي الجديد يعمل حثيثاً على اشعال نار الثورة في الأقاليم الشمالية المجاورة للاتحاد السوفييتي. وبريطانيا التي فشلت في محاولة ادخال فارس تحت حمايتها الرسمية تمكنت من السيطرة على اقتصاد البلاد بوضع يدها على منابع النفط في الأجزاء الجنوبية. بالإضافة إلى هذه المشاكل كان على الشاه الجديد إخماد الثورات الانفصالية التي قامت في عدة مناطق قبلية. وفي الواقع أمضى رضا شاه السنوات الخمس عشرة الأولى من حكمه لترسيخ سيطرته على البلاد واستعادة هيبة وسلطة العاصمة طهران على الأقاليم. كان رضا شاه يقود قواته شخصياً للقضاء على الحركات الانفصالية وضرب المتمردين فيلحق بهم الهزيمة الواحد بعد الآخر ويجبرهم على الهرب الى المنفى.

بعد ذلك التفت لضرب طبقة الأغنياء والاقطاعيين بدءاً بالطبقة

الارستقراطية القاجارية وأصحاب الاقطاعيات الكبيرة من حلفائهم فجردهم من أراضيهم وممتلكـاتهم ليس لصالـح خزينـة الدولـة وإنما لصـالحه شخصيـاً وهذه كانت البداية والمنطلق لثروة العائلة البهلويـة الضخمة والتي تـردد الحديث عنهـا خلال أحداث ايران عام 1979 وبعدها. فيما يتعلق بالاصلاحات الداخلية طبق رضا شاه برنامجاً واسعاً للاصلاح الزراعي فصادر مسـاحات شـاسعة من أراضي العـائلات الاقـطاعية وحـدد ملكية العـائلة الواحـدة بقريـة واحـدة فقط ووزع الأراضي المصادرة على صغار الفلاحين الذين يمـارسون الـزراعة فعـلاً من أجل كسب ولائهم وتأييدهم. واهتم الشاه أيضاً بانشاء الخطوط الحديـدية في البـلاد لربط المدن ببعضها البعض وتوسيع الطرقـات وتحسينها وتشييـد المباني العصريـة واقامة الأسس الضرورية لتعليم وتدريب البنى التحتية كما أدخل نظام المـدارس العامة وحاول تطبيق النظم التعليمية الحديثة في معاهد التعليم العالي.

أما الناحية التي نالت كبير اهتمامه ورعايته فهي القوات المسلحة فبذل جهـداً كبيراً لتقويتها وتدريبها وتوفير الأسلحة الحديثة لها. ولما كان الشاه نفسـه جنديـاً محترفاً فإنه كان يدرك أن الجيش القوي والموالي هو الأداة الوحيدة والأكثر فعـالية لتثبيت دعـائم حكمه، ولـذلك لم يكن يبخـل على جيشـه بكل مـا يساعـد على تعزيزه وتقويته وعلى ضباطه الأوفياء المخلصين بالامتيازات والمنافـع. وقد وضـع الأساس لقيام صناعة حربية في ايران بمساعـدة خبراء أجـانب. ثم وضع أيضـاً القوانين لتنظيم الخدمة المدنية بطريقة تجعل كبار موظفي الدولة مسؤولـين أمامـه مبـاشرة وكان يقـوم بتفتيش دواوين الحكومـة بانتـظام ليتأكـد من تطبيق أوامـره وتعليماته. بكلمـة مختصرة، كان رضـا شاه نمـوذجاً حيـاً للحاكم المستبـد الذي يحاول اخراج بلاده وشعبه من ظلمات الجهـل والفقر والمرض التي عاشتهـا بلاد فارس قروناً عديدة. ولكن نظام حكمه كان يزداد اتجاهاً نحو التفـرد والطغيـان بحيث أصبح بالنهاية الحاكم المطلق والوحيد في البلاد.

ولكن رغم ذلك فإن جهة معارضة واحدة استمـرت تقاوم سلطانـه وسطوتـه بعـد أن تهاوت كـل معارضـة أخرى. والجهـة التي نعنيها هي القيـادة الـدينيـة الشيعيـة. فالمـذهب الشيعي يتمتع بنفـوذ هائـل على جماهير الشعب الـواسعة. والشيعيـة مـذهب من مـذاهب الإسـلام انتشرت عـلى نـطاق واسـع في ايـران

وأصبحت المذهب الذي تعتنقه أغلبية السكان دون سائر البلدان الإسلامية الأخرى التي يشكل فيها أتباع المذهب الشيعي أقلية ملحوظة. ولعل اعتناق الشعب الفارسي للمذهب الشيعي كان نوعاً من المقاومة للفاتحين العرب الذين يتبعون في غالبيتهم المذهب السني ويعتبرون الخليفة ممثلاً للسلطة الدينية بينما يعتبر الشيعة أن السلطة الدينية يجب أن تبقى محصورة في نسل الرسول محمد. واتخذ الفرس الشيعة أئمة لهم عدداً من أحفاد الرسول اختفى آخرهم عام 874 في ظروف غامضة غير أن الشيعة يعتقدون أنه محتجب ولكنه سيظهر يوماً ما لإقامة دولة العدل.

تتركز السلطة الدينية في المذهب الشيعي في مؤسسة دينية هرمية يترأسها مجموعة من آيات الله ولا يوجد مثله في المذاهب الإسلامية الأخرى. وقد مارست هذه المؤسسة الدينية منذ قرون عديدة نفوذاً مطلقاً على جماهير الشعب في ايران عن طريق المدارس الدينية التي تهيىء الشبان للانخراط في سلك رجال الدين وأئمة المساجد والواعظين والفقهاء المنتشرين في طول البلاد وعرضها. لذلك عندما حدثت المواجهة بين رضا شاه والمؤسسة الدينية في أوائل الثلاثينات كان يدرك جيداً أنه يجابه خصماً يتمتع بقوة رهيبة وإن آيات الله سيقفون عقبة كأداء في طريق مشاريعه التي يريد فيها تحويل إيران إلى دولة عصرية علمانية. وحتى لا يخسر المعركة اختار رضا شاه أن تحدث المواجهة بسبب قضية اجتماعية وانسانية اعتقد أنها ستحظى بتأييد شعبي على نطاق واسع. القضية التي اختارها الشاه كأرضية صلبة لمعركته تتعلق بالقواعد التي وضعها رجال الدين للباس المرأة الإيرانية. فالقواعد تلك كانت تفرض على المرأة عند خروجها من منزلها ارتداء كساء أسود اللون طويل يغطي جسمها من الرأس حتى القدم مع فتحة ضيقة أمام الوجه تسمح بظهور العينين والقسم العلوي من الوجه ويطلق عليه «شادور». هذا اللباس الفضفاض يعيق الحركة ويجعل من الصعب على المرأة الإيرانية أن تصبح عضواً عاملاً في مجتمع عصري كما كان الشاه يريد للمجتمع الإيراني أن يكون. كان رضا شاه يجادل معارضيه ليس على أساس مساوىء هذا النوع من اللباس فحسب وإنما كان يؤكد لهم أن مثل هذا الافراط في الاحتشام لم يأمر به القرآن ولا يجوز لرجال الدين فرضه على النساء

الإيرانيات. تفاقمت المواجهة الكلامية بين رضا شاه والمؤسسة الشيعية وتحولت إلى صدامات عنيفة بين أنصار الحكومة والمعارضين في أماكن شتى من البلاد. ولكن مع اقتراب ذلك العقد من أواخره حدثت تطورات خطيرة في الأوضاع الدولية فغطت أحداثها الخطيرة على تلك المشكلة الداخلية.

أخذت سحب الحرب تتجمع في سماء القارة الأوروبية فخشي رضا شاه أن يؤدي اشتعال نيرانها إلى قيام تعاون بين عدوي فارس اللدودين بريطانيا وروسيا على حسابها ويقدمان على اجتياح الأراضي الإيرانية، كما حدث فعلاً في الماضي، لاحتلالها وتقسيمها.

تلفت الشاه حوله بحثاً عن دولة قوية من مصلحتها أن تكون عامل توازن ومساندة أمام هذا الخطر الامبريالي الجديد فوجد بغيته في المانيا النازية التي رحبت أن يكون لها موطىء قدم في منطقة الخليج المهمة استراتيجياً ونفطياً بالإضافة إلى تمكينها من عرقلة وافشال الطموحات البريطانية والروسية.

في الواقع، كان تغلغل النفوذ الألماني في ايران رضا شاه قد بدأ في أوائل الثلاثينات بقيام علاقات دبلوماسية وتقنية وعسكرية بين البلدين. فلقد قدمت المانيا المساعدة التقنية لإقامة صناعة حربية متواضعة كما قامت الشركات الألمانية بمد بعض الخطوط الحديدية وتحسين الطرق وتشييد عدد من المباني العصرية الضخمة في طهران وتدريب القوات المسلحة الإيرانية على فنون الحروب الحديثة وغير ذلك من المشاريع التي كانت حكومة رضا شاه قد باشرت بتنفيذها.

النفوذ الذي حققته الدبلوماسية الالمانية في فارس في عهد رضا شاه تجاوز في تأثيره حدود المساعدات العسكرية والتقنية وأصبح مؤثراً على الشاه شخصياً سياسياً ونفسياً أيضاً. فقد قرر الشاه من أجل كسب اعجاب الألمان تغيير الاسم التاريخي لبلاده «فارس» إلى اسم ايران ليؤكد انتماء شعبه الى العرق الآري. وعندما قرر الانحياز إلى جانب المانيا ودول المحور في الحرب العالمية الثانية فإنه لم يفعل ذلك من أجل دفع خطر اجتياح روسي بريطاني عن بلاده فحسب، وإنما لقناعة منه أنه ينحاز إلى الجهة المنتصرة في الحرب.

لم يكن البريطانيون والسوفييت غافلين عما يشكله التغلغل الالماني في ايران من خطر على مصالح الحلفاء في منطقة الخليج ولذلك انتهزا اقدام المانيا على تمزيق اتفاقية ربنتروب ـ مولوتوف وهجوم الجيش الالماني على الاتحاد السوفييتي وقاموا بغزو مشترك للأراضي الايرانية في 25 آب/ أغسطس 1941 فاحتلت القوات السوفييتية النصف الشمالي من ايران بينما احتلت القوات البريطانية النصف الجنوبي منها. قبض على رضا شاه وأرسل إلى المنفى حيث توفي في جنوب افريقيا واعتلى العرش ابنه وولي عهده محمد رضا شاه الذي كان يبلغ من العمر 21 سنة.

بعد مرور ست وثلاثين سنة على تلك الاحداث كان ذلك الرجل الذي اعتادت الصحافة الغربية ان تشير اليه باسم (الشاه) واقفاً لاستقبالي في قاعة الاستقبال الواسعة في قصره الصيفي الواقع في ضاحية في شمالي طهران.

عند دخولي إلى تلك القاعة الواسعة برفقة مدير تشريفات البلاط الامبراطوري رأيت الشاه واقفاً في نقطة تغمرها أشعة الشمس المنسابة من نافذة كبيرة خلف ظهره وقد اصطف أمامه موظفو القصر في صفين متقابلين بحيث شكلوا ممراً بشرياً بيني وبين مكان وقوف الشاه في الطرف الآخر. كان الشاه مرتدياً حلته الرسمية الموشاة بخيوط الذهب والفضة فبدا تحت أشعة الشمس مثل نصب متألق يصعب على الزائر الواقف في الظل النظر إليه دون أن يغمض عينيه نصف إغماضة. لقد كان حقاً اخراجاً مسرحياً بارعاً.

قمت باجراء المراسم المطلوبة مني بسرعة فتلوت البيان السياسي المختصر مؤكداً على رغبة حكومتي باستمرار وتطوير العلاقات الوثيقة بين بلدينا ثم سلمت الشاه رسائلي وألقى الشاه كلمته الجوابية وقدمت إليه موظفي السفارة الذين حضروا برفقتي وانتهى كل شيء في وقت قصير لا يتجاوز خمس دقائق. بعد ذلك رافقت الشاه إلى غرفة مكتبه وبقي زملائي في نفس القاعة يتبادلون الأحاديث مع موظفي القصر.

الاجتماع الذي يتم بين السفير الجديد ورئيس الدولة في مثل هذه المناسبة يكون عادة اجتماعاً قصيراً لا يتجاوز العشرين دقيقة. ولكن ذلك الاجتماع

الأول مع الشاه استغرق حوالي ساعة ونصف الساعة. بدأ الحديث بيننا بتبادل عبارات المجاملة الاعتيادية، دخل الشاه بعدها مباشرة في حديث مستفيض متناولاً عدداً من المواضيع المهمة حول الأوضاع الدولية راسماً صورة كالحة توحي بالتشاؤم. كان نصيب الاتحاد السوفييتي كبيراً في حديثه فكان من رأيه أن السوفييت يكادون أن يطوقوا شبه الجزيرة العربية كما أنهم رسخوا وجودهم في القرن الافريقي وغزوا أواسط افريقيا وأنهم يبذلون جهوداً دبلوماسية ضخمة لبسط سيطرتهم على منابع النفط في الخليج. واستطرد متابعاً حديثه بالقول إن السوفييت في الوقت الذي حققوا فيه تكافؤاً نووياً مع الولايات المتحدة فإنهم يواصلون بناء قواتهم التقليدية الى مستويات متقدمة يستطيعون معها من اجتياح القارة الأوروبية.

الانطباع الذي تكوّن لديّ بعد استماعي لتحليل الشاه للأوضاع الدولية وخطر التوسع السوفييتي هو أنه نظراً لموقع ايران الستراتيجي المهم فإنه يتوقع من الولايات المتحدة اهتماماً كبيراً وتفهماً أكثر لأوضاع واحتياجات ايران.

كان الشاه يتحدث بلغة انكليزية سليمة وبصوت معتدل بعيد عن التكلف أو الترفع ولهجة تنم عن الصراحة والصداقة. ولا شك أنه رجل يتمتع باطلاع واسع وعميق في الشؤون الدولية بالإضافة إلى ما يتحلى به من ذكاء وفطنة. ثم أني وجدته رجلاً يختلف كل الاختلاف عن الصورة المرسومة في مخيلتي قبل رؤيته شخصياً. تصرفاته طبيعية واعتيادية بعيدة عن التكلف أو التفاخر أو الغرور. عندما كنت أعلق أحياناً على كلامه والادلاء بما لدي من معلومات حول قضية من القضايا كان ينصت بمزيد من الاهتمام والتشوق وكأنه راغب بالاستزادة من معلوماتي الخاصة حول تلك القضية. ونظراً لعلمه أني قضيت سنوات عديدة في بعض أقطار شرقي آسيا فإنه أبدى رغبة لمعرفة رأيي عن أحداث معينة وقعت في تلك المنطقة من العالم خلال السنوات الماضية. ثم أرادني أن أعطيه مزيداً من المعلومات عن الادارة الأمريكية الجديدة ورجالاتها وتوجهاتهم السياسية نحو ايران فحدثته بايجاز عن التعليمات التي كنت تلقيتها من الرئيس كارتر قبل مغادرتي واشنطن فظهرت على وجهه علامات السرور والارتياح. وهكذا امتد الحديث بيننا في ذلك اللقاء الأول مدة أطول مما يأخذه عادة مثل هذا اللقاء

الأول بين سفير جديد ورئيس الدولة التي اعتمد لديها لما تطرقنا إليه من مواضيع عامة وأخرى خاصة تتعلق بالعلاقات الودية بين بلدينا.

كان ذلك اللقاء الأول مع الشاه كبير الفائدة بالنسبة لي. فمعلوماتي عن شخصية الشاه التي استقيتها من أناس لديهم خبرة بأوضاع وشؤون ايران وما قرأته عنه قبل مجيئي جعلتني أتوقع مقابلة حاكم متغطرس ورجل مغرور يحاول اخفاء شعوره بالقلق وعدم الطمأنينة بمظاهر الأبهة والعظمة والحذلقة. ولكن الرجل الذي قابلته وتبادلت معه الحديث ما يزيد على ساعة ونصف كان بعيداً كل البعد عن هذه الصورة المعروفة عنه في الخارج. يتحدث بصوت هادىء، يتصرف بوقار ويتكلم ببساطة وإخلاص. الشيء الوحيد الذي أثار انتباهي أثناء حديثه هو أنه كان يعرض أفكاره بشيء من التردد وكأنه ينتظر من محدثه التأييد أو الاعتراض. خرجت من مكتب الشاه بانطباع عن هذه الشخصية الاسطورية المعاصرة يختلف كل الاختلاف عما كنت أحمله عنه من انطباع كان تكوّن في ذهني مما كنت سمعت وقرأت عنه.

نظراً للوقت الطويل الذي استغرقه حديثي مع الشاه انصرف الموظفون الذي تركناهم في القاعة ولم يبق بانتظاري غير رئيس تشريفات القصر الذي رافقني ومعنا سيارة الحماية عائدين إلى المسكن.

في مساء ذلك اليوم جلست في مكتبي استعرض في ذهني المعلومات التي جئت بها عن شخصية الشاه ومدى انطباقها على الشاه الذي رأيته وتحدثت معه صباح ذلك اليوم. من جملة المعلومات التي كنت حصلت عليها في واشنطن عن نشأة الشاه هي أنه ترعرع وهو يشعر برهبة شديدة من والده الذي كان يعامله بصرامة. ويقال أنه كان يعامل ابنه وولي عهده وهو ما زال صبياً يافعاً كما يعامل أي طالب آخر من طلاب كلية عسكرية.

تلقى الشاه محمد رضا مبادىء تعليمه في القصر الملكي على يد أساتذة خصوصيين. بعد ذلك أرسل لإكمال تعليمه النظامي في مدارس سويسرية. بعد إكماله الدراسة الثانوية هناك رجع إلى ايران للالتحاق بالكلية العسكرية الملكية.

بعد تخرجه منح رتبة ضابط في القوات المسلحة الإيـرانية ثم عيّنـه والده مـرافقه العسكري.

خلال السنوات القليلة التي أمضاها مـرافقاً لـوالده سنحت للضـابط الشاب فرصة طيبة لمراقبة والده وهو يعالج شؤون الدولة ولعلّه اقتبس منه ذلك الاهتمام الكبير بالاطلاع على كل صغيرة وكبيرة للأمور التي يعالجها.

يعتقد بعض المراقبين أن الشاه الابن كـان يفتقر منـذ شبابـه لتلك القناعـات العميقة التي كان يؤمن بها والده طـوال حياتـه ولذلـك كان في شبـابه كثـير الميل لحيـاة اللهو والأنس وكـان يمضي معظم أوقـاته خـارج بلاده متنقـلاً بين أوروبـا وأمريكا. كما أنه كان في شبابه رياضيـاً ممتازاً يجيـد التزحلق والفـروسية والصيـد وقيادة السيارات السريعة والطائرات.

تعرض الشاه محمـد رضا خـلال سنوات حكمـه للاغتيـال مرتـين نجا منهـما بأعجوبة حيث أصيب في المحاولة الأولى في شفته واستقـرت في الثانيـة رصاصـة في كتفـه ويقال أنـه في المرتـين حافظ عـلى رباطـة الجأش بشكـل أثـار اعجـاب مرافقيه.

ولكن أحـداث سنة 1953 أظهـرت أنه رجـل متردد تعـوزه القدرة عـلى اتخاذ قرارات حاسمة. ويقول بعض الايرانيين الـذين عاصروا عهـد والده رضـا شاه إن المجابهة التي وقعت بينه وبين رئيس وزرائه الدكتور مصدق عـولجت بطريقـة تختلف كلياً عن معالجة والده للأزمات السياسية الحادة التي كان يواجهها طـوال سنوات حكمه. فقد كان الشاه الأب رجلاً ذا ارادة صلبة وقدرة فائقة على اتخاذ القرارات القاطعة التي لا رجوع عنها.

التفسـير الذي يقـدمـه بعضهم لنقـطة الضعف هـذه لـدى الشـاه الابن هـو رضوخه التام لإرادة أبيه في صباه وشبابه مما ولد لديـه الشك بنفسـه وبالآخـرين أيضاً. ولكن هناك تفسير آخر لذلك حيث يقول البعض ان فترة اعـداده وتهيئته لاستلام زمام الأمور كانت قصيرة ولم يكن مهيئاً ومدرباً تدريباً كـافياً حينـما أنزل والـده عن عرشـه ووضع في مكـانه. كـما أن البعض الآخـر يعتقـد أن دراستـه

الغـربيـة في بلد ديمقـراطي كسـويسرا جعلتـه غـير مؤهـل لممارسـة دور الحـاكم الأوتوقراطي المطلق الذي يحتاجه بلد مثل ايران.

في كل الأحوال، المرات العديدة التي كنت أقابـل فيها الشـاه عدة مـرات في الأسبـوع الواحـد خلال الاضـطرابات العنيفـة التي اجتـاحت ايـران في السنـة الأخيرة من حكمه جعلتني أرى بوضوح أن الصورة الشائعة عنه في الخارج والتي تمثله كحاكم أوتوقراطي متغطرس وهي الصورة التي صقلها رجال البلاط وتبنتها ونشرتها الفئات المعارضة لم تكن صورة حقيقية ودقيقة. فالشاه محمد رضا بهلوي لم يخلق ليقود رجالاً أو أمة في أوقات الأزمات.

شعرت وأنا أستعرض في ذهني في ذلك المساء هذا الواقع الذي توصلت إليه بشيء من القلق والارتباك عندما تذكرت أيضاً الرد الذي صدر عن المسؤولين في وزارة خارجيتنا في واشنطن جواباً على استفساري عن أسباب اختيـاري شخصياً لسفـارة ايـران إذ كـانـوا يعتقـدون أن تجـاربي السـابقـة بـالتعـامـل مـع حكـام أوتوقراطيين متغطرسين هي التي جعلتني في أعينهم مؤهلاً لمهام سفارة ايران. إذ أن الحقيقة التي توصلت إليها عن هذا الرجل الذي قدمت له أوراق اعتمادي في صباح ذلك اليوم انه لا يدخل قطعاً ضمن هذا التصنيف للحكام(*)!!.

(*) اشارة التعجب من قبل الناشر، ولم ترد في النص الأصلي.

5

جولة الزيارات الدبلوماسية

باكتمال مراسيم تقديم أوراق اعتمادي إلى الشاه أصبحت لي صفة رسمية في ايران وبت قادراً بصفتي ممثلاً للولايات المتحدة على اداء واجباتي الرسمية ومن جملتها القيام بزيارات رسمية في عدة جهات كأعضاء العائلة المالكة وأعضاء مجلس الوزراء وكبار موظفي الدولة ثم زملائي السفراء المعتمدين في طهران.

قمت بزيارتي الأولى مصطحباً معي قرينتي لعقيلة الشاه التي يطلقون عليها اسم «شاهبانو» وهي سيدة جميلة لطيفة الشمائل ذات ثقافة غربية وايرانية واسعة وذوق فني رفيع. وهي الزوجة الثالثة للشاه وتصغره في السن بعدة سنوات والزوجة الوحيدة التي أنجبت مولوداً ذكراً لولاية العهد وتنتمي لعائلة تجارية معروفة في طهران. بعد ذلك بدأت زياراتنا لشقيقات الشاه ثم لإخوانه. زودتنا زياراتنا لأفراد العائلة المالكة بنظرة داخلية للاطلاع على كيف يؤثر العيش في ظل ملكية مطلقة على نمط الحياة والأخلاق والشخصيات.

بعد الانتهاء من ذلك بدأت جولة زيارات الوزراء وكبار موظفي الدولة وكان اعجابي بفخامة مكاتبهم أكثر من اعجابي بشخصياتهم عدا شخصيتين لامعتين أولهما رئيس الوزراء عباس أمير هويدا الرجل الفاضل ذو الفكر الوقاد والشخصية السياسية الجذابة، وثانيهما رئيس الحزب السياسي الوحيد في ايران «جمشيد اموزغار». كان هناك رجل ثالث أحدث تأثيراً عميقاً في نفسي ولكنه كان مصاباً بمرض عضال «السرطان» ومشرفاً على الموت هو «عبد الله علم»

وزير البلاط. كم تمنيت لو أنني عرفته منذ مدة طويلة قبل وفاته لأتعرف عليه بصورة أفضل. عدة أمور صادفتني أثناء تلك الجولات استنتجت منها أن حياتنا الخاصة في ايران لن تكون سهلة ومريحة كما كنا نود ونرغب. أول المزعجات التي اكتشفتها هو أن حرية الحركة بالنسبة لي داخل وخارج العاصمة طهران ستكون شبه معدومة نظراً لما هناك من اجراءات أمنية واحتياطات احترازية يجب عليّ اتباعها من أجل المحافظة على حياتي بعد أن سبق وتعرضت حياة اثنين من السفراء الأمريكيين قبلي لمحاولات الاغتيال، كما اغتيل خلال السنتين الماضيتين ستة من المواطنين الأمريكيين الملحقين بالسفارة ولذلك وضعت الحكومة الإيرانية قوة كبيرة من الشرطة الإيرانية بالإضافة إلى خمسة عشر جندياً من مشاة البحرية الامريكية لحماية موقع السفارة ليلاً ونهاراً. كما كانت هناك قوة أخرى من الشرطة الايرانية واجبها مرافقتي خارج السفارة لغرض الحماية. بالإضافة إلى ذلك كان علينا اتخاذ احتياطات أمنية أثناء تنقلي من مكان لآخر داخل المدينة مثل استعمال سيارات مصفحة لا يخترقها الرصاص والابتعاد عن شوارع معينة تشتد فيها حركة المرور عادة وتغيير طريق الذهاب والإياب والتنقل ضمن عدد من السيارات المتشابهة التي تحمل أرقاماً اعتيادية بدل الأرقام المخصصة للهيئة الدبلوماسية إلى غير ذلك من احتياطات أمنية أخرى.

هذه وغيرها من الإجراءات جعلت انتقالي داخل المدينة عملية بطيئة ومتعبة، وعلى سبيل المثال، كان ذهابي من سفارتنا إلى وزارة الخارجية الإيرانية التي لا تبعد أكثر من كيلومترين ونصف تقريباً يستغرق ما يزيد عن ثلاثة أرباع الساعة. بالإضافة إلى القيود التي تفرضها الاجراءات الأمنية كانت القيادة بحد ذاتها في شوارع طهران شيئاً مزعجاً بسبب تهور الإيرانيين أو معظمهم على الأقل في قيادة سياراتهم وفوضى حركة السير وعدم الالتزام بالاشارات الضوئية وكثرة عربات الخيول وضوضائها. ويضاف إلى كل تلك المزعجات تلك القنوات العميقة لتصريف المياه المحفورة على امتداد العديد من الشوارع والتي تشكل فخاً لاصطياد كل سيارة يكون سائقها غير منتبه لخطر السقوط فيها وهو ما كان يحدث بصورة منتظمة.

العاصمة طهران مدينة كبيرة تمتد من سفوح جبال البرز شمالاً إلى مسافة

عدة كيلومترات باتجاه الجنوب حيث تقع في أقصى الطرف الجنوبي منها مدينة الأكواخ الحقيرة المزدحمة بالفقراء من العمال أو الذين هاجروا من مناطهم الريفية المختلفة بحثاً عن العمل والثروة في العاصمة التي ازدهر فيها العمران ومختلف المشاريع الصناعية والتجارية. وقد حدث هذا التوسع الكبير للعاصمة بشكل اعتباطي مع ازدياد عدد الوافدين اليها. في شمال مدينة الأكواخ مباشرة تقع طهران القديمة المسوّرة من جهاتها الأربعة والتي كانت تتألف في الماضي من عدة أحياء متفرقة ثم التصقت ببعضها بمرور الزمن وحيث شيدت فيها بعد المباني الحكومية والقصور والجوامع والحمامات العامة الى جانب دور السينما والمسارح والعمارات السكنية والأسواق العصرية اختلطت مع بعضها البعض في وضع قبيح عمرانياً وسيء صحياً. في أقصى الطرف الشمالي من المدينة القديمة تقع سفارتنا وفي الخلف منها وعلى مسافة نحو ثلاث كيلومترات باتجاه الشمال تقع الضاحية الشمالية بقصورها الفخمة وداراتها الجميلة وحدائقها الغناء حيث يعيش الارستقراطيون والأثرياء ومعظم السفارات الأجنبية الذين لم يسبق لهم مشاهدة المنطقة الجنوبية حيث الأكواخ والفقر المدقع. كنا نزور الضاحية الشمالية مراراً عديدة إما تلبية للدعوات أو لزيارة أحد رجال الأعمال الأمريكيين أو للاجتماع بزميل من السفراء بالإضافة إلى زيارة النادي الريفي الامبراطوري في نهاية الأسبوع بصورة منتظمة حيث أمارس رياضتي المفضلة «الغولف» مع بعض الزملاء.

الهيئة الدبلوماسية في طهران كانت مزيجاً غريباً. السفيران البريطاني والسوفييتي كانا من الدبلوماسيين القدماء ولديهما خبرة طويلة بأوضاع تلك المنطقة من العالم ويشرفان على سفارات كبيرة من الدبلوماسيين والملحقين لرعاية المصالح التقليدية لبلديهما. الحكومتان الهندية والباكستانية كانتا ممثلتين تمثيلاً جيداً. البعثات الدبلوماسية الغربية كان اهتمامها يتركز بالدرجة الأولى على تنمية وتطوير العلاقات التجارية بين ايران وبلدانها المختلفة.

كانت طهران أول مكان ألتقي فيه بعدد كبير من الدبلوماسيين العرب. والشيء الذي يلفت الانتباه حول السفراء العرب هو أنهم في الوقت الذي تجدهم قليلي الاطّلاع على مجريات القضايا السياسية المهمة في ايران إلا أنهم كانوا

يتميزون على غيرهم بالقدرة الفائقة على التقاط أكثر الشائعات غرابة وخاصة الفضائح. يجتمعون فيما بينهم بصورة مستديمة لتبادل الشائعات وأكثر المعلومات بعداً عن الحقيقة والواقع. الاستثناء البارز بينهم هو السفير الكويتي وهو شاب جذاب ينتمي للعائلة الحاكمة في الكويت وبعد أن أمضى تسع سنوات من الخدمة الدبلوماسية في ايران أصبح عميداً للسلك الدبلوماسي فيها.

لعل أكثر السفراء الأجانب في ايران اطلاعاً على أوضاعها كان الممثل «الاسرائيلي» الذي رغم درجته الرفيعة في السلك الدبلوماسي «الاسرائيلي» لم يكن يتمتع في ايران بصفة دبلوماسية رسمية. ومع أن العلاقات بين ايران الشاه واسرائيل كانت متينة وحميمة إلا أن الشاه كان يفضل بقاء التمثيل الدبلوماسي بين البلدين على أساس غير رسمي بسبب انتماء ايران الى العالم الاسلامي. كان عدد الجالية اليهودية في ايران يزيد على 80 ألف شخص تمكنوا من التغلغل في كل ناحية من نواحي الحياة وبذلك أصبح لدى اسرائيل شبكة لجمع المعلومات لا تضاهيها أية شبكة أخرى للاستخبارات.

أخيراً كان هناك الايرانيون الذين كانوا يتحلقون حول سفارتنا بغية اقامة علاقات مع الولايات المتحدة وهم من فئات مختلفة فالبعض منهم من رجال الأعمال الذين لديهم علاقات عمل جديدة في مجالات الصناعة أو التجارة. الفئة الثانية تتألف من أولئك الذين أكملوا دراساتهم في الجامعات الأمريكية وتمكنوا بعد رجوعهم إلى بلادهم بما اكتسبوه من علم وخبرة واختصاصات أن يحققوا لأنفسهم النجاح المادي والمكانة الاجتماعية. الفئة الثالثة هي الطبقة الارستقراطية القديمة التي جمعت مالاً وفيراً أثناء الحكم البريطاني وترغب في اقامة علاقات اجتماعية وصلات طيبة مع الدولة الجديدة المهمة على مسرح السياسة الغربية.

هذه الشرائح من المجتمع الايراني كانت تنعم بكل ما توفره الثروة الضخمة من أسباب الترف والرفاهية والبذخ. قصور فخمة في ايران ودارات جميلة في أوروبا وأمريكا، حفلات غاية في البذخ والاسراف، جيش من الخدم المستوردين من مختلف بقاع الأرض، فالساقي ورئيس الخدم من بريطانيا

والوصيفة من اسبانيا والخادمة من الفيليبين والطباخ من ايطاليا إلى آخر ما هناك من مظاهر الثراء الطائل والأبهة الفارغة.

إذا أخذنا بنظر الاعتبار هذه الاغراءات نستطيع أن نفهم لماذا فشل الدبلوماسيون الأجانب في طهران في التعرف وادراك حقائق الأوضاع في ايران ومن ثم الاطلاع على مشاعر الطبقات المحرومة وسلبيتها نحو نظام الشاه. وسواء كان خطأً أو صحيحاً فالذي لا شك فيه أن الطبقات الفقيرة والمسحوقة ومعهم قطاع غير قليل من الطبقة المثقفة كانوا يلقون باللوم على الأجانب بصورة عامة والأمريكيين بصورة خاصة للتأييد والدعم الذي يحظى به نظام الشاه منهم. وقد تمكنت مرة من ترتيب لقاء مع شخصية ايرانية مثقفة في بيته الصغير المتواضع بواسطة صديق مشترك لم يجتمع من قبل بسفير امريكي. بعد حديث هادىء تناول مختلف الموضوعات والقضايا قال بصراحة أنه لم يكن يهتم كثيراً بالأمريكيين ولذلك فإنه يشعر بالدهشة من كوني أمريكياً يحمل أفكاراً ليبرالية للعديد من المشاكل التي تناولها حديثنا ولذلك يعتقد أنني حالة شاذة بين الأمريكيين. إن هذه التجربة بالإضافة إلى تجارب مشابهة أخرى جعلتني أشك فيما إذا كان السواد الأعظم من الشعب الايراني يشارك الطبقة الغنية فيما تبديه نحونا من عواطف الصداقة والمودة والإعجاب.

6

الاقتصاد الإيراني

بعد أن أخذت أعمال السفارة طابعها الروتيني المعتاد توجه اهتمامي لدراسة الاقتصاد الايراني واحتمالات النجاح لطموحات الشاه في تحويل ايران إلى بلد صناعي يضاهي الدول الصناعية المتقدمة. إيران التي هي أكبر مساحة من ألاسكا كانت الأقدار متقلبة في تكوين جغرافيتها الطبيعية. فجبال البرز في الشمال المتاخمة لبحر قزوين تشكل حاجزاً أمام الجو البارد المثقل بالرطوبة القادم من سهول ونجود روسيا، كما أنها تشكل في نفس الوقت مصيدة للسحب المشبعة بالمطر وتحول دون وصولها إلى معظم أنحاء النجود الوسطى في ايران. ويسبب هذا الوضع الجغرافي غير المتوازن فإن أفضل المناطق الزراعية في ايران هي التي تقع في السفوح الشمالية لجبال البرز أو في المناطق الجنوبية التي لا تبعد كثيراً عن دلتا الرافدين. أما بقية المناطق فهي شديدة الجفاف لا يمكن استغلالها زراعياً إلا بواسطة نظام متطور للري.

كانت بلاد فارس في التاريخ القديم تعتبر بلاداً زراعية ناجحة لأن السكان كانوا يعيشون في السهول الخصبة ويرعون ماشيتهم في المناطق الجبلية المعشوشبة، ولكن مع الزيادة التي طرأت على عدد النفوس وانتشار المدن عبر الهضبة المجدبة أصبحت البلاد أقل اكتفاءً ذاتياً. تقع الأراضي الزراعية في المناطق التي ظهرت فيها الاقطاعيات الكبيرة والقوية وعندما طبق رضا شاه قانون الاصلاح الزراعي وحطم النظام الاقطاعي تحرر الفلاحون من قبضة

أصحاب الاقطاعيات. ولكنه عندما أزال من الوجود نظاماً زراعياً كان ناجحاً طوال قرون عديدة لم يقدم للفلاحين المزارعين من الوسائل الضرورية ما يجعلهم قادرين على استثمار أراضيهم الجديدة التي حصلوا عليها. فلقد كان الاقطاعي يقدم رأس المال الذي يحتاجه الفلاح ويتعهد بتسويق الانتاج وتوفير الأسمدة. ولذلك عندما توقف الاقطاعي عن تقديم التسهيلات دون أن تحل الدولة محله أصيبت الزراعة بنكسة خطيرة وصار الانتاج الزراعي غير مجد بصورة عامة. وتفاقمت المشاكل الزراعية في الأرياف مع مرور السنوات وازدياد عدد النفوس وبات الفلاح عاجزاً عن اعالة نفسه وعائلته فبدأت الهجرة وخاصة الشبان منهم على نطاق واسع إلى المدن الكبيرة حيث تتوفر مجالات العمل والكسب، ثم جاءت مشاريع محمد رضا شاه في الصناعة والبناء والتجارة لتضيف حافزاً جديداً لتعاظم حركة الهجرة إلى المدن وخاصة إلى العاصمة طهران. ولكن حتى تلك الهجرة الواسعة النطاق التي أخذت تتسارع وتتضاعف منذ أوائل السبعينات لم تكن لتسد الحاجة إلى المزيد من العمال.

كان عدد سكان ايران في 1977 حوالي 36 مليون نسمة نصفهم ممن لا تتجاوز أعمارهم 15 سنة، ولما كان التعليم اجبارياً في العهد البهلوي فإن استخدامهم في ميدان العمل كان محظوراً. نصف السكان يتألف من النساء ولما كانت الديانة الإسلامية تضع حظراً على عمل النساء في الصناعة (؟)! فإن هذا النصف كان مستبعداً عن الآلة الصناعية الايرانية وبذلك يبقى هناك 9 ملايين نسمة لتزويد البرامج الصناعية للشاه بالأيدي العاملة. ولكن هذا العدد الأخير كان نصفه يعمل في القطاع الزراعي ويعيش في الأرياف ولم يكن من المحتمل أن يترك فلاحة الأرض وتربية المواشي لينخرط في سلك العمال الصناعيين، ويعني هذا كله أن العدد الذي يمكن الاستفادة منه للعمل في البرامج الصناعية الضخمة لا يزيد عن 3 ملايين شخص.

مع ارتفاع أسعار النفط الخام بعد 1973 وصل دخل ايران من صادرات النفط حوالي 22 بليون دولار سنوياً، قرر الشاه انفاق الجزء الأكبر منه في برامج التصنيع لتصبح ايران بحلول العام 2000 ميلادية «الدولة الصناعية الخامسة الكبرى في وجه الأرض» وأخذ يعمل بسرعة متناهية ويمزيد من الصرامة

والقسوة لتحقيق هذا الحلم الطموح. فقرر على سبيل المثال بناء شبكة من المفاعلات النووية للطاقة إلى جانب شبكة أخرى لتوليد الطاقة الكهربائية من القوة المائية بدلاً من استعمال النفط كمصدر للطاقة والاستفادة من النفط الذي سيتوفر بعد انجاز مصادر الطاقة الجديدة في صناعات بتروكيميائية وبلاستيكية تباع في الأسواق الخارجية بأسعار مرتفعة. واتصل بشركات صناعة السيارات العالمية عارضاً عليها انشاء مصانع في ايران لانتاج مختلف أنواع السيارات بعروض مغرية كالاعفاء من الرسوم الجمركية والضرائب واخراج جزء مهم من الأرباح والحماية الحكومية وغير ذلك. وعقد مع الحكومة السوفييتية اتفاقاً لانشاء مصانع للصلب وتوسيع وتجديد المصانع القديمة وعقد اتفاقيات مع عدد من الشركات الأجنبية لإقامة مصانع للنحاس بالاضافة إلى عدة مشروعات لاقامة شبكة من الطرق والسكك الحديدية تربط أنحاء البلاد ببعضها وعدد من المرافىء الجديدة وتحديث المرافىء الموجودة.

إن عملية حسابية بسيطة تظهر جلياً مدى صعوبة تحقيق طموحات الشاه لتحويل ايران إلى دولة صناعية تحتل مكانة مرموقة بين الدول الصناعية الكبرى بالعدد المتوفر من اليد العاملة في البلاد والذي يقدر بثلاثة ملايين شخص بالاضافة الى ضعف المستوى التقني والفني لدى الأغلبية الساحقة من هذا العدد. ولكن الشاه كان على أتم الاستعداد لاستقدام ما تحتاجه مشاريع التصنيع من فنيين وتقنيين من خارج البلاد وانفاق مبالغ طائلة لهذا لغرض ليقوموا بتركيب المصانع وتدريب العمال الايرانيين على تشغيلها وادارتها. وفي الواقع كان الشاه يدرك جيداً أن عملية التصنيع قسراً وفي مدة قصيرة ستكلف ايران أضعاف ما يمكن أن تكلف فيما لو نفذت الخطة التصنيعية بتؤدة وبصورة تدريجية وخلال عقدين أو ثلاثة من الزمن. ولكنه كان يعتقد أن التضخم المالي العالمي الذي أخذ بالتزايد والارتفاع سيؤدي بالنهاية إلى نفس النتيجة. ومع أن الشاه قد يكون مصيباً في وجهة نظره فيما يتعلق بالناحية المادية ولكن يبدو أنه أهمل الناحية الإنسانية وما قد ينجم عن مثل هذا العمل القسري من آثار سيئة في بنية المجتمع الايراني.

التسرع في تنفيذ خطة الشاه تسبب في حدوث اختناقات في الاجراءات

البيروقراطية مما أدى إلى تعطيل المشاريع وتعقدها والاضرار بمصالح الناس وتكبدهم خسائر مالية كبيرة. غير أن أصحاب الأعمال اكتشفوا أن تلك الإجراءات التي تتطلب أسابيع وأشهر عديدة لإكمالها يمكن أن تختصر وتتم خلال فترة قصيرة إذا أبدوا استعداداً لدفع الثمن الذي كان يقل أو يكبر حسب أهمية المشروع أو الصفقة وانتشر الفساد بسرعة في مختلف الدوائر الحكومية على اختلاف الأصعدة والمستويات حتى وصل إلى أفراد العائلة المالكة نفسها. وإذا كان الشاه نفسه قد بقي حتى النهاية فوق الشبهات(!)* إلا أن الفساد الذي استشرى وانتشر في جميع الاتجاهات ألحق بسمعة النظام الشاهنشاهي أفدح الأضرار. المشكلة الانسانية الثانية نجمت عن الهجرة الجماعية لمئات الألوف من الشبان القرويين الى المدن وخاصة العاصمة طهران بحثاً عن العمل في مختلف المشاريع العمرانية والصناعية التي كانت قائمة على قدم وساق في المدن واطرافها. كان هؤلاء الشبان ينتمون إلى مجتمعات ريفية فقيرة ومحافظة لم تصلها بعد مظاهر حياة المدن العصرية وعاداتها وأسلوب حياتها، الأمر الذي جعلهم يشعرون بالغربة والاحباط والكآبة. ولم تكن حياتهم في المجتمعات التي نزلوا فيها سهلة أو مريحة رغم الأجور المرتفعة نسبياً التي صاروا يتقاضونها في المدن. فبينما كانوا يعيشون محشورين في غرفة واحدة بمعدل عشرة أشخاص في كوخ من أكواخ جنوبي طهران كانوا يرون في نفس الوقت الدارات الجميلة والعمارات السكنية الفخمة في المناطق الأخرى من طهران يشيدها الأغنياء وكبار المقاولين لأغراض تجارية حيث تبقى فارغة شهوراً عديدة بانتظار من يشتريها. وبينما ينتظرون صباح ومساء كل يوم ساعات طويلة للحصول على موضع قدم في حافلات مؤسسة النقل العام المزرية للذهاب من وإلى أماكن عملهم اليومي يشاهدون في نفس الوقت السيارات الفارهة التي يملكها الأغنياء وموظفو الحكومة والطبقة المتوسطة.

مشاعر الغربة والاحباط والنقمة في نفوس هذه الطبقة من العمال دفع بعضهم على ادمان المخدرات والبعض الآخر لجأ إلى أعمال العنف والجريمة

(*) اشارة التعجب من الناشر، لأن الشاه نفسه كان شبهة بحد ذاتها.

كوسيلة للتنفيس عن حقده. أما القسم الأكبر منهم فإنهم رجعوا إلى قياداتهم الدينية بحثاً عن راحة النفس القلقة. بالإضافة إلى انشغالي بهذه الأمور كنت أحاول التوصل لمعرفة هدف الشاه الرئيسي من محاولة تحويل ايران إلى (دولة صناعية كبرى في العالم) وهو الشعار الذي وضعه لخطة تصنيع ايران. فالسوق الايرانية المحلية ليست واسعة بدرجة كافية لدعم وتطوير صناعات متقنة ومتطورة تجعلها قادرة على منافسة مثيلاتها من الصناعات الأجنبية. كما أن نجاح صناعة من الصناعات يتطلب توفر عدد من العوامل المساعدة كتوفر المواد الخام محلياً وتقنية متقدمة ويداً عاملة وطنية تتمتع بالمهارة والتدريب بدرجة مناسبة بالإضافة إلى وجود أسواق خارجية لتسويق الانتاج الصناعي. لعل المشروع الوحيد الذي يتوفر له معظم هذه العوامل هو مشروع مجمع البتروكيميائيات الذي يشرف اليابانيون على بنائه والذي سيعمل آلياً بالدرجة الأولى لسد النقص في اليد العاملة الوطنية الماهرة والمدربة وخاصة بعد أن أخذوا على عاتقهم مهمة تدريب الإيرانيين على تشغيله وإدارته من ناحية، توفر النفط الخام محلياً وتزايد الطلب عالمياً على المنتجات البتروكيميائية من الناحية الأخرى. ولكن معظم المشاريع الصناعية الأخرى لم تكن تتوفر لها عوامل النجاح وظروفه. لهذه وغيرها من الأسباب لم أكن مقتنعاً بأن الصناعة الايرانية يمكن أن تبلغ المستوى اللازم من التقنية والجودة لتفتح لنفسها أسواقاً مهمة في الخارج يمكن الاعتماد عليها في المستقبل. وإذا كان مشروع الاستفادة من النفط الخام الرخيص الثمن لتحويله إلى منتجات بتروكيميائية مرتفعة الثمن مشروعاً ناجحاً ومفيداً إلا أن فكرة تحويل ايران إلى دولة صناعية كبرى في العالم كما يطمح الشاه لم تكن فكرة صائبة وعملية في رأيي. ولكني مع ذلك كنت محجماً عن تكوين رأي قاطع ونهائي عن الاقتصاد الايراني أو الحكم على خطة الشاه التصنيعية دون أن تتوفر لدي دراسة علمية شاملة من قبل بعض الخبراء والاختصاصيين الأمريكيين ولذلك طلبت من وزارة خارجيتنا إيفاد باحث اقتصادي لإجراء دراسة مستفيضة حول الموضوع. ولكن البيروقراطيين في الوزارة أرادوا الاستفادة من هذه الفرصة وطلبوا اجراء دراسات أخرى لا علاقة لها بالموضوع الأساسي الذي طلبت قدومه من أجله فَطُلِبَ منه اجراء دراسة شاملة حول امكانيات ايران على

استيعاب الأسلحة والمعدات العسكرية الأخرى التي تبتاعها إيران من الولايات المتحدة ثم أضافوا إلى ذلك طلباً آخر بدراسة مجمل التخطيط الاقتصادي الايراني والآثار السياسية التي قد تنجم عنها وهكذا ضاع الهدف الرئيسي من طلب مجيئه في خضم الدراسات والتحاليل الجديدة وبذلك فشلت محاولتي ولم تر الدراسة التي طلبتها وجه النور.

بعد هذه المحاولة الفاشلة حاولت استقدام خبير آخر عن طريق وكالة المخابرات المركزية ولنفس الغرض فأوفدت الوكالة فعلاً محللاً اقتصادياً أقام في سفارتنا عدة أشهر يجمع المعلومات التي يحتاجها لإعداد دراسته عاد بعدها الى مركز عمله في واشنطن وانتظرت وصول الدراسة المنشودة مدة طويلة دون أن أستلم شيئاً حتى يوم مغادرتي ايران(*).

بعد أن منيت المحاولتان السابقتان بالفشل قررت أن أقوم شخصياً بالتوصل إلى ما أريد معرفته رغم عدم توفر دراسة أو تحليل أو احصاءات للرجوع إليها والاعتماد على معلوماتها وذلك عن طريق الاتصالات الشخصية وإلقاء الأسئلة والاستفسارات على الايرانيين الذين لهم علاقة بشكل أو آخر ببرامج التصنيع. بدأت بعملية الاستطلاع هذه بالطلب من المستشار الاقتصادي لسفارتنا أن يقوم بدعوة عدد من الشخصيات الايرانية المسؤولة لعشاء عمل يقتصر على الرجال فقط حضره معي كل من مساعدي السياسي والمستشار الاقتصادي والملحق التجاري. من الجانب الإيراني كان حاضراً كل من وزير الاقتصاد ووزير المالية ومحافظ البنك المركزي ورئيس هيئة التخطيط الوطنية بالاضافة إلى بعض الشخصيات الاقتصادية المعروفة.

بعد أن تطرقنا في الحديث لمختلف الشؤون المحلية والعامة عرضت أمام الحاضرين ما يساورني من قلق حول الخطة التصنيعية المتشعبة الأطراف التي باشرت الحكومة بتطبيقها وتساءلت بالمقارنة مع تجارب مماثلة مرت علي في أنحاء

(*) بالتأكيد. لأن محللاً اقتصادياً يعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية لن يقدم دراسته الى الخارجية. فالوكالة أولى بهذه الدراسة التي لا بد انها استخدمت للتدخل في شؤون ايران. الناشر.

أخرى من العالم عن مدى قناعتهم بامكانيات النجاح والتغلب على المشاكل المعقدة والعويصة التي لا بد أن يواجهها مشروع ضخم بهذا الحجم!

لاحظت وأنا أشرح لضيوفنا وجهة نظري وتحفظاتي حول برنامج التصنيع علامات الهلع بادية على وجوههم وكأنني أقدمت على المس بشيء مقدس لا يجوز المساس به. وبعد أن فرغت من حديثي خيّم على المكان جو من الصمت المطبق بينما اتجهت أنظار الضيوف إلى حيث يجلس وزير الاقتصاد الذي علق على كلامي معترضاً ومدافعاً بحرارة وعبارات مشبوبة العاطفة عن حكمة الشاه وقيادته الفذة وطموحاته النبيلة لمستقبل ايران المشرق إلى آخر ما هناك من اطراء واعجاب وثناء. وتابع يقول إنه لا يتفق مع آرائي وملاحظاتي وانه وكل ايراني شريف ومخلص يؤيدون برنامج التصنيع بدون تردد أو تحفظ. ثم نفى بشكل قاطع وجود فساد في أجهزة الدولة مستدركاً احتمال وقوع بعض الحالات الفردية والمعزولة من حوادث الرشوة بنطاق ضيق وعلى مستوى صغار الموظفين. وطمأنني الوزير بأن الاختناقات التي تحدث أحياناً بسبب الروتين البيروقراطي هي في طريقها الى الحل والزوال. وأخيراً لم ينس الوزير أن يؤكد بأن الصناعات الايرانية سوف تتمتع بطبيعة وقابلية تنافسية عالية في الأسواق العالمية.

بعد أن فرغ الوزير من كلامه تبعه عدد من الضيوف الآخرين وكل منهم أعلن تأييده لأقوال وزير الاقتصاد. وبذلك أغلقنا الباب أمام هذا الموضوع الشائك ودعوت الضيوف للانتقال الى غرفة المكتب لتناول القهوة وتبادل الحديث حول مواضيع عامة لا تثير الأعصاب. بعد فترة من الوقت نهض وزير الاقتصاد للانصراف فنهضت لمرافقته حتى باب المنزل. بعد أن تناول معطفه من حجرة المعاطف أخذني جانباً وقال بصوت منخفض أن الملاحظات التي أبديها في حديثي عن مشاريع التصنيع صائبة وواقعية وأنه يتفق معي في كل ما قلته. ولما شاهد على وجهي علامات الدهشة قال مبتسماً انه لا يستطيع الجهر برأيه أمام الآخرين إذ يعتبر ذلك انتقاداً موجهاً للشاه وسياسته بينما عليه أن يكون مثالاً طيباً للآخرين! وتكررت هذه العملية مع كل ضيف رافقته مودعاً كنت أسمع في كل مرة كلاماً مشابهاً لكلام وزير الاقتصاد وقد زاد بعضهم على ذلك بالاقتراح أن أفاتح الشاه شخصياً بملاحظاتي وتحفظاتي.

وبعـد أن انصرف الجميع جلست مـع زملائي فـترة من الوقت فحـدثتهم بما سمعته من ضيوفنا قبل انصرافهم فعلق مساعدي «جـاك ميكلوس» الذي كـان قد أمضى مدة غير قصيرة في ايران قائلاً ان كل مسؤول ايراني يحاذر كثيـراً ويفكر عشر مـرات قبـل أن يتفـوه بكلمـة أمـام قـريب أو بعيـد لأنـه لا يعلم من بـين الحاضرين يعمل مـع السافـاك فيقدم تقـريراً عنـه إلى القصر وبالتـالي يطرد من منصبه في اليوم التالي.

جميع محاولاتي مع المسؤولين لمناقشة برنامج التصنيع باءت بالفشل، ولكني في غضون ذلك تمكنت من اقـامة عـلاقة شخصيـة طيبة مـع الشاه أثنـاء اللقاءات العديدة التي التقيته فيها وقد شجعني هذا على أن أقرر العمـل باقـتراح الضيوف الايـرانيين في حفلة العشـاء التي أقيمت في مسكني ومفـاتحـة الشـاه مبـاشرة بمـا يساورني من قلق بشأن خطة التصنيع القسري والمشـاكل التي قـد تنجم عنها في أول اجتماع أعقده معه. وهكذا كان، وأثرت الموضوع بكل تفاصيله وتعقيداته. أصغى الشاه لحديثي بانتباه واهتمام رغم ملاحظتي أنه كان يتململ في مقعده بين حين وآخر. بعد أن فرغت من حديثي ظل صامتاً برهة من الوقت قبل أن يوجه بعض الأسئلة عن الأوضاع الاقتصاديـة في بعض الدول الغـربية ثم تـطرق الى المصاعب الاقتصادية التي تعاني منها الولايات المتحدة والدول الصناعيـة الكبرى وكأنه يريد أن يفهمني أن مصاعب ايران الاقتصـادية ليست أسـوأ من المصاعب التي تعاني منها بلدي وغيره من الدول المصنعة. بصورة عامة كان رد فعل الشـاه على اقحام نفسي في موضوع سياسة التصنيع غير ايجابي وغير مشجـع ولكني وأنا أعرف عنه الآن ما لم أكن أعرفه من قبل أستـطيع أن أؤكـد أنه كـان يتساءل في نفسه بما عرف عنه من شك وارتياب نحو الأجانب، مـا الذي يـدفع الـولايات المتحدة لوضـع العراقيـل أمام مشروعـه الذي سيجعـل ايران تتمتـع باستقـلال صناعي! وتوقف حديثنا عن برنامجـه عند هـذا الحد وتـطرقنا الى قضـايا أخـرى ذات اهتـمام مشترك. وعنـدما حـان وقت انصرافي كان الشـاه قد استعـاد هدوء أعصابه وكياسته المعهودة بصورة كلية.

مـع أن صراحة المـلاحظات التي أبـديتها بشـأن بـرامـج التصنيـع لم تقـابـل بالاستحسان من قبل الشاه ولكني بـدأت أشعر بعـد مدة أن تـأثير حـديثي عليه

كان أقوى مما حاول التظاهر به أمامي بعدم الاكتراث بوجهة النظر التي أبديتها. كان من عادة الشاه قبل حديثي الذي أغاظه أن يطلب رؤيتي بمعدل مرة كل أسبوع أو عشرة أيام لتبادل الآراء والمعلومات حول قضايا دولية وخاصة ما يتعلق منها بالمنطقة حيث يبدي آراءه وملاحظاته بشأنها أو لبحث موضوع يهم بلده ويتطلب بحثه مع حكومتي. بعد ذلك الحديث المزعج مضت ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلاً دون أن يتصل بي كعادته فاعتبرت القطيعة نوعاً من العقاب الضمني أو الاحتجاج الهادىء على ما اعتبره تدخلاً في شؤون ايران الداخلية وهو ما كان شديد الحساسية نحوه. أثناء فترة ابعادي عنه بدأت الاخبار تصلني من هنا وهناك عن انشغال الشاه وحكومته باعادة النظر في سياسة البلاد الاقتصادية وبرامج التصنيع. فلقد بلغنا أن الشاه عقد عدة اجتماعات مطولة مع مجلس الوزراء وكبار المسؤولين عن الشؤون الاقتصادية والمالية طالباً منهم اجراء دراسة شاملة للسياسة الاقتصادية والمالية وبرامج التصنيع على أسس جديدة. استمرت الدراسة وتقديم التوصيات نحو أربعة أسابيع أعلن بعدها استقالة حكومة «عباس امير هويدا» الذي عين وزيراً للبلاط وتكليف «جمشيد اموزغار» رئيس الحزب السياسي الوحيد بتأليف حكومة جديدة.

أعلنت الحكومة الجديدة أنها ستطبق سياسة اقتصادية تقشفية وتكافح الفساد وتعيد تنظيم برنامج التصنيع.

كان من جملة الخطوات التي اتخذتها الحكومة في هذا الاتجاه تخفيض المبالغ المعتمدة للاستثمار الصناعي بشكل ملحوظ ثم وضعت قيوداً مشددة على القروض المصرفية، وهو ما كان سبباً من أسباب ازدياد نسبة التضخم المالي في البلاد بصورة متسارعة. ثم تألفت لجان عديدة بصورة اعتباطية في المؤسسات الحكومية وشبه الحكومية للتحقيق في حوادث الفساد والرشوة وملاحقة أصحابها.

هذه الإجراءات الاصلاحية كان من الممكن أن تكون كبيرة الفوائد والنتائج لو جرى التطبيق بطريقة أخرى أكثر تفهماً واهتماماً بمصالح الناس وكرامتهم ولذلك فإنها أساءت للنظام نفسه قبل اساءتها لشرائح مختلفة من المجتمع.

فالتخفيضات الكبيرة التي أجريت على اعتمادات المشاريع الصناعية بشكل مفاجىء وغير متوقع أحدثت هزة كبيرة في أوساط رجال الأعمال والمقاولين والصناعيين. والقيود الجديدة التي وضعت على القروض أصابت الحركة التجارية بما يشبه الشلل لاعتماد أغلبية تجار البازار على التسهيلات المصرفية التي كانوا يعتمدون عليها في أعمالهم التجارية. ومكافحة الفساد بتلك الطريقة الفظة أدخلت الهلع في قلوب كل مسؤول في دائرته أو مؤسسته لدرجة باتوا معها يحجمون عن اتخاذ قرارات خوفاً من تهمة الرشوة والفساد.

إذا كان الغرض من تطبيق سياسة التقشف هو تصحيح الأخطاء وبناء اقتصاد صحي وواقعي، وهو شيء جيد ومطلوب، فإن الغرض لم يتحقق لأنه طبق بشكل أهوج وإذا كان قد حقق شيئاً فإنه أثار النقمة والتذمر وبالتالي أضاف إلى المناوئين لنظام الشاه أعداداً جديدة لعل في مقدمتهم تجار البازار.

في الحقيقة لا أعرف مدى العلاقة بين حديثي مع الشاه والاجراءات التي اتخذت بعده بوقت قصير كما أني أفضل أن لا تكون علاقة بين الحدثين إذ أن مجرد التفكير بوجود صلة بينهما مثير للقلق والاستغراب حيث يكون دليلاً قوياً على أن الشاه لم يكن يخطط ويعمل بناءً على سياسة اقتصادية مدروسة وعقلانية ومن ثم كانت ملاحظة صادرة عن جهة غريبة، ولو أنها صديقة، قادرة على احداث مثل هذا الانقلاب الجذري في مصير شعبه اقتصادياً.

7

القوات المسلحة الإيرانية

بعـد أن تمكن المقدم رضـا خان بـالقوات التي جـاء بها من شـمالي البلاد من اخضاع القوى المناوئة للسلطة المـركزيـة في طهران أعلن عن قيـام العهد الملكي البهلوي عـلى أنقاض حكم العـائلة القاجـاريـة بـالاعتـماد عـلى تـأييـد القـوات العسكرية الموالية له. ولما كان الشاه الجديد جندياً محترفاً نشـأ في صفوف الجيش منذ مطلع حياته فإنه أحاط الجيش بعد اعتلائه العـرش برعـاية خـاصة وأغـدق عليه، وخاصة طبقة الضباط، الكثير من الامتيازات وأسباب الـرفاهيـة والعيش الـرغيد فخلق بـذلك طبقـة اجتماعيـة متميزة ومـرفهة أخلدت الى حيـاة الكسل والـدعة لا يتكـافأ انتـاجها مـع ما تحصـل عليه من أمـوال وامتيازات. وعنـدما اجتـاحت القوات الـبريطانيـة والسوفييتيـة الأراضي الايرانيـة عـام 1941 ومنيت القوات المسلحة الايرانية بهزيمة نكراء أمام القـوات الزاحفـة تقلص دورها أثنـاء سنوات الاحتلال الـبريطاني السـوفييتي المشترك إلى دور شرطـة عسكريـة تخضع لقوات الاحتلال.

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارهـا عام 1945 وتم جـلاء القوات الأجنبيـة عن الأراضي الايرانيـة قامت في اذربيجـان حركـة انفصاليـة شيـوعيـة بـاعداد السـوفييت وتشجيعهم جهز الشـاه الجـديـد محمـد رضـا جيشـه لمقـاتلة الانفصاليين والقضـاء على النـظام الشيوعي في اقليم اذربيجـان. بعد أن نجـح الجيش في مهمتـه وأعاد الاقليم الى السيـادة الايرانيـة تمكن من استعـادة هيبتـه

واحتل مكانة مرموقة في نظام محمد رضا شاه الذي جرى تنصيبه على العرش خلفاً لأبيه المخلوع منذ 1941.

على أثر الأزمة الدستورية عام 1953 بين الشاه وحكومة الدكتور مصدق اختار الشاه مغادرة البلاد الى ايطاليا بدل المواجهة مع القوى الوطنية المؤيدة لحكومة مصدق. لكن الجيش أعاده إلى عرشه بعد فترة إثر انقلاب عسكري بقيادة الجنرال زاهدي ضد حكومة مصدق وبذلك أثبتت القوات المسلحة أنها الدعامة الرئيسية التي يرتكز عليها نظام محمد رضا شاه بصورة كلية.

بدأ اهتمام الولايات المتحدة بالقوات المسلحة الايرانية على إثر نجاحها بالقضاء على الحركة الانفصالية الشيوعية أي في بداية مرحلة الحرب الباردة بين القوتين العظميين في أواخر الاربعينات وبدأت عملية تحديث وتطوير القوات المسلحة الايرانية وتزويدها بأسلحة ومعدات عسكرية متطورة عن طريق البعثة العسكرية الامريكية التي أنشئت في طهران والتي تعتبر أول بعثة عسكرية أمريكية في بلد أجنبي.

ومع أن بعثات عسكرية عديدة أرسلت فيما بعد إلى دول صديقة في مختلف أنحاء العالم غير أن بعثة طهران احتفظت بخصوصية لم تكن للبعثات العسكرية الامريكية الأخرى حتى انسحابها من ايران اثر نجاح الثورة الإسلامية عام 1979. الخصوصية التي تفردت بها بعثة ايران هي رغبة الايرانيين باعتبار أعضاء البعثة وجميع العسكريين العاملين في ايران كجزء مندمج بالقوات المسلحة الايرانية واستعدادهم لتحمل كافة الرواتب والمخصصات والنفقات الأخرى مقابل حمل شريط على الذراع يشير إلى انتمائهم للقوات المسلحة الايرانية. وقد طبق هذا الإجراء فعلاً على جميع العسكريين الأمريكيين في ايران ما عدا ستة ضباط أمريكيين من ذوي الرتب الرفيعة. بسبب هذه العلاقة الخاصة بين بعثتنا والقوات الايرانية ولمعرفتي عن تأثير القوات المسلحة الايرانية على توجهات حكومة الشاه بصورة عامة، أردت معرفة المزيد عن الجيش الايراني عن طريق التعرف على كبار القادة العسكريين الذين يحتلون مراكز حساسة ورئيسية في المؤسسة العسكرية. الأمر الذي توصلت إلى الاطلاع عليه بنتيجة زياراتي هو أن

القوات المسلحة الايرانية كمؤسسة عسكرية تختلف عن مثيلاتها في الدول الأخرى. فصنوف الجيش الثلاثة، البرية والبحرية والجوية، منفصلة عن بعضها البعض تمام الانفصال ولا تخضع لإشراف وسيطرة رئاسة الأركان العامة كما هي العادة في الجيوش الأخرى ولكن كلاً منها يقع تحت إمرة الشاه المباشرة وإن كل قائد من قادة الصنوف الثلاثة يراجع الشاه شخصياً وعلى انفراد في كل ما له علاقة بإدارة وتنظيم وتدريب قواته. ومع أن هناك رئيس أركان واحد للقوات المسلحة إلا أنه ليس من صلاحياته الاجتماع بقادة الأسلحة الثلاثة إلا داخل المجلس العسكري الأعلى الذي بدوره لا يعمل كجهاز قيادي للتنسيق بين الصنوف الثلاثة كما أنه لا يملك جهازاً خاصاً به للقيام بواجباته.

فيما يلي موجز للانطباعات التي خرجت بها بعد الزيارات التي قمت بها لكبار القادة العسكريين في القوات المسلحة الايرانية:

رئيس أركان القوات المسلحة الايرانية الجنرال أزهري رجل على درجة طيبة من الاطلاع والثقافة تدرج في الرتب العسكرية خلال سنوات طويلة زودته بخبرة عسكرية واسعة وأكسبته احترام زملائه وتقديرهم. ولكن الجنرال أزهري لم يكن يبدو أنه من طراز العسكريين الذين يتصفون بالحزم وشدة البأس كما يتوقع المرء أن يجد في نظام يعتمد على تأييد الجيش اعتماداً كلياً.

قائد القوات البرية الجنرال أوفيسي. رجل ضخم البنية قريب الشبه بموسوليني قليل الكلام والجاذبية لا يعطي انطباعاً بأنه ذو خيال واسع. يقال ان قواته تمثل أكثر فئات الشعب الايراني محافظة.

قائد القوة الجوية الجنرال ربيعي. رجل في مقتبل العمر مندفع في آرائه وفرضياته متحمس في كلامه رياضي جيد وشخصية جذابة. يجيد وزوجته الألمانية الحسناء التحدث بطلاقة باللكنة الأمريكية الدارجة في أوساط القوة الجوية الأمريكية.

قائد القوة البحرية الادميرال حبيب الله. رجل مثقف وواسع الاطلاع رصين في حركاته وكلامه يزين كلماته جيداً أثناء حديثه ويستمتع في مناقشة

قضايا وشؤون فكرية. متزوج من سيدة تعمل معلمة لرقصة الباليه وهو شيء غير اعتيادي في المجتمع الايراني.

الانطباع العام الذي خرجت به من لقاءاتي مع هؤلاء الضباط هو أنهم ضباط على درجة طيبة من الكفاءة كرسوا أنفسهم لخدمة قواتهم يكنون للشاه مشاعر الاحترام والولاء لدرجة التعصب لا يهتمون بالشؤون السياسية ويتجنبون ـ عدا اثنين ـ الدخول في أحاديثها وكل منهم مستمتع وسعيد بالمراكز العسكرية الرفيعة التي منحها لهم نظام الشاه. اثنان فقط من كبار القادة العسكريين كان لديهما الرغبة والجرأة للدخول في حديث سياسي هما الأدميرال حبيب الله قائد القوة البحرية والجنرال قرة باغي قائد الشرطة العسكرية. والجنرال قرة باغي لم يكن معروفاً كثيراً في أوساط الضباط الأمريكيين العاملين في ايران وذلك لأن الشرطة العسكرية لم تكن تصنف من الناحية الفنية العسكرية كقوة عسكرية وإنما قوة شرطة اعتيادية. ولما كان الكونغرس الامريكي يحظر على الحكومة الامريكية التعامل مع قوات شرطة أجنبية سواء بتقديم مساعدات عسكرية أو حتى القيام بدور استشاري لذلك لم تكن هناك صلة عمل بين بعثتنا العسكرية وقوات الشرطة العسكرية. كما أن الجنرال قرة باغي بخلاف معظم كبار القادة العسكريين كان يتقن اللغة الفرنسية ولا يعرف إلا قليلاً من اللغة الانكليزية، ولما كنت شخصياً ملماً باللغة الفرنسية فإنه كان يرتاح لتبادل الآراء والأحاديث معي كلما أتيحت لنا فرصة للاجتماع. كان شخصية ذكية وممتعة. كان قرة باغي أحد مجموعة من الرجال الذين اختارهم رضا شاه ليكونوا حاشية لولي العهد الأمير محمد رضا أثناء سنوات تعليمه في سويسرا واستمر يقوم بهذه المهمة بعد رجوع الأمير الى ايران والتحاقه بالكلية العسكرية الايرانية. تلك الرفقة الطويلة جعلته يصبح بعد اعتلاء الأمير عرش أبيه عام 1941 أكثر رجال الحاشية قرباً من البلاط وأكثرهم حظوة لدى الشاه الشاب. كان قرة باغي شخصاً معروفاً بالكياسة ودماثة الخلق. تلقى دراسته العسكرية حسب التقاليد العسكرية الفرنسية واقتبس عاداتها وتقاليدها. كان متزوجاً من سيدة تنتمي إلى عائلة ايرانية محترمة معروفة بعلاقاتها الوثيقة بالمؤسسة الدينية.

بالإضافة إلى هؤلاء كان هناك ضابط كبير آخر يشغل مركزاً مهماً في القوات

المسلحة نادراً ما كنت أصادفه في المناسبات الاجتماعية وهو الجنرال «فردوست» المفتش العام للجيش. كان فردوست كزميله قرة باغي واحداً من الضباط الذين اختارهم رضا شاه لمرافقة ورعاية شؤون ولي العهد خلال سنوات حداثته وشبابه فأصبح مع مرور الزمن يتمتع بثقة الأمير المطلقة وبالتالي عيّنه بعد جلوسه على العرش مفتشاً عاماً للقوات المسلحة مستعملاً إياه بذلك بمثابة العين التي يرى بها والأذن التي يسمع بها.

كان الجنرال فردوست كثير الترحال والسفر في مختلف أنحاء البلاد للتفتيش ورفع التقارير الى الشاه مباشرة. ولم تكن مهماته التفتيشية تقتصر على الوحدات العسكرية فقط وإنما تشمل أيضاً الأجهزة البيروقراطية وهو ما جعل هذا الجنرال مرهوب الجانب من قبل الجميع حيث يكفي تقرير واحد منه ليفقد الشخص عمله ومركزه في اليوم التالي، ولربما أكثر من ذلك.

تتألف البنية العامة للجيش من فئتين من الجنود: جنود الاحتراف والتطوع وجنود الخدمة الالزامية. ولكن الأمر الذي يثير استغراب الملاحظين هو طريقة تركيب الصنوف والوحدات العسكرية ونسبة كل من هاتين الفئتين فيها من ناحية والفارق الكبير في معاملتهما داخل الجيش. فبينما تتألف بعض الوحدات كالقوات البرية مثلاً من نسبة متساوية تقريباً من الفئتين هناك وحدات أخرى كألوية الحرس الامبراطوري مثلاً تتألف كلياً من جنود محترفين وألوية أخرى يغلب فيها عنصر الجنود المطلقين على الجنود المتطوعين أو بعكس ذلك. أما المعاملة التي يلقاها كل من هاتين الفئتين داخل الجيش فإنها مختلفة وغير عادلة. فبينما يحظى الجنود المتطوعون بمعاملة متميزة توفر لهم ولعائلاتهم حياة مريحة، فالرواتب جيدة والمخصصات الأخرى سخية والمساكن ملائمة والرعاية الصحية متوفرة ووسائل تعليم أبنائهم مهيأة. أما الجندي المكلف فإنه بعد أن يتلقى تدريباً أساسياً لفترة قصيرة يحصل على راتب زهيد ويعيش في الثكنات العسكرية ويقوم بأحقر الاعمال في الوحدات التي يلتحق بها. ولعل هذا النظام الغريب في الجيش يعكس المرحلة الانتقالية التي تجتازها ايران من مملكة زراعية اقطاعية إلى دولة صناعية عصرية. في كل الأحوال لم أستطع أن أتعرف على أسباب

وأغـراض هذا الـوضع الغـريب داخل الجيش أو الجهـات التي قـررت تـطبيقـه والعمل به.

الوحدات العسكرية التي كان يعتبرها الشاه قرة عينه وموضع اعتزازه ورعايته والتي كـان لها حق الأفضليـة والأولويـة فيما يتعلق بتـوفير احتيـاجاتهـا من جنـود ومعدات وأسلحة فهي الوحدات المدرعة المجهزة بدبـابات «شيفتن» الانكليـزية التي كانت تعتبر القوة الضاربة في القوات البرية.

كـانت القوة البحـرية الايـرانية أصغـر الصنوف حجـماً حيث كـانت تتكـون بصورة رئيسية من زوارق حربية من نـوع قاذفـات الطوربيـد وبعض الطرادات الأمريكية والفرقاطات الانكليزية بالاضافة إلى وحدة صغيرة تستخدم زوارق من نوع «هوفر كرافت» والتي كانت ترسو في جزيرة «خرج» الميناء الرئيسي لتصـدير النفط الخام. ومع أن القوة البحرية كانت موزعة في عدة موانىء تقع على الخليج إلا أن بندر عباس تعتبر القاعدة البحرية الرئيسة.

كان هذا الاسطول الصغير يستطيع التحرك بسرعة لمعالجة أية مشكلة تقوم في الخليج حتى مدخله في مضيق هرمز. أما خطوط الملاحة البحرية في بحر العرب والمحيط الهندي فإنها كانت فوق قـدراته. ولمـا كانت طمـوحات الشـاه أبعد من نطاق الخليج فإنه شرع بتوسيع وتقـوية قـدرات القوة البحـرية ومجـالات عملها بحيث تستطيع الحركة حتى أقصى أطراف شبه الجزيرة العربية ولذلك تعاقد مـع البحرية الأمريكية لشراء أربع طرادات جـديدة من فئـة «سبراونس» التي كـانت تعتـبر أحدث مـا أخرجتـه أحواض بنـاء السفن في الولايـات المتحـدة، ولعلهـا الأحدث في العالم. بالاضافة إلى ذلك ابتاع في السنوات الأخـيرة غواصتـين من الطراز القديم الذي تعمل محـركاتـه بالـديزل، كـما أنه بـدأ يتفاوض مـع المانيـا الغربية لشراء ست غواصات حديثة.

قرار الشاه بتحويل الأسطول الحربي الايـراني الذي كـان رغم تواضعـه أقوى قوة بحرية في منطقة الخليج إلى قوة بحرية أكبر حجماً وأكثر تطوراً وفعالية تطلب إيفاد أعداد كبيرة من طلاب الدراسة الثانويـة والجامعيـة أيضاً لـلالتحاق ببعض الجامعات والمعاهد الأمريكية للدراسـات البحريـة واعدادهم لإدارة واستخـدام

السفن المتطورة الجديدة التي ستلحق بالاسطول بعد عدة سنوات.

بعد هذا ركز الشاه اهتمامه على القوة الجوية ووضع خطة أخرى طموحة لتوسيعها وتطويرها. ولما كان الشاه نفسه يعتبر طياراً ماهراً شديد الولع بقيادة الطائرات المدنية والعسكرية فإنه كان يتابع باهتمام كبير كل التطورات التكنولوجية التي تطرأ في مجال الطيران المدني والحربي.

في منتصف السبعينات بدأت مليارات دولارات النفط تنهمر على الخزينة الايرانية فوضع الشاه برنامجاً طموحاً جديداً لتطوير القوة الجوية وتوسيع قدراتها وذلك بعد أن تمكنت من استيعاب المطاردات الأمريكية من نوع اف ـ 5 والتي كانت استلمتها منذ نحو سنة واحدة فقط فطلب الآن شراء عدة أسراب من طائرات اف ـ 4 الأكبر حجماً والأكثر تعقيداً من طائرات اف ـ 5 فأوفدت القوة الجوية الأمريكية عدة مئات من المدربين والاخصائيين لتدريب الايرانيين على استخدامها وصيانتها وتمكنت القوة الجوية الايرانية بحلول 1977 من استيعاب الطائرات الجديدة بشكل جيد. ولكن الشاه بطموحاته الواسعة وخزائنه الغنية لم يكن ليكتفي ويرضى بهذا الجيل من الطائرات فطلبت حكومته من الإدارة الأمريكية الموافقة على بيع اعداد كبيرة من أسراب طائرات اف ـ 14 التي كانت البحرية الأمريكية طورتها لاستعمالها وطائرات فئة اف ـ 16 التي صممت وصنعت لاستخدامها في القوة الجوية الأمريكية. وبناءً على نظريات الشاه الستراتيجية فإنه قرر أن قوته الجوية بحاجة إلى 150 طائرة من اف ـ 14 المزودة بصواريخ «فونيكس» و 300 طائرة اف ـ 16 من أجل الدفاع عن الأراضي الايرانية ضد أي هجوم محتمل. ومع أن الشاه كان ينظر بعين القلق لمشاريع التسلح في العراق وحصوله على أحدث الطائرات الروسية والفرنسية المتطورة إلا أنه كان يريد في نفس الوقت أن يحقق لايران درجة من القوة والمنعة لا تبقى معها لقمة سائغة أمام أطماع الاتحاد السوفييتي.

امتلاك قوة جوية بهذا الحجم والاستفادة منها بشكل فعال تتطلب بناء مطارات عسكرية في مختلف أنحاء البلاد واقامة شبكة واسعة من أجهزة الرادار للانذار المبكر ودفاعات أرضية مزودة بصواريخ «هوك» لحماية المنشآت الصناعية

والمدن المأهولة وطرق المواصلات وغير ذلك من الأهداف المهمة. ولكن طبيعة البلاد الجغرافية ووعورة أراضيها وصعوبة الوصول إلى أماكن كثيرة فيها كانت تشكل عقبة أمام اقامة محطات أرضية للرصد نظراً لتعذر الوصول الى القمم العالية والنائية والأموال الطائلة التي قد تصل الى عدة بلايين من الدولارات للتغلب على تلك الصعوبات ولذلك قرر الشاه استبدال نظام الرصد الأرضي الثابت بنظام الرصد الجوي المتحرك بواسطة طائرات «أواكس» وأوصى بشراء عشرة منها. تعثر طلب الشاه بعد أن قوبل بمعارضة من الكونغرس وأحدث الموضوع فتوراً في العلاقات بين البلدين. بعد مدة تم الاتفاق بينهما على ايفاد لجنة أمريكية لبحث مدى حاجة إيران لهذه الطائرات المتطورة. جاء تقرير اللجنة مؤيداً لوجهة النظر الايرانية بعد أن اطلعت ميدانياً على صعوبة اقامة محطات رصد أرضية في كثير من الأماكن وضخامة المبالغ اللازمة للتغلب على العراقيل الطبيعية وبذلك تمت الموافقة على بيع العدد المطلوب من طائرات «أواكس».

بالاضافة إلى هذا التوسع الكبير في القوة الجوية قرر الشاه تأليف قوات عسكرية خاصة محمولة جواً وهي فكرة استقاها من تجربة أمريكية كانت القوات الأمريكية قد طبقتها في حرب فيتنام. هذا المشروع الجديد يعني الحاجة لشراء عدة أسراب من الطائرات العمودية العسكرية من انتاج مصانع «بل» في الولايات المتحدة بالاضافة لما يحتاجه الأمر من جهد كبير لتدريب الوحدات التي ستتألف منها هذه القوة العسكرية الجديدة إلى غير ما هناك من أمور أخرى ادارية وعسكرية وتقنية. من أجل تقديم الخبرات اللازمة ليصبح هذا المشروع حقيقة قائمة أوفدت القوة الجوية الامريكية إلى ايران عدداً كبيراً من الخبراء الأمريكيين الذين سبق لهم الخدمة في مثل هذه المهام في فيتنام. وشاءت الصدف أن يكون معظم هؤلاء الأمريكيين متزوجين من فتيات فيتناميات فقدموا الى ايران مصطحبين معهم زوجاتهم وأولادهم وكل ما اقتبسوه في تلك البلاد من عادات وتصرفات وتقاليد غريبة على المجتمع الايراني المحافظ فأصبحوا بذلك سبباً في ايذاء مشاعر الايرانيين والاساءة للعلاقات بين البلدين وفشل المشروع وتأخر انجازه. وأعتقد لو أن مشروع «خيالة الجو» كما أطلق عليه في

حينه، جرى تطبيقه بشكل جدي وسليم لكان أصبح في يد الشاه سلاحاً فعالاً سريع الحركة وقادراً على معالجة أي موقف قد يقوم في منطقة الخليج.

لقد كتب الكثير عن برامج التسلح الواسعة النطاق في عهد الشاه وزعم البعض أنها كانت من العوامل التي أدت إلى سقوط النظام. ومع أني أعتقد أيضاً أن بعض برامج التسلح لم تكن واقعية وأن كثيراً من المعدات العسكرية التي كان الشاه يصر على الحصول عليها كانت أكثر تطوراً وتعقيداً من أن تستطيع القوات المسلحة الإيرانية استخدامها وصيانتها بكفاءة تقنية عالية غير أني أختلف مع الرأي القائل بأن انفاق الأموال الطائلة على التسلح كان سبباً أو عاملاً لقيام الثورة في البلاد. كما أنه ليس صحيحاً أن الأموال التي أنفقت على التسلح كان من الواجب أن تنفق على مشاريع اجتماعية، وذلك لسبب بسيط هو عدم وجود مشكلة نقدية في ايران خلال تلك السنوات وإنما على العكس من ذلك كانت السيولة النقدية سبباً من أسباب التضخم المالي الذي كان يتصاعد بسرعة مخيفة وليس من المبالغ فيه أن نقول ان الأموال التي أنفقت على التسلح تعتبر امتصاصاً للسيولة النقدية المتداولة وبالتالي عدم زيادة التضخم المالي سوءاً على سوء. وإذا كان هناك من انتقاد يمكن توجيهه لبرامج التسلح هو أنها امتصت أفضل العناصر البشرية الشابة في البلاد وحرمت المشاريع الاقتصادية والاجتماعية من قدراتهم وكفاءاتهم، فالشبان الذين ألحقوا بالقوات المسلحة بأعداد ضخمة للخدمة في مختلف المهن والميادين كانوا بدون شك من خيرة شباب البلاد المؤهلين لاستيعاب مشاريع التصنيع وتحويل ايران إلى دولة صناعية أو الاهتمام بالمشاكل الزراعية والاصلاح الزراعي وهي المشاكل التي لقيت الاهمال من قبل الجميع.

بالإضافة إلى ذلك فإن برامج التسلح والمشتريات العسكرية بذلك النطاق الواسع ساعدت على انتشار الفساد والرشوة على مختلف المستويات والأصعدة الحكومية منها وغير الحكومية. ولكن لم تكن الولايات المتحدة المجهز الرئيسي والوحيد لجميع مشتريات ايران العسكرية، فلقد كانت بريطانيا مثلاً المورد الرئيسي لمختلف أنواع العربات المجنزرة ومن جملتها دبابات «شيفتن» كما كانت فرنسا مجهزاً مهماً للقوات البحرية الايرانية كزوارق الطوربيد السريعة وقاذفات

الطوربيد وزوارق خفر السواحل وغير ذلك. وقد تعاقدت الحكومة الايرانية مؤخراً مع المانيا الغربية لشراء عدد من الغواصات المتطورة. أما الاتحاد السوفييتي فكان مجهزاً رئيسياً لتزويد القوات المسلحة الايرانية باحتياجاتها من مختلف أنواع السيارات كسيارات النقل وناقلات الجنود المصفحة بالاضافة إلى بعض أنواع المدافع والأسلحة المضادة للطائرات. وما عدا برنامج الشاه الأخير لتوسيع وتطوير القوات البحرية الايرانية بمساعدة امريكية فإن دور الولايات المتحدة فيما يتعلق بتزويد ايران بالأسلحة كان مقتصراً على مساعدتها لإنشاء قوة جوية متطورة وتزويدها بطائرات متطورة وتقديم الخبرة الفنية والتدريبية والمعدات اللازمة لذلك بالاضافة إلى أنواع خاصة من مدافع الميدان.

كان لدى الايرانيين صناعة حربية لانتاج ما يحتاجونه من أنواع الذخيرة والأسلحة الخفيفة وبعض المعدات العسكرية الأخرى. ثم انشاء صناعة حربية حديثة في ايران في عهد رضا شاه قبيل الحرب العالمية الثانية بمساعدة المانية ثم جرى تطويرها في عهد ابنه محمد رضا شاه بمساعدة اسرائيلية. كان الجنرال «توفانيان» نائب وزير الدفاع والمسؤول عن برامج التسليح والمشتريات العسكرية على صلة وثيقة بالجيش الاسرائيلي ويستعين بالخبراء العسكريين الاسرائيليين لإجراء التجارب على مختلف أنواع الأسلحة واختيار ما يصلح منها لكلا الطرفين الإيراني والإسرائيلي.

كان الغرض من قيامي بزيارة مختلف المناطق الايرانية بين وقت وآخر التعرف على طبيعة البلاد وتاريخها وحضارتها من ناحية وزيارة العسكريين الأمريكيين المنتدبين للعمل في أماكن عملهم من ناحية أخرى ولذلك وقبل قيامي بأول جولة في اقليم أذربيجان لزيارة القنصلية الامريكية في تبريز اتفقت مع رئيس البعثة العسكرية الايرانية الامريكية في طهران للاتصال بالجهات العسكرية المسؤولة لتسهيل أمر زيارتي لبعض المواقع العسكرية في الاقليم. بعد زيارة قنصليتنا في تبريز علمت أن المواقع العسكرية لم تتبلغ بأمر زيارتي ولما كانت القوانين العسكرية تحظر على الغرباء العسكريين منهم والمدنيين دخول المواقع العسكرية ـ وهي قاعدة متبعة في جميع أنحاء العالم ـ فإن الزيارة التي كنت أود القيام بها لم تتحقق. (في الواقع كان الغرض من قرار الحكومة الإيرانية باعتبار

العسكريين الأمريكيين الذين يعملون في ايران ملحقين رسمياً بالقوات المسلحة الإيرانية هو تسهيل قيامهم بواجباتهم وعدم شمولهم بالأوامر الخاصة بمنع الغرباء من الدخول إلى المواقع العسكرية).

المشكلة التي واجهتني في تبريز حول زيارة المنشآت والمواقع العسكرية تحولت الى مشادة كلامية حادة فيها بين السلطات الايرانية المختصة في طهران اشتركت فيها جهات عسكرية ومدنية بحيث وصلت أخبارها الى الشاه شخصياً فأصدر تعليماته لجميع الجهات العسكرية والمدنية يمنحني بموجبها تفويضاً خاصاً يحق لي بموجبه زيارة أي منشأة أو موقع عسكري بناءً على طلبي ومذكراً إياهم أنه يمانع في اعطاء السفراء الآخرين بمن فيهم السفير السوفييتي موافقة مماثلة. بعد أن تبلغت الجهات الايرانية المسؤولة بقرار الشاه صرت أزور عدداً من المواقع العسكرية في كل سفرة أقوم بها إلى إحدى المناطق وألتقي الخبراء العسكريين الأمريكيين وأطلع على طبيعة عملهم وأوضاعهم الخاصة بالاضافة الى التعرف على الضباط الايرانيين المسؤولين عن تلك المنشآت أو المواقع التي أزورها وقامت بيني وبين أولئك الضباط علاقات ودية وحميمة. كان أولئك الضباط يشعرون بالسرور والاعتزاز للتحدث معي عن الحياة في معسكراتهم ويشرحون ما يوفر الجيش لمنتسبيه من الضباط والأفراد من تدريب جيد ومستوى معيشي لائق كالسكن في بيوت حديثة ومدارس لتعليم أبنائهم ورعاية صحية لأفراد أسرهم.

كانت قوات حلف «السنتو» قد أجرت مناورات عسكرية مشتركة في منطقة الخليج وبعد انتهائها قامت عدة أسراب من القوة الجوية الأمريكية وهي في طريق عودتها إلى أوروبا بزيارة ودية لإيران بناءً على دعوة من القوة الجوية الايرانية. اتفق المسؤولون الايرانيون والأمريكيون على اجراء مباراة ودية بين طياري القوتين الجويتين على إصابة أهداف وهمية بالقنابل والصواريخ والرشاشات الثقيلة واستلمت دعوة من رئيس أركان القوة الجوية الايرانية لحضور المباراة. في الصباح الباكر لذلك اليوم حضرت ومعي رئيس بعثة المساعدات العسكرية الأمريكية ورئيس قسم القوة الجوية فيها إلى قاعدة جوية ايرانية بالقرب من طهران حيث وجدنا حشداً كبيراً من كبار القادة العسكريين

الإيرانيين لنستقل جميعاً طائرة نقـل ايرانيـة ضخمة أقلتنـا إلى منطقـة صحراويـة قفراء لا أثر فيها للحياة بعد طيران استغرق حوالي ساعة وبعض الساعة هبـطت الطائرة فوق مدرج أنشيء على ما يبـدو لهبوط الـطائرات العسكـرية في حـالات اضطرارية وهو نفس المكان الذي هبطت فيه طائرات أمريكيـة عام 1980 وعـلى متنها وحدة «كوماندوس» أمريكية لإنقاذ الدبلوماسيين الأمريكيـين المحتجزين في طهـران وهي المحـاولـة التي انتهت بشكـل مـأسـاوي وفشـل ذريـع. في تلك الصحـراء المـوحشـة تجمـع عـدد كبـير من جنـرالات الجيش الايـراني والسفـير الأمريكي يرافقه اثنان من جنرالات الولايات المتحدة وأنظار الجميع متجهة نحو الأفق بانتظار وصول طائرة أخرى. ولم يطل انتظارنا. هبطت الطائرة القادمة ثم سارت ببطء حتى توقفت محركاتها قبالة مجموعتنـا فشاهـدنا الشـاه في مقعد قـائد الطائرة ثم فتحت أبواب الطائرة ونزل منها الشاه ومعـه بعض المرافقـين. توقف الشاه لحظة في مكانه ثم سـار متجهاً نحـونا بخـطوات بطيئـة ثابتـة. في غضون ذلك أشرف أقدم الجنرالات الايرانيين الحاضرين عـلى ترتيب وقـوف زملائـه في صف واحد طويـل وضعني في مقدمـة الصف وبجانبي وزيـر الدفـاع الايراني. تقدم الشاه نحوي وبعد أن صافحني واستفسر عما إذا كانت رحلتي مريحة صافح الحاضرين بسرعة وسطحية ملحوظة ثم دعاني لمرافقتـه إلى سيارتـه الخاصـة بينما سـارع الآخرون الى السيـارات الأخرى التي كـانت قد وصلت إلى ذلـك المكان قبل قليل من الوقت وهكذا تحرك رتل طويل من السيارات وسيارتنـا في المقدمـة طبعاً إلى مكان آخر لا يبعد أكثر من عدة كيلومـترات عن مكان هبـوط الطائـرة حيث أقيم مدرج مكشوف شاهدت بالقرب منه عربة مقطورة كبيرة أشبه بالبيت المتنقل وعلى مسافة غير بعيدة منها عدداً كبيراً من العربات المقطورة الأخـرى غير أنها أصغر حجماً وجميعها مكيفة الهواء.

دعاني الشاه للصعـود معه الى العـربة المقـطورة الأولى الكبيرة الحجم وتـوزع الضباط على المقطورات الأخرى. جلسنا قبالة بعضنا حول طاولـة صغيرة وأخـذ الشاه يفك أزرار بدلته الرسمية الضيقـة وهو يعـرب عن اعتذاره قـائلاً أنها غـير مريحة وبعد أن فرغ من ذلك اتكأ إلى الوراء في وضع مريح.

أمضينـا حوالي نصف سـاعة في ذلـك الجو المـريـح الهـادىء ونحن نتجـاذب

أطراف الحديث حول عدد من القضايا الدولية وهو ميدان كان الشاه واسع الاطلاع فيه ويجيد التحدث عنه بصوته الهادىء الرزين وأسلوبه المهذب ومعلوماته الواسعة. في مثل هذه الجلسات الخاصة كان الشاه مثالاً للرقة والظرف والبساطة.

قطع حديثنا طرق خفيف على باب المقطورة ثم دخل أحد المرافقين العسكريين ليبلغ الشاه عن اقتراب الطائرات المشاركة في المباراة. بعد خروج المرافق بقي الشاه ساكناً عدة لحظات ثم نهض على قدميه وأخذ يرتب هندامه وقد تغيرت قسمات وجهه من الهدوء والسكينة والانبساط الى وجه عابس يدل على الصرامة والقسوة وبعد أن غطى عينيه بنظارة غامقة اللون وأبرز صدره وأطبق شفتيه بشكل متجهم قال «لنذهب» فغادرنا عربته نحو المدرج المكشوف وهو يسير بجانبي بخطواته العسكرية الواسعة.

التغير المفاجىء والسريع الذي طرأ على وجه الشاه من وجه يوحي بالوداعة والطيبة والسكينة الى وجه عبوس متجهم يوحي بالكبرياء والصرامة والشدة بقي راسخاً في مخيلتي مدة طويلة وأنا أتساءل ما الذي يدفع هذا الرجل الخجول والانعزالي بطبيعته للظهور أمام الناس بمظهر الحاكم الاوتقراطي المتكبر الجبار!

في الواقع لم أعثر على تفسير منطقي لمثل هذا السلوك غير العودة الى سنوات طفولته وحداثته حيث نشأ تحت رقابة صارمة وقاسية من والده ومعلمه وناقده الدائم رضا شاه الذي كان حقاً جندياً صارماً وحاكماً اوتوقراطياً بكل معنى الكلمة والذي كان يطلب من ولي عهده أن يمثل في سلوكه ومظهره وتصرفاته الدور الذي سيقوم به في المستقبل بصفته. . «ملك الملوك». ولذلك أتصور أن الشاه إذ يريد الايحاء للناس أنه حاكم مرهوب الجانب وملك ذو بأس شديد فإنما يحاول محاكاة الصورة الراسخة في ذهنه وذاكرته عن والده رضا شاه.

8

المذهب الشيعي في الاسلام

أول سفرة قمت بها مع عائلتي في ايران كانت لـزيارة مـدينة مشهـد المقدسـة التي تضم ضريح الإمام الرضا وهو الامام الحادي عشر الذي خلّـف بعد وفـاته الامـام الثاني عشر المحتجب حتى الآن. تقـع مشهد في شـمال شرقي ايـران ولا تبعـد كثيراً عن الحـدود الأفغانيـة. يقصد مـدينة مشهـد سنويـاً ألوف الحجـاج القادمين من مختلف أنحاء المنطقـة لزيـارة ضريح الامـام وهي أيضاً مـدينة ذات حضارة وتاريخ. عندما نذكر في الغرب الأدب الفارسي نستشهد عادة بربـاعيات عمر الخيام، ولكن الايرانيين يعتبرونه في الدرجة الثانية بعد الآثار الأدبية لحافظ وسعـدي والفردوسي. ويفضلون بصـورة خاصـة ملحمة «شـاهنامـة» أو «كتاب الملوك» التي نظمها الفردوسي على غـرار «الالياذة» لهـوميروس. وكـان الفردوسي قـد ولد وعـاش في قريـة صغيرة غـير بعيدة عن مشهـد حيث قمنا بـزيارة قـبره وسجلنا أسماءنا في السجل الخاص وتمتعنا بتذوق الفواكه الرائعـة التي تنتجها تلك المنطقة. ولكن الحـدث المهم في تلك الزيـارة هو إتـاحة الفـرصة لنـا لزيـارة مقام الامام الرضا وضريحه الذي يقع في جامع ضمن مجمـوعة من الجـوامع وغـير بعيد عن مركز المدينة. المنظر الخلاب لتلك المجموعة من الجوامع كنـا قد شـاهدنـاه في الجو حينما اقتربت الطائرة التي أقلتنا من طهـران الى مشارف مـدينة مشهـد فبدت من الجو كلوحة فنية في غاية الجمال والاتقان تناثـرت فيها الجـوامع بشكـل هندسي متقن وسط حديقة خضراء واسعة المساحـة ومستديـرة الشكل رتبت بتنـظيم دقيق

وذوق فني رفيع. وقد علمنا فيما بعد أن تلك الحديقة الجميلة استحدثت خلال السنوات الأخيرة فقط بعد أن قامت الجرافات بهدم الأسواق القديمة وعدد كبير من النزل التقليدية الملاصقة للجوامع من جميع أطرافها وبذلك تم فصل الجوامع عن بعضها وحولت الأرض الفضاء إلى حديقة عصرية.

كنا نعلم مقدماً أن جدول زيارتنا يتضمن زيارة بعض جوامع مشهد الأثرية ولكننا لم نكن نتوقع أن يسمح لنا بزيارة ضريح الامام الرضا لمعرفتنا بعدم جواز ذلك بالنسبة للأجانب، ولهذا فقد فوجئنا عندما أخبرنا نائب محافظ المنطقة، وهو شاب تلقى تعليمه الجامعي في الولايات المتحدة، ان السلطة المحلية قد أعدت الترتيبات اللازمة لتمكيننا من زيارة الضريح أيضاً. ولكن قبل ذلك انتقلنا لزيارة المكتبة الخاصة بالضريح، وهي مكتبة غنية بكتب الفقه الاسلامي والمصاحف المخطوطة باليد خلال عدة قرون سابقة. عندما حان وقت زيارة الضريح قدم لقرينتي وابنتي «شادوراً» لكل منهما. والشادور عبارة عن لباس فضفاض أسود اللون في أغلب الأحيان ترتديه النساء المحافظات خارج المنزل، ويغطي جسم المرأة من قمة الرأس حتى أخمص القدم ولا يظهر منها غير العينين وأرنبة الأنف فارتدت كل منهما الشادور الذي قدم اليها ثم هبطنا جميعاً ومعنا نائب المحافظ وبعض رجال الأمن درجات السلم المؤدي الى سرداب واسع يتوسطه قبر الامام داخل قفص معدني مشبك يبلغ طوله حوالي عشرين قدماً وارتفاعه من أرضية السرداب حتى سقفه. وقفت مجموعتنا في زاوية مقابل الضريح حيث نستطيع مشاهدة ما يجري أمامنا بوضوح.

شاهدنا صفوفاً متراصة وطويلة من البشر يدخلون من الناحية المقابلة لنا عبر دهليز ضيق لا يزيد عرضه عن بضعة أقدام وهم يندبون وينتحبون ويدقون على صدورهم وما ان يقتربوا من القفص الذي يوجد فيه قبر الامام داخله حتى يمسكون بالقفص وقد ارتفع نحيبهم وندبهم وكأنهم فجعوا بعزيز لديهم. ورأينا أيضاً عدداً من حراس الضريح والقيمين على شؤونه وهم يتجولون بين الحجاج الذين تأججت عواطفهم الدينية لدرجة دفعت البعض منهم لضرب رأسه ضد المشبك المعدني الصلب حتى أخذت دماؤه تسيل بغزارة فأسرع الحراس نحوه

واقتادوه بلطف وهدوء الى الخارج لتضميد جراحه. كذلك شاهدنا الحجاج وهم يرمون كميات كبيرة من النقود المعدنية والورقية من خلال منافذ المشبك المعدني حيث تقع بالقرب من القبر.

غادرنا ضريح الامام الرضا بعد حوالي خمس عشرة دقيقة وقد أذهلنا ما شاهدنا من عمق المشاعر الدينية لدى المسلم. في الواقع كانت تلك تجربتي الأولى التي شاهدت فيها عن كثب الاهتياج الديني لدى المسلمين وأعادت إلى ذاكرتي مشاهد المعارك الدامية التي نشبت بين المسلمين والهندوس بعد تقسيم القارة الهندية إلى دولتين هندية وباكستانية والتي شاهدت واحدة منها من شرفة الفندق الذي كنت أقيم فيه في كلكتا والضراوة التي كان يقاتل بها المسلمون أعداءهم الهندوس. وتذكرت أيضاً ما كنت أقرأه في الفيليبين عن هجمات شرسة كان يشنها مقاتلو «المورو»(*) المسلمون ضد القوات الحكومية المتفوقة عدداً وعدة بعناد وصلابة طلباً للشهادة في معاركهم ضد المسيحيين. ولكن هذا الاستعداد للموت لم أفهم دوافعه حتى رأيت الحماس الديني الذي استحوذ على حجاج ضريح الامام الرضا في مشهد. غادرنا السرداب إلى الطابق الأرضي للجامع ثم إلى الفناء الخارجي فسألت نائب المحافظ عن عدد المرات التي تفتح بها أبواب الضريح للزوار خلال شهر واحد فأجاب أن الأبواب مفتوحة كل يوم طوال النهار والليل عدا ساعتين فقط بين الثانية والرابعة صباحاً لغرض تنظيف المكان من جهة وجمع الدراهم وغيرها من الهدايا التي تكون قد تكدست بجوار القبر من جهة أخرى. وقال ان هذا الترتيب يعمل به خلال جميع فصول السنة وبصرف النظر عن حالة الجو. وأخبرنا أيضاً أن قطع الزخرفة التخريمية التي تزين القفص المشبك يصيبها التآكل والتلف نتيجة ملامستها لعشرات الألوف من الأيدي البشرية مما يضطر معه المسؤولون عن إدارة شؤون الضريح لاستبدالها بين وقت وآخر بقطع أخرى جديدة يحتفظون بها بصورة دائمة. بعد زيارتنا لمدينة مشهد شعرت اني بحاجة لزيادة معلوماتي عن الديانة الاسلامية بصورة عامة والمذهب الشيعي المسلم بصورة خاصة. فالكتب التي طالعتها

(*) «مورو» هو اختصار لجبهة تحرير جنوب الفلبين، حيث غالبية السكان من المسلمين.

والمعلومات القيمة التي اكتسبتها من السفير الباكستاني في واشنطن ـ وهو شيعي المذهب ـ خلال عدة جلسات خاصة معه رغم فائدتها الكبيرة لم تساعدني على فهم مدلول قوة المذهب الشيعي في ايران.

بعد عودتنا إلى طهران بحثت مع موظفي قسم العلاقات العامة لسفارتنا ما لدينا من معلومات عن المؤسسة الدينية ورموزها البارزين فاكتشفت أن المعلومات قليلة وساذجة وأن صلاتنا مع رجال الدين مقتصرة على اثنين من علماء الدين المعروفين بموالاتهم التامة للنظام القائم. طلبت من المسؤولين عن القسم السعي لتوسيع معلوماتنا عن المذهب الشيعي وقياداته البارزة واتجاهاتهم السياسية وأوجه نشاطهم.

قبل مغادرتنا مشهد أقام محافظ الاقليم الذي يشغل مركز نائب القيم ـ أو الأمين ـ على شؤون الضريح، حفلة غداء حضرها عدد كبير من وجهاء المدينة وكبار المسؤولين مع عقيلاتهم.

بعد الغداء عرض المحافظ شريطاً قصيراً عن عملية تهديم البيوت والفنادق والأسواق القديمة التي كانت تحيط بضريح الامام الرضا من جميع الجهات فشاهدنا عشرات الجرافات ومئات العمال يعملون بهمة ونشاط حيث تهدم الأبنية وترفع الأنقاض ويتم تسوية الأرض بسرعة فائقة حتى أصبحت فيها بعد حديقة غناء ينتصب في وسطها الجامع والضريح. كان المحافظ مزهواً بالانجاز الكبير الذي حققه رغم معارضة بعض الجهات المحافظة. بعد ذلك فاجأ المحافظ ضيوفه بالإعلان أنه سيوزع هدايا مناسبة على جميع السيدات الحاضرات. كان نصيب زوجتي علبة كبيرة من المخمل ويداخلها زوج من الأقراط وخاتم وقلادة وكلها من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة ورقاقات من الماس. أعربت زوجتي عن شكرها وتقديرها مع الاعتذار عن قبول الهدية الثمينة فأبدى المحافظ استغرابه وهو يصر على ضرورة قبول الهدية فتوجهت زوجتي بأنظارها نحوي طالبة المساعدة أمام اصرار المحافظ والحاحه. أخذت نائب المحافظ الشاب جانباً وشرحت له بايجاز أن القوانين الأمريكية تحظر على الموظفين وافراد عائلاتهم قبول أية هدية. ورجوته أن يشرح الموقف

لرئيسه. أبدى النائب تفهماً كاملاً لوجهة نظرنا ولكنه اقترح أن تستلم زوجتي الهدية في الوقت الحاضر لعدم احراج المحافظ أمام ضيوفه ثم اعادته إليه فيما بعد، وكذلك فعلنا! ولكننا اكتشفنا فيما بعد أن اعادة الهدية إلى المحافظ ليس بالأمر اليسير. بعد عدة أسابيع من الأخذ والرد والمكالمات الهاتفية والاتصالات وبعد أن اعتقدنا ان موقفنا بات مفهوماً من قبل الجميع أعدنا الهدية الثمينة مع كتاب شكر وتقدير الى السيد المحافظ ليعيده بدوره إلينا مع كتاب رقيق ولكنه يدل على اصراره السابق وهكذا لم يبق لدينا ما يمكن عمله غير ارسال الهدية إلى *وزارة خارجيتنا لوضعها مع هدايا الدولة التي تباع عادة بالمزاد العلني من قبل* دائرة الخدمات العامة. في الفترة التي كنا نحاول فيها شرح الأسباب التي تدعونا لعدم قبول هدية المحافظ لبعض المسؤولين الإيرانيين كان تعليقهم الذي سمعناه من أكثر من مسؤول هو أن الضريح غني بما يقدم له من المؤمنين من المجوهرات النادرة والسجاجيد الثمينة ومختلف القطع الذهبية بحيث لا يشكل ثمن الهدية المقدمة لزوجتي، رغم كونه يربو على عدة آلاف من الدولارات أكثر من ثمن «فنجان قهوة» بالمقارنة مع ثروة الضريح.

مع أن المدة التي قضيتها في مشهد والمناطق المجاورة كانت قصيرة نسبياً إلا أنها كانت كافية لأحس بالجو المشحون بالتوتر ومشاعر الحقد المتبادلة بين السلطة المحلية والناس. فالمحافظ قد استخف بمشاعر الناس الدينية وتحدى معارضة القيادة الدينية وأقدم على هدم منطقة واسعة حول الجامع الذي يضم ضريح الامام الرضا بما فيها من أبنية وفنادق وأسواق وبيوت وأجلى سكانها وأصحابها وحوّل المنطقة إلى حديقة لاجتذاب السواح والزوار الأجانب والسماح لهم بزيارة المقدسات الدينية. بعد أن كافأته الحكومة المركزية على انجازه الكبير وتم تعيينه نائباً للقيم على شؤون الضريح أخذ يتصرف بأموال ومجوهرات الضريح وكأنه يتصرف بماله الخاص. هذه الانتقادات والشكاوى الصادرة عن الناس من مختلف الأوساط تجعل الإنسان يشعر بالاستغراب والدهشة أن يقدم مسؤول حكومي كبير على اظهار ازدرائه واستخفافه بالقوى الدينية في البلاد ويمثل هذا الشكل السافر والطائش دون تقدير ناضج لعواقب الأمور والنفوذ الواسع الذي تتمتع به القيادات الدينية في أوساط جماهير الشعب.

في لقاءاتي مع الشاه خلال الشهور التي أعقبت زيارتي لمشهد كان الحديث يقودنا أحياناً لمواضيع دينية فنتطرق الى الإسلام في ايران ورجال الدين الشيعة وتأثيرهم على الجماهير فكنت ألمح في قسمات وجهه وثنايا حديثه ازدراءه العميق لرجال الدين الشيعة فيلصق بهم كل النعوت المهينة كالفساد والرشوة والجشع. ولكن الشاه في نفس الوقت يؤكد التزامه بتعاليم الدين الاسلامي فيؤدي الصلاة ويمتنع عن تناول الخمرة. ولا يجد تناقضاً بين كونه مسلماً ملتزماً من ناحية ومحاربته لرجال الدين من ناحية أخرى ويبرر ذلك بأن رجال الدين يقفون حجر عثرة في طريقه وجهوده في سبيل تطوير البلاد والمجتمع حفاظاً على مصالحهم الخاصة وتسلطهم على عقول الناس البسطاء. في الواقع، فإن محاربة الدولة الايرانية لنفوذ رجال الدين بدأت مع اعتلاء رضا شاه عرش ايران في العشرينات. ولكن رغم الضربات الموجعة والمتتالية التي وجهها إليهم طوال سنوات حكمه وتجريدهم من العديد من الحقوق والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها من قبل فإنه لم يستطع القضاء على نفوذهم الواسع على جماهير الشعب وخاصة في المناطق الريفية.

بعد اعتلاء ابنه العرش عام 1941 استغلت المؤسسة الدينية ضعف مركز الشاه الجديد وتمكنت من استرداد المواقع التي فقدتها في عهد أبيه. ولكن مع مرور الزمن واشتداد ساعد الشاه الشاب وشعوره بثبات مركزه وحكمه بدأ السير على خطى أبيه في طريق التصدي لنفوذ المؤسسة الدينية فحظر عليها العمل في الحقل التعليمي بصورة خاصة ولكن المحاولة باءت بالفشل بسبب المقاومة العنيفة التي واجهتها من قبل المؤسسة الدينية والأوساط الشعبية على أساس أن الإسلام دين ودنيا وكل محاولة للفصل بين الشؤون الدينية والدنيوية تعتبر خروجاً على الاسلام. عند قيام الأزمة السياسية بين الشاه والحركة الوطنية بزعامة الدكتور مصدق عام 1953 وقفت القيادة الدينية في البداية موقف التأييد لحكومة الدكتور مصدق، ولكن التأييد أخذ ينحسر تدريجياً مع ازدياد التقارب والتعاون بين حكومة مصدق وحزب تودة الشيوعي. بعد أن رحل الشاه عن بلاده الى ايطاليا وظهرت بوادر قيام تحالف بين مصدق والشيوعيين لإلغاء النظام الملكي في ايران واقامة نظام جمهوري سحبت القيادة الدينية تأييدها لمصدق

بصورة رسمية وأعلنت مطالبتها برجوع الشاه إلى عرشه.

كـان موقف الشـاه من المؤسسة الـدينية بعـد رجوعـه من المنفى وحتى نهايـة الخمسينات موقف المهادنة والـتربص. في أوائل الستينـات حاول تـوجيه ضربـة قاضية لهم عن طـريق قانـون الإصلاح الـزراعي حينما أعلنت الحكـومة تـطبيق القـانون عـلى جميع أراضي الأوقـاف التي تشرف عـلى ادارتهـا المؤسسـة الـدينيـة وتعتمـد على ايـراداتها لإدارة شؤون المسـاجـد والمـدارس الـدينيـة ومشـاريعهـا الخـيرية. لم يخف عـلى نباهـة رجال الـدين الهدف الـذي يرمي إليـه الشـاه من استيلاء الحكومة على الأراضي الـوقفية: قـطع مصدر مهم من مصـادر ايراداتهـا وبـالتالي القضـاء على استقـلالية المؤسسـة الدينيـة في تصريف شؤونها حيث لن يبقى لها من مصادر أخرى غير مبالغ «الخُمس» التي يدفعها المؤمنون الملتزمون ومـا قد يهبها الشـاه في المناسبـات الدينيـة. وهكذا قـررت القيادات الـدينية مقـاومة مشروع الشاه بكل ما أوتيت من قوة ونفوذ لدى جمـاهير الشعب. تـزعم حركـة المقاومة رجل ديني بارز في «قم» يدعى «روح الله خميني» وكان أكثر زملائـه عنفاً وتصلباً وجرأة إذ لم يقتصر هجومه على نظام الشاه بسبب مشروعه الجـديد وإنمـا اضاف إلى ذلك قضية سياسية هي منح الحكـومة جميـع أفراد البعثـة العسكريـة الأمريكية امتيازات قضائية باستثنائهم من تطبيق القوانين الايرانية فأهاج الـرأي العام بخطبه النارية وقامت مظاهرات صـاخبة في معـظم المدن الكبـيرة وخاصـة العاصمة ايران ووقعت اصطدامات دامية بين المتظاهرين وقوات الأمن سقط من جرائها العديد من القتلى والجرحى.

اعتقلت السلطات روح الله خميني (كـان في تلك الأثناء قـد نـال لقب «آيـة الله» من الهرم الديني) مع عدد آخـر من رجال الـدين ثم قررت الحكـومة بعـد فـترة قصيرة نفي الخميني إلى خـارج البلاد ووضعتـه في طائـرة أقلته الى تـركيا. ولكن الخميني لم ترقه الإقامة في تركيا فانتقل بعـد مدة لـلإقامـة في النجف وهي مدينة شيعية مقدسة في العراق.

بعد أن تخلص الشاه من متاعب الخميني اعتقد، وشـاركه في ذلك العديـد من المـراقبين الأجـانب، أنه تمكن أخيـراً من كسر شوكـة المعارضـة الدينيـة وبـات

بإمكانـه العمل بحـرية لتحقيق حلمـه وحلم أبيه من قبله، لبنـاء ايران جـديدة كـدولة عصريـة وعلمانية عـلى النمط الغربي مثلما تحقق في تـركيا عـلى يـد كـمال أتاتورك بعد الحرب العالمية الأولى، مع الاحتفاظ بالشيعية مذهباً رسمياً للدولة. أذكر على سبيل المثال أني أثناء زيارتي الـرسمية للسفـير السوفييتي للتعـارف بعد وصولي إلى طهران استفسرت في سياق الحديث عن مـدى قوة المؤسسـة الشيعية في إيـران فأجـاب انها لا تمثل قـوة سياسيـة ذات أهمية وانها في كـل الأحوال لن تكـون كذلـك بعـد أن تمكن الشـاه من التخلص من أقـوى قـادتهـا منـذ عـدة سنوات!

جميع المحاولات التي قمت بها ومعي زملائي في السفارة للتعرف على أسلوب تفكير القيادات الشيعية كانت مخيبة للأمل والشيء الوحيـد الذي عـرفناه هـو أن كبـار القادة في المؤسسـة الهرميـة الدينيـة لا يعتبرون حكـومة الـولايات المتحـدة شريكة للشاه في سيـاساتـه فحسب وإنما المحـرض الحقيقي الذي يقف بصـلابة وراءها. صلاتنا برجال الدين بقيت محدودة وغير ذات فـائدة بـالنسبة لتقـاريرنـا السياسية إذ لم نفلح بـإقامـة علاقـة مع أيـة شخصية دينيـة بارزة. وبقي الحـال كذلك إلى أن حدث وفاتحت رجل أعمال امريكي يمثل شركـة أمريكيـة كبرى في ايران منذ نحو ثلاثين سنة بما نصادفه من صعوبة في اقامة علاقـة معرفـة مع أي شخص من أركان القيادة الدينية فعرض مساعدته بـأن يرتب اجتـماعاً بـين أحد موظفي السفارة وصديق قديم له هو أحـد كبار التجـار في البازار والـذي يعمل كحلقة الوصل بين تجار البازار والقيادات الدينية. هذه العـلاقة الجـديدة كـانت الفرصة الأولى لسفارتنا لإلقـاء نظرة الى داخـل القيادة الـدينية ـ ولـو من بعيد ـ والتـوصل إلى نتف من الأخبـار والأقـوال. من تلك الأخبـار المفيـدة مثـلاً كـان اطلاعنا على رأي القيادة الدينية في أوضاعها بصورة عامة في البلاد ومدى قوتها. فلقد علمنا أن كبار الشخصيات الدينية خـلافاً لآراء الكثـيرين لا يعتقدون بـأن الشاه قد أفلح بإلحاق ضرر كبـير بهم وبمؤسساتهم إذ أنهم تمكنـوا خلال سنـوات عديدة من وضع الأسس لقيام دولـة اسلاميـة عصرية تقـوم على تعـاليم القرآن والشريعـة الإسلاميـة وأن عـدداً من المفكـرين المسلمـين وفي مقـدمتهم المفكـر الاسلامي «علي شريعتي» الذي توفي قبل سنوات قليلة مصاباً بالسرطان، لديهم

دراسات وافية ومستفيضة حول هذا الموضوع. وقد عكف عدد من موظفي سفارتنا على قراءة مؤلفات علي شريعتي وغيره من علماء الدين الشيعة للتعرف على الأفكار الدينية الشيعية والإلمام بها. كما أنهم تمكنوا من الاتصال ببعض المفكرين الإسلاميين الملتزمين الذين أنشأوا مركزاً للأبحاث الاسلامية لمواصلة دراسات شريعتي ووضع المبادىء والقواعد والقيم التي ستقوم على أساسها الدولة الإسلامية العصرية.

هذه المعلومات وأخرى غيرها كانت ذات نفع كبير لنا لفهم وإدراك الأحداث التي أخذت تنمو وتتطور من حولنا حتى تحولت إلى ثورة عارمة أثناء فترة عملي في ايران. ولكن الأمر الذي لم تتمكن علاقاتنا الجديدة من التغلب عليه أو التخفيف من حدته هي عوامل الشك والنفور التي كان يضمرها رجال الدين ومعهم الجماهير المتدينة نحو الولايات المتحدة وسفارتها في طهران. وقد تكونت في مختلف أنحاء البلاد منظمات ارهابية(*)!! عقدت العزم على القتال من أجل اعلاء كلمة الاسلام والقضاء على علمانية الشاه ونظامه. وقد كان المواطنون الأمريكيون ـ وخاصة العسكريين منهم ـ هدفاً لهجماتهم منذ البداية. فلقد اغتالوا خلال السنتين اللتين سبقتا مجيئي إلى ايران ستة منهم بالاضافة إلى عدد من المسؤولين الايرانيين أيضاً. ولم تتوقف عمليات الاغتيال أثناء فترة وجودي في طهران ولو أنها أصبحت أندر حدوثاً نتيجة عمليات القمع والملاحقة التي كان يقوم بها السافاك وقوى الأمن الأخرى.

وأخيراً لا بد من الاعتراف بأني ومعي زملائي أعضاء السفارة لم نُوفّق بتاتاً في معرفة اتجاهات ونوايا القيادة الدينية كما أننا لم نوفّق أيضاً في إزالة شعور العداء الذي كان يستحوذ على مشاعرهم نحو الولايات المتحدة. فلقد طغت رواسب سنين عديدة من الشكوك والأحقاد المتبادلة بين السفارة والإسلام على كل مساعي تلطيف جو العلاقات بيننا.

(*) اشارة التعجب من قبل الناشر. ولم ترد في الأصل.

9

«السافاك»(*)

اعتاد شاهات فارس منذ عهد كورش الكبير على استخدام أجهزة سرية تكون لهم بين جماهير الشعب بمثابة «العيون والآذان» للمحافظة على سلطة العرش ودرء الأخطار عنه. كانت تلك الأجهزة السرية كثيرة التنقل في أرجاء المملكة لاستقصاء أوضاع الرعية وهمومها الرئيسية ونقلها إلى الشاه الذي قد يجد من الضروري العمل على ازالة أسباب التذمر والاستياء ليكتسب محبة الناس وولاءهم. كما كان من واجبهم أيضاً تقصي أخبار وتصرفات كبار موظفي الشاه في الأقاليم وإطلاع الشاه عليها ليتعرف على الأكفاء بينهم والفاسدين منهم لإثابة الجيد ومعاقبة المسيء. أما الناحية الأهم في واجباتهم فهي استقصاء الميول السياسية لكبار موظفي الدولة والزعماء الدينيين ورؤساء القبائل ورفع التقارير عن الذين يخشى من خطرهم ويشك في ولائهم للعرش إذ ان أصحاب العروش يعيشون عادة في هم مقيم وهاجس مستديم خوفاً من ثورة قد تندلع فجأة أو مؤامرة تحاك ضدهم من داخل بلادهم أو من الخارج. ولا غرابة في ذلك إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأوضاع السياسية المضطربة التي كانت تسود المنطقة برمتها خلال قرون عديدة، فالخوف من مؤامرة تحاك ضدهم في بلد مجاور بالتعاون مع

(*) «السافاك». جهاز أمن الشاه السري. الذي عُرِفَ بقمعه وارهابه وبطشه وتنكيله بكل من تخول له نفسه معارضة الشاه أو توجهاته. الناشر.

بعض العناصر المناوئة لهم من أبناء شعبهم كان يقض مضاجعهم بصورة دائمة ولهذا كانت الأجهزة السرية الموكول إليها أن تكون لهم عيناً ترى وأذناً تسمع تعمل بهمة لا تعرف الكلل وباللجوء إلى كل وسيلة مشروعة وغير مشروعة من اعتقال وخطف وسجن وتعذيب لحماية العرش بحيث أصبحت مع مرور الزمن تثير الرعب والرهبة في قلوب الناس قاطبة.

ومع أن رضا شاه استخدم هو الآخر مثل هذا الجهاز السري، لكنه لم يكن يعتمد عليه اعتماداً كلياً لتثبيت دعائم حكمه ونظامه. فلقد كان نفسه مرهوباً من قبل الجميع لما كان يتمتع به من شخصية قوية طاغية بالاضافة الى حيويته ونشاطه إذ كان دائم الحركة والتنقل من مكان لآخر ليرى ويسمع بنفسه دون الاعتماد على عين وأذن جهازه السري. ثم انه كان يعتمد بالدرجة الأولى على جيشه وقواته المسلحة التي كانت موضع اعتزازه ورعايته والمخلصة له شخصياً من أجل تثبيت حكمه ومركزه. ولكن عندما هزم جيشه أمام قوات الحلفاء الغازية سنة 1941 واضطر للتنازل عن العرش لابنه لم يعد هناك ما يمنع تشكيل جهاز أمن فعال ليكون في خدمة الشاه الشاب محمد رضا. وفي الواقع فقد بدأ تشكيل الجهاز المطلوب على نطاق صغير أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية، وفي الوقت الذي كانت فيه ايران ما تزال تحت الاحتلال. بعد سقوط حكومة مصدق عام 1953 وعودة الشاه من منفاه الاختياري اكتشف الجهاز الأمني أن الاتحاد السوفييتي أقام أثناء سنوات الاحتلال جهازاً للاستخبارات داخل ايران استطاع اختراق صفوف القوات المسلحة وخاصة الضباط من ذوي الرتب العالية فطلب الشاه مساعدة أصدقائه الأمريكيين لبناء جهاز جديد للأمن القومي على أسس عصرية لمكافحة عملاء المخابرات السوفييتية (كي. جي. بي) الذين تغلغلوا في ايران على مختلف الأصعدة والمستويات.

في العام 1957 وبعد جهود ادارية وتنظيمية كبيرة قامت بها وكالة المخابرات المركزية (سي. آي. أي) وضعت الإدارة الأمريكية الأسس الضرورية لقيام هيكل الجهاز الأمني أطلق عليه الايرانيون اسم «سازمانه اطلاعتي وافيتي كشفار» أي «جهاز المخابرات والأمن العام الايراني» وأصبح يرمز له بالأحرف الأولى من الكلمات التي يتركب منها أي «سافاك».

تم تدريب المجموعة الأولى من الايرانيين الذين انخرطوا في خدمة الجهاز الجديد في الولايات المتحدة ثم تحول أمر تدريب المتنسبين الجدد فيها بعد لاسرائيل. كان تدريبهم يشتمل بالاضافة إلى واجبات الشرطة الاعتيادية طرق ووسائل مكافحة الجاسوسية والأعمال الإرهابية وتحليل أساليب وطرق المخابرات السوفييتية وخاصة اكتشاف وإبطال عمل أجهزة التجسس الالكترونية السوفييتية المتطورة.

كان جهاز السافاك في بداية قيامه جهازاً للاستخبارات ومكافحة الجاسوسية مثل أي جهاز آخر في الدول الغربية. لم يكن من السهل التوصل لمعرفة دقيقة لعدد العملاء المحترفين الذين كانوا يعملون في جهاز السافاك في ايران غير أن التقديرات القريبة من الصحة تصل لحدود ستة آلاف شخص. ولكن العدد تضخم مع مرور الزمن باضافة أعداد كبيرة من المخبرين العاديين وأولئك الأشخاص الذين يقدمون خدماتهم لقاء ربح مادي أو معنوي للتجسس على الناس حينما تتاح لهم الفرصة المناسبة.

خلال الستينات وخاصة بعد الانتفاضة الشعبية بزعامة آية الله الخميني عام 1963 ضد الشاه أصبح السافاك شيئاً آخر يختلف عما أنشىء من أجله، فتحول من جهاز للمخابرات ومكافحة الجاسوسية إلى جهاز بوليسي سياسي في الداخل بعد أن وسع الشاه مجالات نشاطه وصلاحياته أثناء تولي بختيار ذي السمعة السيئة قيادته وادارته (هو عم شاهبور بختيار آخر رئيس وزارة في العهد البهلوي) وبذلك ارتدّ السافاك إلى التقليد الفارسي القديم وممارسة جرائم القتل والتعذيب واختطاف الناس وتصفيتهم ومحو كل أثر لهم وغير ذلك من الممارسات اللاانسانية في محاولة منه لمكافحة حركات المعارضة السرية والأعمال الإرهابية.

ولم يقتصر استعمال هذه الطرق والوسائل الوحشية على فئة معينة وإنما كان يطال مختلف الفئات والطبقات كالطلاب والمثقفين والعمال ورجال الصحافة والسياسيين وغيرهم. كما تمكن هذا الجهاز الرهيب من التسلل إلى صفوف الاتحادات الطلابية والعمالية وأصحاب المهن والجامعات بشكل واسع يحصي على الناس أنفاسهم وحركاتهم. . . وأحياناً أفكارهم ونياتهم.

خلال الفترة الواقعة بين منتصف الستينات ومطلع السبعينات كانت ايران تعيش في جو من الإرهاب والاضطرابات. ومن سخرية الاقدار أن تعيش البلاد في تلك الظروف السيئة بينما يبشر الشاه الناس بثورته البيضاء التي كانت بلا شك محاولة مخلصة منه أراد بها اخراج بلاده من دوامة أمراض بلاد فارس القديمة أي الفقر والجهل والمرض والمجاعات.

في حوالي منتصف السبعينات كان السافاك قد تمكن فعلاً من القضاء على الارهاب والارهابيين بنسبة غير محدودة. ولما كان الشاه شديد الحرص على تحسين صورته ونظام حكمه في الخارج وخاصة بعد نجاح الرئيس كارتر في الانتخابات الرئاسية للولايات المتحدة من ناحية والضغوط التي كانت تمارسه زوجته «شاهبانو» لوضع حد لممارسات السافاك الوحشية من ناحية أخرى بدأت يد السافاك الثقيلة ترتفع عن صدور الناس تدريجياً ولم يثبت بعد ذلك وقوع انتهاكات لحقوق الإنسان على نطاق كبير. ولكن السافاك لم يستطع بعد ذلك التخلص من السمعة السيئة والرهيبة التي جناها لنفسه في داخل إيران وخارجها معاً. قرار الرئيس كارتر بالإبقاء على الروابط بين السافاك ووكالة المخابرات المركزية كان ضرورة أمنية بالنسبة للولايات المتحدة ولذلك لم يكن بوسعه التغاضي عنها رغم سمعة السافاك الرديئة. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة لم تتورط قط مع السافاك في نشاطه البوليسي كما زعمت بعض الجهات المغرضة(*)!!. والشيء المؤسف أن التراث الفارسي المتسم بالعنف والقسوة تغلب على الإيرانيين المعاصرين بحيث تمكنوا خلال فترة قصيرة من ابتكار وسائل عصرية لإحياء ذلك التراث من جديد وتطبيقه وهو ما أثبتته مرة أخرى أحداث ما بعد الثورة.

المعلومات المتبادلة بين وكالة المخابرات المركزية ومنظمة سافاك كانت مقتصرة على المعلومات التي لها علاقة بنشاط السوفييت والدول الدائرة في فلكها.

من أجل زيادة الاطلاع على هذه الناحية من اهتماماتنا في ايران التقيت قبل مغادرتي واشنطن بعدد من المسؤولين في مقر وكالة المخابرات المركزية وحصلت

(*) اشارة التعجب من قبل الناشر.

على معلومات كافية عن أوجه نشاط الوكالة في ايران. وفي طهـران اجتمعت مع المسؤول الأمريكي الاقليمي للوكالـة في المنطقـة لزيـادة الاطلاع عـلى معلومات مفيـدة أخرى عن طبيعـة نشاطهم في ايـران. وأخيراً التقيت الجنـرال «نصيري» لأتعرف عليه شخصياً بعد أن سمعت عنه أخباراً ومعلومات متناقضـة. فقيل لي مثلاً أنه الرجل الذي اختاره الشـاه لتسليم الدكتـور مصدق عـام 1953 مرسـوم اقالته عن رئاسة الـوزارة فقوبـل من مصدق بـالرفض واعتقله. وسمعت أيضـاً قصة تغلبه عـلى ارهابي مسلح حـاول اختطاف الـطائرة التي كـان نصيري أحـد ركابها وجرّده من سلاحه. وتروى عنه حكايات كثيرة حول ادارته لجهاز السافاك بيد حديدية.

استقبلني «نصـيري» في دارة عصرية فخمـة تقع وسط حـديقـة غنـاء واسعـة بديعة الـترتيب والتنسيق توحي بـالسكينة والهـدوء والارتياح. وبلغني أنها معـدة لاستضافة ضيـوف السافـاك وخاصـة كبار المسؤولـين الاسرائيليين الـذين كانـوا يكثرون التردد على طهران فيأتون ويذهبون بهدوء بعيداً عن عيون الفضوليين.

كان «نصيري» رجلاً ضخم البنية تدل حركاته عـلى صحة جيـدة رغم بلوغه السبعين عاماً. كما يوحي مظهره وسلوكه عـلى أنه شخص اعتـاد السلطة والحياة المرفهة. ومع أنه لم يكن متعجرفاً بالمعنى الدقيق إلا أن الجو العام الذي أحاط به نفسه وشيئاً ما فيه أغراني بالتندر عليه والسخـرية منـه فسألتـه في بدايـة حديثنـا الـذي كان يـدور عـبر مـترجم في مقتبـل العمـر عـما إذا كـان اطّلع عـلى قصـة «الارتطام 79» وهي قصة تـدور حوادثهـا في ايران أشـير إليه في سيـاق الحوادث عدة مرات واصفة الاسم المستعار لـه في الروايـة بأكـثر الأوصاف قبحـاً وازدراء وشناعة. ارتبـك المترجم الشـاب عند سماعه سؤالي مما دلني على اطـلاعه عـلى القصة بينما قال نصيري أنه لم يطلع عليها من قبل، ولكنه خلال الحـديث الذي دار بيننـا بعد ذلـك كان يعـود المرة تلو الأخـرى لحـديث القصـة مستفسـراً عن حـوادثها إلى أن اضـطررت في نهاية الاجتـماع للوعد بـارسال نسخـة من القصة حالما تصلني من الـولايات المتحـدة. وقد أوفيت بـوعدي بعـد مدة ثم استلمت تأكيداً منه على وصولها إليـه، وانتهى الأمر عنـد ذلك الحـد ولم نتطرق لـموضوع القصة مرة أخرى في لقاءاتنا التالية.

بعد مدة أعفي الجنرال نصيري من منصبه وأرسل سفيراً لبلاده في باكستان وجاء في مكانه الجنرال «مقدم» وهو ضابط حسن الاطلاع والثقافة كان مديراً للمخابرات العسكرية في الجيش. بعد نجاح الثورة نفذ حكم الاعدام بكليهما. وقد تعرض الجنرال «نصيري» قبل محاكمته للضرب المبرح بدرجة تحطمت معها قصبته الهوائية ولن أنسى منظره يوم عرضوه على الشاشة المرئية والدم ينضح من الضمادات حول رأسه وكلماته تكاد لا تسمع ولا تفهم بسبب قصبته المحطمة.

المعلومات التي كان يقدمها السافاك لوكالة المخابرات المركزية الامريكية لم تكن غالباً من المستوى الجيد مهنياً ولذلك كان المحللون في واشنطن لا يعيرونها اهتماماً كبيراً أو يحملونها على محمل الجد، وهذا ما حدث ومع الأسف في موضوع أفغانستان. فلقد دأب الإيرانيون على مدى أشهر عديدة يحذرون ويكررون التحذير من مؤامرة شيوعية واسعة النطاق تحاك خيوطها للإطاحة بحكومة كابول المحايدة. واستمرت تحذيراتهم تتوالى طيلة الأشهر الأولى من عام 1978 ولكن معلومات مراقبينا في كابول وخبرائنا في واشنطن كانت تتعارض وتنفي تلك المعلومات الإيرانية. وأخيراً، وبعد فوات الأوان، اضطروا للاعتراف بأن المعلومات الايرانية كانت أفضل وأكثر دقة من معلوماتهم.

بصرف النظر عن نوعية المعلومات وقيمتها بالنسبة للولايات المتحدة فإن التعاون في ميدان المخابرات مع ايران كان له ما يبرره من وجهة نظر واشنطن إذ كان لدينا في الأراضي الإيرانية موقعان على جانب كبير من الأهمية للرصد والتصنت على كل نشاط الكتروني سوفييتي في مواقع اطلاق الصواريخ عابرة القارات الموجودة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية بالاضافة إلى ما تتيحه لنا من إمكان رصد التحركات العسكرية في منطقة الخليج.

كانت الأجهزة المستعملة لهذا الغرض تتكون من هوائيات عادية مع أجهزة للتسجيل شديدة الحساسية يديرها فنيون مدنيون يعيشون في منطقة قاحلة قفراء منعزلين عن العالم ولكن التقارير الفنية التي كانوا يعدونها كانت من أفضل الاستخبارات العسكرية وأكثرها دقة بين جميع مواقع الرصد الأخرى التي نملكها في شتى بقاع العالم ضد الخطر السوفييتي.

10

التجار والطلاب والنفط

كانت الأسواق التقليدية الايرانية (البازار) من الظواهر المحلية المثيرة بالنسبة للزائر الأجنبي كما كانت في نفس الوقت بمثابة العمود الفقري للاقتصاد والحركة التجارية في البلاد على مدى قرون عديدة. في زيارتي الأولى لإيران قبل سنوات عديدة تجولت في سوق «شميران» شمالي طهران وأذهلني ما شاهدت في دكاكينها وأكشاكها الصغيرة من كميات كبيرة من مختلف البضائع والأجهزة المستوردة من شتى بقاع الأرض مما يستدل معه على أن النظام التجاري الذي يستطيع استيراد كل هذه البضائع على اختلاف مصادرها لا بد أن يكون نظاماً لديه الكفاءة والقدرة والوسائل المتطورة.

في جميع الكتب التي طالعتها عن ايران كنت أجد أن الأسواق التقليدية كان لها دور متميز وفعال في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وتطورها في تاريخ ايران. فقد كانت دائماً بؤرة للمؤامرات السياسية ومؤسسة مالية ضخمة ومركزاً للإصلاحات الاجتماعية والممول الأساسي لبناء الجوامع في مختلف أنحاء البلاد، وان علاقات متينة من الثقة والمنافع المتبادلة تربط بين هذه الأسواق والقيادات الدينية الشيعية.

معرفتي هذه بدور الأسواق التقليدية في مجرى الحوادث في ايران جعلتني أشعر بخيبة أمل كبيرة عندما اكتشفت بعد استلام مهام وظيفتي الدبلوماسية في ايران مدى تقصير سفارتنا في اقامة علاقات متينة وواسعة مع الشخصيات

التجارية البارزة في السوق وخاصة لما كنت أعلمه أن العلاقات كانت في وقت من الأوقات حسنة ووطيدة. فلقد تباهى «كيم روزفلت» مدير وكالة المخابرات المركزية الاقليمي في طهران سابقاً بحضوري يوماً ما عن علاقاته الممتازة بكبار التجار في الأسواق وكيف تمكن من تحريضهم واتباعهم للتصدي للشيوعية وحكومة مصدق عام 1953 فخرجت المظاهرات الحاشدة ووقعت اصطدامات دموية بين مؤيدي حكومة الجبهة الوطنية والجماهير التي حشدها التجار لمصلحة محمد رضا شاه الغائب عن بلاده. ولكن الوضع قد تغير الآن ولم يبق من تلك العلاقات السابقة شيء. فالتجار الكبار تركوا السوق مع وثبة الرخاء المالي في البلاد واتجهوا إلى ميادين أخرى للعمل وأصبح كثير منهم من رجال الصناعة الناجحين وانقطعت صلتهم بالأسواق وأهلها ولم تستطع سفارتنا اقامة مثل تلك العلاقات الحميمة مع كبار التجار الجدد.

في أول رحلة لنا خارج طهران سافرنا إلى تبريز عاصمة اقليم أذربيجان وكانت سوقها القديمة بطبيعة الحال في رأس قائمتنا لزيارة المعالم التي تستحق المشاهدة في المدينة. وكما هو الحال مع بقية أسواق إيران كان سوق تبريز عامراً بشتى أنواع البضائع وحركة البيع والشراء على قدم وساق. ولكن الشيء الذي أثار انتباهنا هو أن القسم الأكبر من التجار كانوا من الطائفة الأرمنية الذين كانوا يقابلوننا بوجوه باسمة وترحيب كبير. من هناك سافرنا إلى مدينة مشهد المقدسة. السوق في مشهد بناء عصري حديث على طراز الأسواق التقليدية بني حديثاً لنقل تجار السوق العتيقة التي كانت مجاورة لضريح الامام الرضا بعد أن هدمت السلطات السوق وجميع الأبنية القديمة المحيطة بالضريح وأنشىء مكانها حديقة عامة. وبينما مرت زيارتنا لسوق تبريز في جو من الانشراح والاستقبال الودي من قبل التجار والناس الذين صادف وجودهم داخل السوق، كان الجو في سوق مشهد مكفهراً ومتوتراً وعدائياً. فلقد تمت الزيارة تحت حماية رجال الأمن والشرطة والناس يتفرقون ويختفون عن الأنظار عند رؤيتنا ولا يبقى في المكان غير أصحاب الدكاكين ينظرون إلينا بوجوه متجهمة ونظرات عدائية. ومع أني لم أفهم في حينه سبب ذلك إلا أني فسرته بأنه قد يكون بسبب عدائهم لنظام الشاه والمحافظ الذي يمثله في الاقليم نظراً لسوء ادارته وسياسة القبضة

الحديدية التي يمارسها في ادارة شؤون الاقليم. ومهما كان السبب الحقيقي فالذي شاهدته هناك يدل على حقدهم وكرههم للأجانب عامة والأمريكيين خاصة.

بعد رجوعنا إلى طهران حدثت زملائي في السفارة بمشاهداتي وانطباعاتي عن الرحلة فعلق ضابط من السفارة على زيارة الأسواق بأنها مخاطرة غير ضرورية إذ أن ازدحامها بالناس يجعل حوادث الاغتيال يسيرة كما أن رجال الأمن لا يستطيعون توفير حماية مضمونة، الأمر الذي جعل السلطات تخلي السوق من الناس إذا ما أصر زائر رسمي على زيارتها. ومع أن هذا التحذير لم يثنني عن رغبتي بزيارة أسواق شيراز وأصفهان ولذلك لم أخبره عن نيتي بزيارات أخرى في المستقبل. ولكن عندما زرت هاتين المدينتين بعد مرور عدة أشهر على سفرتي الأولى لم أستطع زيارة أسواقها للمشكلة الأمنية التي أثارتها السلطة المحلية في وجهي فطلبت من بعض المسؤولين في سفارتي بعد عودتي إلى طهران مضاعفة الجهد لجمع مزيد من المعلومات عن الأسواق بصورة عامة وسوق طهران خاصة ودوره في التحريض على المظاهرات الصاخبة التي تجتاح شوارع العاصمة بين حين وآخر والأهداف السياسية الكامنة وراءها. ولكن جهود زملائي تعثرت هي الأخرى وباءت بالفشل بسبب إحجام التجار عن اقامة أية صلة بالأمريكيين ولست أدري إن كان ذلك بدافع كراهية خاصة يشعرون بها نحو أمريكا أو خوفاً من عيون السافاك المبثوثة في كل مكان.

وما كان بوسعي طبعاً معرفة أسباب هذا الجفاء وروح العداء التي يضمرها كثير من الإيرانيين نحو الولايات المتحدة إذ لم يتمكن أحد منا طيلة مدة عملي في ايران من اقامة علاقة مع واحد أو أكثر من تجار السوق البارزين وبالتالي عجزنا عن فهم العوامل والدوافع والغايات والأهداف لما كان يجري حولنا خلال الأشهر الأولى من 1978.

بعد هذا أود التطرق بايجاز لموضوع النفط ودوره في تاريخ ايران المعاصر. والنفط كان منذ أوائل القرن العشرين، وما يزال، وسيبقى مدة أخرى طويلة في المستقبل يشكل عصب الحياة بالنسبة لإيران.

تقع حقول النفط المهمة في اقليم خوزستـان الممتد بمحـاذاة شواطىء الخليـج وخاصة في المناطق الشمالية منه. والبريطانيـون هم أول من اكتشف وجود النفط بكميات ضخمة في ايران في مطلع القرن العشرين. كانت البحرية البريطانية في بداية الحرب العالمية الأولى وقبلها بفترة قصيرة قد بدأت تحول محركات سفنها من استعـمال الفحم إلى استعـمال النفط وهـو مـا جعـل النفط الايـراني ذا أهميـة استراتيجية كبيرة بالنسبة لبريطانيا وقد يكون عاملاً دفعهـا لاحتلال ايـران خلال سنـوات الحرب. منـذ أن بدأت الشركـات البريـطانية بـاستغلال حقـول النفط الايـرانية في بـداية العشرينـات من القـرن الحـالي وحتى الخمسينـات لم تتـوقف الخلافات الحادة بين الايـرانيين وبـريطانيـا. فالايـرانيون يتـذمرون ويشتكـون ـ والحق معهم ـ من استنزاف بريطانيا لمصادر ثروتهم الوطنية لقاء عائـدات تافهـة تدفعها الشركة البريـطانية لهم. واستمـرت الخلافـات بين الـدولتين تشتـد حيناً وتهدأ حيناً آخر حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية فتحـولت عام 1951-1952 إلى مجابهة حقيقية عندما قررت حكومة الدكتور مصدق تأميم صناعة النفط فقاطعت بريطانيا ومعها «كارتل» شركات النفط العالمية النفط الايراني وتمكنت من إصـابة الاقتصـاد الايراني بـالشلل الكامـل. في تلك الظروف المتـأزمة هـرب الشاه إلى ايـطاليا ولم يـرجع إلى عـرشه إلا بعـد نجاح الانقـلاب العسكـري الـذي قـاده الجنرال زاهدي ضد حكومة مصدق عام 1953.

في تلك الأثناء عرضت حكـومة الـولايات المتحـدة وساطتهـا من أجل تحقيق تسوية عادلة تضمن مصالح الـطرفين المتنـازعين ومعـاودة تصديـر النفط الايراني إلى أسواقه العالمية. أقرت التسوية التي تم التوصل إليها بالحق الايراني للسيطرة على مصادر ثـروتها النفـطية وكـذلك حقهـا القانـوني كدولـة ذات سيادة بتـأميم الصناعة النفطية في بلادها. كما أقرت أيضاً تشكيل جمعية من الشركات المنتفعـة تعمـل بصفـة وكيـل عن شركـة النفط الايـرانيـة الـوطنيـة في مجـالات التنقيب والاستثمار والبيع واتخـذت لندن مقـراً لإدارة أعمالهـا وكان الأمـريكيون يشكلون غالبية أعضاء الجمعية لأسباب سياسية.

خلال السنوات القليلة التي أعقبت التسوية كـانت المبيعات الـدولية وتـوزيع المنتجات النفطية الايرانية تتم عن طريق الجمعية ولكن بعد مـرور سنوات قليلة

جرت مفاوضات جديدة بشأن الاتفاقية الأولى التي مهّدت الطريق لشركة النفط الوطنية للدخول تدريجياً في صفقات البيع وعمليات توزيع المنتجات في الخارج. ومع ذلك فإن نظرة الايرانيين الى العلاقات القائمة بينهم وبين تلك الجمعية لم تتغير وإنما استمرت كما كانت دائماً، صراعاً غير متكافىء بين عملاق مفتول العضلات (أي الأجانب) وقزم ضعيف (أي ايران) ولهذا فإن مشاعر الشك والكراهية نحو الأجانب بقيت عميقة في نفوس الايرانيين حتى بعد أن تغيرت الأوضاع بقيام منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) وبقيت النظرة للقضايا المتعلقة بالنفط وكأنها قضية صراع متواصل مع الغرب.

تحقيقاً لطموحات الشاه السياسية ومشاريعه الاقتصادية بدأت ايران في مطلع السبعينات تطبيق سياسة نفطية جديدة تهدف لتنويع صادرات ايران النفطية بزيادة وتوسيع عمليات التكرير من ناحية واقامة صناعات بتروكيميائية من الناحية الأخرى بدل الاكتفاء بتصدير النفط الخام فقط. كان معمل تكرير عبادان الذي بناه الانكليز في العشرينات من القرن الحالي والذي جرى توسيعه فيما بعد من قبل شركات أمريكية، يعتبر أكبر معمل لتكرير النفط الخام في العالم بطاقة انتاجية حوالي 700 ألف برميل يومياً يستهلك الجزء الأكبر منه محلياً ويصدر الجزء الباقي الى بعض الدول الخليجية القريبة من ايران. بعد ذلك أنشئت معامل أخرى أحدها في جنوبي طهران وآخر في تبريز وثالث في أصفهان. وقد ساعدت المعامل الجديدة على زيادة الانتاج وتحسين نوعه لمواجهة الزيادة في الاستهلاك المحلي مع ازدياد عدد السيارات وانتشار المصانع وخاصة بعد الازدهار الاقتصادي في البلاد وبعد ارتفاع أسعار النفط في الأسواق العالمية.

فيما يتعلق بانشاء صناعة بتروكيميائية في ايران فعلى الرغم من اهتمام الشاه بالمشروع والاغراءات التي قدمها للشركات الاجنبية إلا أن استجابة الشركات المختصة لم تكن مشجعة بسبب المنافسة التجارية القوية وكثرة المنتجات البتروكيميائية في الأسواق العالمية. أخيراً وافقت شركة أمريكية واحدة هي شركة «دي پون» على المساهمة مع القطاع الخاص وأنشىء مصنع متوسط الحجم لإنتاج مادة «البوليستر» غير أن المشروع لم يكن ناجحاً. مع ذلك فإن إحجام

الشركات الأمريكية لم يمنع من اشتراك عدد منها مع رؤوس أموال ايرانية لإقامة مصانع مختلفة لتصنيع انتاج مصانع التكرير بصفة مقاولين. المستثمر المهم في ميدان الصناعات البتروكيميائية الذي أخذ على عاتقه بناء مجمع بتروكيميائي ضخم في ايران هي شركة «ميتسوئي» اليابانية وأغلب الظن أنها فعلت ذلك بسبب اعتماد اليابان بدرجة كبيرة على نفط الخليج. وقد يصبح المشروع مثمراً بالنسبة لليابان على المدى الطويل ولكنه لا يعتبر مجدياً اقتصادياً على المدى القصير.

قمت بجولة واسعة على المنشآت النفطية في ايران لزيادة الاطلاع على هذه الناحية الاقتصادية المهمة في ايران وبدأت جولتي بزيارة الأهواز وعبادان وجزيرة «خرج» في عبادان. دهشت لضخامة مصنع التكرير وخاصة بعد أن علمت أن ادارته ايرانية صرفة في جميع أقسامه، إذ لم يكن هناك أثناء زيارتي غير 12 شخصاً أجنبياً يعملون جميعهم في معهد التعليم المهني التابع لمصنع التكرير بصفة معلمين ومدربين.

مع أن معمل تكرير عبادان كان الأضخم من نوعه في العالم، إلا أنه لم يكن يعتبر من أحدثها تطوراً بسبب قدمه وقدم آلاته وأجهزته. الشيء الوحيد الذي جرى تجديده في المصنع مؤخراً هو جهاز متطور للتقطير. وعلى كل حال كان يعمل وينتج بصورة منتظمة خلافاً لتوقعات البريطانيين عندما غادروا ايران عام 1951 من فشل الايرانيين وعجزهم عن تشغيل هذا المعمل الضخم وادارته. فلقد استولى الايرانيون على المشروع بكامله بما في ذلك الدارات الفخمة الواقعة على ضفاف شط العرب وسار كل شيء على ما يرام.

أما في الأهواز فقد كان الوضع مختلفاً عندما زرت شركة التجهيزات النفطية حيث وجدت الجو أمريكياً أكثر منه ايرانياً. فالخبراء والفنيون الأمريكيون هم الذين يؤدون أعمال الشركة رغم وجود نظرائهم الايرانيين وقد استرعى انتباهي ما لاحظته من جو التفاهم وروابط الزمالة والصداقة السائدة بين الأمريكيين والايرانيين، فالتقنيون كانوا يمثلون عامة الشعب الأمريكي ببساطتهم وطيبة قلوبهم ومن أولئك الذين أصبحوا خبراء في اختصاصاتهم ومهنهم عبر سنوات

طويلة من العمل الشاق المرهق في مناطق وتحت ظروف قاسية في حقول النفط في مختلف مناطق الخليج. رجال أشداء ميولهم متواضعة ومسراتهم بسيطة وعلاقاتهم بالآخرين شعبية لا تكلف فيها ولا استعلاء ولا تصنع وبذلك كسبوا ثقة رؤسائهم ومودة زملائهم وأقرانهم. ولقد حقق أولئك الرجال في الصحارى والمستنقعات ومياه الخليج الضحلة انجازات هندسية رائعة بلغ بعضها حد الإعجاز.

لم تكن مصادر النفط في ايران في بادىء الأمر بحاجة للضخ من تحت سطح الأرض نظراً لقوة الضغط التي تتعرض له في داخل الأرض ولذلك كان يكفي انزال اسطوانة المثقاب عدة أمتار في الأرض حتى يتدفق النفط الخام بقوة شديدة، ولكن، مع مرور الزمن واستمرار استغلال الآبار بكميات كبيرة أخذت قوة الضغط تضعف تدريجياً مما جعل من الضروري اللجوء إلى طريقة ضخ الغاز المفصول أثناء استخراج النفط الخام من البئر وهي طريقة تطبق عادة بقصد اطالة عمر آبار النفط.

جزيرة خرج مهيأة بمنشآتها الحديثة وخزاناتها وأرصفتها العديدة لتخزين النفط المعد للتصدير أولاً ومن ثم شحنه بواسطة ناقلات النفط التي تقصدها يومياً إلى الأسواق العالمية ثانياً. فالنفط المستخرج من الآبار الواقعة في المناطق الجنوبية الغربية والقريبة من ساحل الخليج يتم ضخه في أنابيب تصلها بجزيرة خرج ليصب في خزانات ضخمة أقيمت فوق أماكن مرتفعة وعندما يراد ملأ مستودعات ناقلة نفط ترسو بجانب الرصيف يكفي أن تفتح الصمامات لينساب النفط من الخزان المقام فوق الجزيرة إلى مستودع الناقلة بفعل الجاذبية. عملية اقتصادية وسريعة لا يحتاج تنفيذها غير عدد قليل من الأيدي العاملة.

في العام 1977 بلغ انتاج ايران من النفط الخام حوالي 6,2 مليون برميل في اليوم ولكن الانتاج الفعلي كان يبلغ حوالي 5,8 مليون برميل في اليوم يقدر ما يصدر منه إلى الأسواق العالمية 5 ملايين برميل يومياً وهذا ما جعل إيران تحتل المركز الثاني بين الدول المصدرة للنفط بعد السعودية وبلغت ايراداتها من تصدير النفط لنفس السنة حوالي 24 بليون دولار. هذا ويشكل النفط المصدر الرئيسي

للدخل القومي ويوفر ما تحتاجه البلاد من العملات الصعبة. ونظراً لانخفاض الانتاج، الزراعي بصورة ملموسة بسبب تركيز الدولة على المشاريع الصناعية فإن ايرادات النفط كانت توفر للبلاد ما تحتاجه من العملة الأجنبية لتسديد التكاليف الباهظة لاستيراد المواد الغذائية الأساسية من الخارج. فلقد أدى تدهور الزراعة لأن تصبح ايران من أهم مستوردي الأرز من الولايات المتحدة بعد أن كان انتاجها يفوق حاجتها للاستهلاك المحلي. بالإضافة إلى ذلك أصبحت تستورد القمح والذرة من الولايات المتحدة والأغنام الحية من استراليا ونيوزيلانده واللحوم المجمدة من أقطار أوروبا الشرقية حيث كانت طائرات النقل الضخمة تصل كل يوم محملة باللحوم إلى مطارات طهران وغيرها من المدن الكبيرة.

وإذا كانت الدولارات النفطية قد أمنت للبلاد ما تحتاجه من طعام وغذاء فإنها استطاعت في نفس الوقت توفير الأموال اللازمة لتحقيق احدى طموحات الشاه بجعل ايران أقوى دولة عسكرية في المنطقة فأخذت قوائم مشترياته العسكرية من الولايات المتحدة تتطور وتتضخم سنة بعد أخرى طالباً المزيد من أحدث ما تنتجه الصناعة الحربية الأمريكية من أسلحة ومعدات وطائرات.

كان على رأس المؤسسة النفطية الايرانية أثناء مدة خدمتي رجل درس الصيدلة في فرنسا ومتزوج من سيدة فرنسية قاده حسن طالعه يوماً ما ليكون قريباً من المكان الذي جرت فيه محاولة اغتيال الشاه فاستدعي لإجراء عملية سريعة لاستخراج رصاصة استقرت في كتف الشاه قبل أن ينقل إلى المستشفى. وهكذا أصبح الصيدلي بسبب عملية استخراج الرصاصة ودراسته في الغرب وولائه للعائلة المالكة على رأس أهم مؤسسة اقتصادية في البلاد أي شركة النفط الوطنية. ومع أنه كان يتمتع بالذكاء والفطنة إلا أنه لم يكن ملماً إلماماً جيداً بقضايا النفط ومشاكله الفنية والاقتصادية والسياسية. أما الآخرون الذين يحتلون مراكز متوسطة الدرجة في المنشآت النفطية والذين تعرفت عليهم عن طريق الملحق في سفارتنا للشؤون النفطية فإنهم كانوا على درجة طيبة من العلم والكفاءة والخبرة حيث كان معظمهم من خريجي الجامعات البريطانية أو الأمريكية ومن موظفي شركة النفط الانكلو ايرانية سابقاً.

كانت شركة النفط الوطنية تعمل شبه مستقلة عن باقي المؤسسات الحكومية حيث كان الشاه يشرف على شؤونها مباشرة ويعقد من أجل ذلك اجتماعات منتظمة مع مدير الشركة ورئيس مجلس ادارتها.

نظراً لأهمية النفط الايراني بالنسبة للولايات المتحدة فقد بقيت طيلة مدة بعثتي في ايران أراقب عن كثب ما يطرأ من أحداث في هذا الميدان سواء كان متعلقاً بالانتاج أو الأوضاع الأمنية أو السياسية وقد ساعدني ذلك الاهتمام فيما بعد على إدراك ما يجري في المنشآت النفطية عندما بدأت الاضطرابات والمظاهرات تتحول إلى ثورة شعبية عارمة أدت في النهاية إلى سقوط النظام برمته.

الناحية الأخرى التي أردت الاطلاع على أوضاعها منذ مباشرتي مهام عملي كسفير هي الجامعات الايرانية. كانت جامعة طهران أول جامعة ايرانية تأسست في عهد رضا شاه على نمط الجامعات الفرنسية وهو أحد المشاريع الحضارية التي أولاها في حينه بالغ اهتمامه ورعايته تحقيقاً لطموحاته الرامية إلى إرساء القواعد الصحيحة لتحويل ايران التقليدية القديمة الى دولة عصرية تحتل مركزها اللائق بين الأمم الراقية. وبما أن جامعة طهران قد أنشئت بالتعاون مع الحكومة الفرنسية فلم يكن من الغريب أن تقوم على أسس النظام الجامعي الفرنسي وبمساعدة أساتذة فرنسيين. ومع أن عدد الأساتذة الفرنسيين أخذ بالتناقص مع مرور الزمن وحلول الأكاديميين الايرانيين محلهم إلا أن نظام العمل فيها استمر بصورة عامة متأثراً بالتقاليد الجامعية الفرنسية.

إن استعانة ايران الحديثة بدولة أوروبية لتأسيس جامعتها العصرية الأولى يعتبر من المفارقات الغريبة في حياة الأمم والأفراد لأن الوضع كان معكوساً قبل عدة قرون حين كان العلماء الغربيون يتكبدون مشقة السفر إلى بلاد فارس بقصد الاطلاع على نظام جامعة همدان التي أسسها ابن سينا بعد أن اشتهر أمرها في الأوساط العلمية في أوروبا ومن ثم أصبح نفس ذلك النظام النموذج والأساس للجامعات الغربية فيما بعد. على كل، عدة قرون من الجهل والانحطاط خيمت على بلاد فارس والمنطقة بعد ذلك جعلت مسألة بناء جامعات عصرية في ايران أمراً ضرورياً وحاجة ملحة إذا ما أريد للدولة الايرانية

الجديدة أن تتطور وتتقدم لتصبح في مصاف الدول المتقدمة.

خلال السنوات التي تلت تلك الحرب العالمية الثانية توسعت مجالات التعاون والتقارب بين ايران والولايات المتحدة بدرجة كبيرة وشملت ضمن ميادين عديدة الميدان الجامعي وأخذت ايران تقترب من نظام الجامعات الأمريكية وخاصة في الجامعات الجديدة التي أنشئت في كل من تبريز وأصفهان وكرمان وشيراز وأخيراً الجامعة الجديدة التي بنيت قريباً من مدينة مشهد حيث كان الشاعر الفارسي «الفردوسي» الملقب بمؤرخ شاهات فارس يلقي الدروس على تلامذته. جميع هذه الجامعات الجديدة تم انشاؤها بمساعدة الولايات المتحدة خلال السنوات التي كنا نقدم فيها لإيران مساعدات اقتصادية وهذا ما جعلها على اتصال وثيق بالولايات المتحدة في مجالات التعاون الأكاديمي. ومع أن الجامعات كانت تطبق النظام الأكاديمي الأمريكي إلا أنها كانت تخضع رسمياً لإشراف جامعة طهران ووزارة التربية والتعليم المتحيزة للنظام الأكاديمي الفرنسي. الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كانت جامعة بهلوي في شيراز التي أنشئت بالتعاون مع جامعة بنسلفانيا وكانت اللغة الانكليزية لغة التدريس.

ونظراً لهذه العلاقات الواسعة بين الجامعات الأمريكية والجامعات الايرانية كنت أزور هذه الجامعات وألتقي برؤسائها وهيئات التدريس فيها من أجل توطيد العلاقات وتوسيع مجالاتها. ومع أن زياراتي كانت تلقى من المسؤولين في الجامعة بالحفاوة والترحيب إلا أني كنت ألاحظ أنهم يحولون بمزيد من الكياسة واللباقة دون اقترابي من الطلاب كما كنت ألاحظ أحياناً في بعضها آثار أضرار مادية في الأبنية مثل بعض النوافذ التي تحطم زجاجها ولم يتم تصليحها بعد أو أكداساً من الأثاث المحطم استنتج معها بطبيعة الحال وقوع أعمال عنف داخل حرم الجامعة. ومع أن التفسير الذي كنت أسمعه من الذين أبحث معهم أوضاع الجامعات والذي يقول ان معاهد التعليم في ايران كانت على الدوام مسرحاً نشطاً للاتجاهات السياسية المتباينة إلا أنني لم أقتنع كثيراً بهذا التفسير المبسط واعتبرته لا يعبر عن حقيقة ما يجري داخل الجامعات من حوادث وصدامات. في جامعة طهران مثلاً لم أتمكن مطلقاً من التحرك داخل حرم الجامعة أكثر من أمتار قليلة كما أن رئيس الجامعة وأساتذتها كانوا يستقبلونني دائماً في بناية

تطل على شارع عريض تتفرع منه شوارع جانبية تؤدي إلى اتجاهات مختلفة.

في حديث جرى بيني وبين عدد من الأساتذة الأمريكيين المحاضرين في جامعة طهران تطرقنا لموضوع الطلاب والاضطرابات وأعمال الشغب التي يقومون بها في جامعاتهم واستفسرت عن آرائهم وانطباعاتهم عما يجري. ولكن هؤلاء الأساتذة القادمين من مختلف الجامعات الأمريكية قد سبق لهم تجربة مماثلة في الولايات المتحدة أثناء الاحتجاجات الطلابية المصحوبة بأعمال العنف والتخريب ضد حرب فيتنام ولذلك لم يكونوا مندهشين أو مستائين مما يحدث الآن في الجامعات الإيرانية مع تأكيدهم بأنهم يعاملون من قبل طلابهم بكل احترام وتقدير بصرف النظر عن ميولهم السياسية وأن احتجاجهم موجه ضد الشاه ونظامه السياسي الذي يتهمونه باضطهاد الشعب وقهره وحرمانه من حقوقه الأساسية. في زياراتي التالية لعدد من الجامعات الأخرى خارج طهران كنت أسمع كلاماً مشابهاً من موظفي القنصليات والإعلام الذين كنت أتحدث معهم في نفس الموضوع حيث أجمعوا على القول بأن ما يقع في الجامعات من بعض حوادث الشغب لا يعتبرونه حدثاً غريباً بعد أن باتت الاحتجاجات الطلابية حول ما يجري في بلادهم ظاهرة عامة في غالبية جامعات العالم المتمدن. والشيء نفسه أيضاً كنت أسمعه لدى زياراتي لجمعيات الصداقة الأمريكية الايرانية.

تكونت هذه الجمعيات في المدن الجامعية بجهود موظفي مكاتب الاعلام الأمريكي بالتعاون مع بعض الايرانيين بهدف تقوية أواصر الصداقة والتفاهم بين البلدين وتوسيع آفاق التعاون بينهما وتمول نفسها عن طريق الاشتراكات المحلية والأجور الاسمية التي تتقاضاها مقابل دروس تعليم اللغة الانكليزية في دورات منتظمة.

رغم الزيادة الملموسة في عدد الجامعات في ايران إلا أنها مع ذلك لم تكن كافية لاستيعاب الأعداد الكبيرة من خريجي الثانويات حيث بلغ أكبر عدد للقبول في الجامعات خلال السنوات القليلة التي سبقت قيام الثورة حوالي 130 ألف طالب سنوياً. ولما كانت جامعات الولايات المتحدة تتمتع بشهرة واسعة بأنها أفضل جامعات في العالم فإن أعداداً ضخمة من أبناء الطبقتين الغنية

والمتوسطة كانوا يزدحمون أمام القنصليات الأمريكية للحصول على تأشيرة لدخول الولايات المتحدة لغرض التسجيل في احدى جامعاتها. وجاء تهافت الطلاب الايرانيين على الدراسة في الجامعات الأمريكية في فترة كانت الجامعات الأمريكية تواجه مصاعب مالية بسبب تناقص عدد طلابها الأمريكيين، الأمر الذي حدا ببعضها ايفاد مندوبين عنها الى ايران لتسجيل الطلاب الذين يرغبون التسجيل في احدى الجامعات الأمريكية وتزويدهم بوثائق القبول (وثيقة القبول ضرورية ليحصل صاحبها على تأشيرة دخول للدراسة الى الولايات المتحدة) وقد نتج عن هذا الإجراء ازدياد هائل في عدد الطلاب الايرانيين الذين يقصدون القنصليات الأمريكية يومياً طالبين منحهم تأشيرة الدخول بعد أن حصلوا من ممثلي الجامعات الأمريكية على وثيقة القبول. الإجراءات الروتينية المطلوبة لإكمال معاملة تلك الجموع الغفيرة من الطلاب الذين كانوا يحتشدون يومياً أمام وداخل القنصلية كانت عملاً أكبر من طاقة موظفي القنصلية بعددهم القليل، الأمر الذي أثار التذمر والشكوى بينهم فجاءوا إلي يشرحون الموقف الذي وصفوه بأنه أصبح لا يطاق وأنهم باتوا مضطرين لمنح تأشيرة الدخول لأعداد كبيرة من الطلاب الايرانيين الذين يحملون وثيقة القبول الممنوحة لهم من مندوبي الجامعات الأمريكية دون أن يكون لديهم المؤهلات الأكاديمية المطلوبة كما أن معرفتهم للغة الانكليزية ضعيفة إلى درجة لا تساعدهم على الدراسة في جامعة أمريكية ولذلك فإنهم يقترحون وضع قيود شديدة على اجراءات القبول وبالتالي الحد من نزوح الآلاف من الطلاب الايرانيين إلى الولايات المتحدة.

فكرت ملياً في شكوى القنصليات واقتراحهم بالتشدد في منح وثائق القبول وبالتالي خفض عدد الطلاب الايرانيين الذين يقصدون الولايات المتحدة للدراسة. بعد تقليب الأمر من وجوهه العديدة والنواحي السلبية والايجابية لمختلف الحلول قررت رفض اقتراح قنصلياتنا وأعطيت تعليماتي بالاستمرار في منح تأشيرة الدخول لكل من يبرز وثيقة القبول. لكني في نفس الوقت طلبت من وزارة الداخلية ودائرة الهجرة الأمريكية التدقيق في وثائق القبول والتأكد من صحتها ومراعاتها للقوانين والتعليمات وسحب حق منح وثيقة القبول من الجامعة التي يثبت أنها تصرفت خلاف التعليمات واللوائح.

الرأي الذي جعلني أرفض اقتراح قنصلياتنا هو اعتقادي أن التحاق أكبر عدد ممكن من الطلاب الايرانيين بالجامعات الأمريكية سوف يتيح لهم مجالاً طيباً للتعرف على مجتمعنا وطريقة حياتنا وبالتالي يكونون رسل تفاهم وعلاقات حميمة ووطيدة بين بلدينا في المستقبل وذلك بصرف النظر عن مدى استفادتهم العلمية بسبب ضعف مؤهلاتهم ودرجة اتقانهم للغة الانكليزية في البداية.

الناحية السلبية الوحيدة في هذا القرار هو أن معظم الطلاب كانوا يضيعون قسماً كبيراً من وقتهم الثمين في المظاهرات الصاخبة ضد الشاه والسياسة الأمريكية في ايران بدل الانكباب على دراستهم التي تحملوا من أجلها متاعب الغربة لسنين عديدة. مع ذلك ما زلت أعتقد أن قراري كان سليماً وان الطلاب الايرانيين الذين عاشوا في بلادنا واكتسبوا مختلف العلوم والمعرفة في جامعاتنا واختلطوا بأبناء شعبنا سوف يكونون على المدى الطويل عنصراً مهماً وفعالاً في اقامة علاقات طيبة وتعاون متبادل لتحقيق منافع مشتركة لبلدينا وشعبينا.

لم يكن من اليسير على المراقب الغريب معرفة الشيء الكثير والدقيق عن عوامل ودوافع وملابسات الاضطرابات السياسية وأعمال الشغب التي كانت تحدث في جامعات ايران خلال السنوات الأخيرة من حكم الشاه. ولكن يمكن القول بإيجاز أن ثلاثة تيارات سياسية وعقائدية كانت تستحوذ على أفكار الطلاب بدرجة أو أخرى. فقد كانت هناك فئات يسارية ذات ميول ماركسية تحظى بتأييد وتشجيع جهات خارجية وأخرى ذات اتجاهات ديمقراطية ليبرالية تحلم بتحقيق نظام ديمقراطي شبيه بنظم أوروبا الغربية والولايات المتحدة. أما التيار الثالث، وهو الأوسع انتشاراً والأعمق تأثيراً فهو التيار الاسلامي. فلقد كان في ايران طبقة من علماء الدين المجددين الذين حاولوا المزج بين تعاليم الديانة الإسلامية والحضارة الإسلامية من ناحية ومتطلبات الحياة في المجتمعات العصرية من الناحية الأخرى. وأهم شخصية دينية قامت بدراسة وافية للجمع بين هاتين الفكرتين المتعارضتين جوهرياً هو العالم الايراني «علي شريعتي» الذي توفي في مقتبل العمر مصاباً بالسرطان عام 1977 في احدى مستشفيات لندن. وكان شريعتي قد أكمل دراسته في ايران وفرنسا. خرج شريعتي بنظرية فلسفية حاول بموجبها التوفيق بين تعاليم القرآن والعدالة الاجتماعية في توزيع

الـرفاه كـما يدعـو الاشتراكيـون الديمقـراطيون. وقـد تحاشى شريعتي في نـظريته الفلسفية التطرق للشيوعية والجدلية المادية لكارل ماركس. وبكلمة أخرى تمكن شريعتي من الدمج بين النظريات الاشتراكية الحديثة وتطبيق التعاليم الاسلاميـة بصورة عملية في المجتمعات الإسلامية المبكرة.

كـان شريعتي يتمتع بشعبيـة واسعة القـاعدة، وخـاصـة في جـامعـة طهـران واستغلت القوى المعارضة لنظام الشاه وفاته في لندن لتـوجه أصـابع الاتهـام إلى عملاء السافاك بالتعاون مع المصالح النفطية البريطانية في ايران.

رغم العلاقات الـوثيقة بـين الجامعـات الأمريكيـة والايرانيـة فإن مـظاهرات الـطلاب في ايران وكـذلك مـظاهرات الـطلاب الايرانيـين في شوارع الـولايات المتحدة أخذت خلال السنوات الأخيرة تتسم بمظاهـر العداء الصريـح للولايات المتحدة واتهامها بأنها المؤيد الرئيسي والحليف للشـاه ونظامـه وان الشاه دميـة بيد الولايات المتحدة. لذلك لم يعد ممكناً لموظفي سفـارتنا التحقق مما يجري داخـل حرم الجامعات وبالتالي لم يعد سهـلاً إجراء تقييم واقعي لـلأوضاع. ومـع ذلك استمر اثنان أو ثـلاثة من الأسـاتذة الامـريكيين بـالتدريس في بعض الجـامعات الصغيرة حتى في أشد الأيام حراجة التي سبقت اندلاع الثورة.

11

الأواكس ومنظمة «أوبك»

أول أزمة قامت بين الولايات المتحدة وايران خلال مدة سفارتي كانت في صيف 1977 بسبب تزويد ايران بطائرات الانذار المبكر «أواكس».

ذكرت في فصل سابق ان الرئيس كارتر أبلغني في أول لقاءٍ معه بعد تعييني سفيراً في ايران عن استعداد ادارته لبيع ايران ما تحتاجه من طائرات الأواكس وذلك رغم التعليمات التي أصدرها في تلك الفترة والتي توخّى بموجبها وضع تقييدات على بيع أسلحة أمريكية متطورة للدول الأجنبية. لهذا شعرت بدهشة كبيرة عندما بلغني بعد ذلك أن الرئيس يواجه صعوبة شديدة داخل إدارته لتنفيذ وعده لايران بسبب معارضة بعض البيروقراطيين المعروفين بنشاطهم في قضايا حقوق الإنسان والذين تقلّدوا مراكز مهمة في وزارة الخارجية مع وصول ادارة كارتر للحكم. ويبدو أن أولئك المعارضين لنظام الشاه قرروا اتخاذ موقف متشدد من موضوع بيع طائرات الأواكس لايران احتجاجاً على انتهاكات النظام لحقوق الإنسان وممارسة سياسة القهر والقمع. كان من رأي هؤلاء المعارضين ان تزويد الشاه بمعدات عسكرية أمريكية متطورة يعتبر بمثابة مكافأة عما يرتكبه من جرائم بحق شعبه من اضطهاد وكبت وحرمانه من حرياته الأساسية. ومع أن اشمئزاز هؤلاء السادة من نظام الشاه لأسباب عديدة يمكن أن يتفهمه المرء، إلا أن المنطق الذي دفعهم لاختيار طائرات الأواكس بالذات شيء لا يمكن فهمه ويدعو للاستغراب والدهشة. فطائرات أواكس هي طائرات غير مسلّحة

تستعمل لأغراض دفاعية بحتة ولا تعدو عن كونها جهاز رادار طائر لمساعدة وسائل الدفاع الجوي، والربط بين موضوع بيع هذه الطائرات وموضوع حقوق الإنسان منطق غير سليم واجراء في غير محله. الجهة الحكومية التي وقفت بوجه هؤلاء المعارضين ومنطقهم هي القوة الجوية الأمريكية فأعلنت تأييدها لفكرة البيع على أساس نقطتين مهمتين: الأولى لأن استخدام هذه الطائرات يوفر على ايران مبالغ طائلة ومصاعب جمة فيما لو اعتمدت على نشر أجهزة رادار أرضية في مختلف أنحاء ايران لطبيعة الأرض الطوبوغرافية. والنقطة الثانية هي أن المبالغ التي يوفرها بيع هذه الطائرات المتطورة يساعد على تخفيض كلفة الانتاج بالنسبة لشركة «بوينغ» التي تصنع الطائرات وبالتالي يوفر مبالغ مهمة لوزارة الدفاع التي تشتري الطائرات لاستخدامها.

بعد مدة أمكن التوصل لتسوية المشكلة داخل الادارة إثر تدخل الرئيس كارتر شخصياً فجرى انقاص عدد الطائرات من عشرة إلى سبعة وبذلك يستطيع الايرانيون تحسين نظام دفاعاتهم الجوية وتوسيعه ولو أن تخفيض عدد الطائرات سيجعل الوقت المتاح للطائرات واعمال الصيانة قصيراً نسبياً.

بدأ دور الكونغرس الأمريكي بسياسة الدولة الخارجية يكبر ويتوسع أثناء الحرب في الهند الصينية واستمر كذلك حتى بعد انتهاء الحرب حيث أخذت اللجان المختصة تتخذ قرارات حول أمور خارجية كانت قبل ذلك من صميم اختصاصات الهيئة التنفيذية. لذلك، بعد فشل المعارضة البيروقراطية في عملية بيع الطائرات لإيران نقلوا الحملة إلى داخل الكونغرس آملين في استصدار قرار يعارض البيع..

في داخل الكونغرس احتدم النقاش وتشعب الكلام وتضاربت الآراء وبرزت قضايا لا علاقة لها بطائرات أواكس وقيل كلام كثير دون اطلاع مسبق على التفاصيل والظروف والملابسات كما شن بعض الخطباء حملة شديدة على الشاه ونظام حكمه. وأخيراً، ورغم انتصار الرأي المؤيد لبيع الطائرات في مجلس النواب إلا أن مجلس الشيوخ صوّت ضده.

الشاه الذي كان يتابع ما يدور في الكونغرس بكل اهتمام شعر بغضب شديد

على كل ما جرى وقيل، فأصدر أمراً للجنرال «توفنيان» لإلغاء طلب الطائرات وإخبار الهيئة الاستشارية العسكرية الأمريكية في ايران بأن الحكومة الإيرانية ستبحث في مكان آخر عن نظام متطور لدفاعها الجوي!

ولما كان هذا الموقف الجديد يسيء كثيراً للمصالح الإيرانية والأمريكية اتصلت بواشنطن طالباً بإلحاح اصلاح الموقف لرأب الصدع الذي أصاب العلاقات الأمريكية الايرانية وأخذت في نفس الوقت أتجنب اللقاء بالجنرال «توفنيان» متذرعاً بشتى الأعذار بغية كسب الوقت. في واشنطن تدخل الخبراء العسكريون في وزارة الدفاع الأمريكية وتوصلوا لتحقيق تسوية مع رئاسة الكونغرس والموافقة عليها. تضمنت التسوية اجراء بعض التغييرات والتعديلات في طائرات الأواكس قبل بيعها لإيران. بعد استلامي الخبر من واشنطن مع شرح للتغييرات المقترحة أخذتها فوراً لاطلاع الجنرال «توفنيان» عليها ثم طلبت مقابلة مع الشاه لعرضها عليه.

كان الشاه في تلك الأثناء يمضي عطلة قصيرة في احدى القصور الصغيرة والعديدة التي بنيت للعائلة المالكة على ساحل بحر قزوين في عهد والده رضا شاه.

انتقلت إلى هناك بالطائرة الصغيرة العائدة للسفارة فوجدت في المطار الصغير الملحق بالقصر أحد موظفي التشريفات ليخبرني بأن الشاه قد انتقل إلى قصر آخر يقع على الساحل أيضاً ويرجو أن ألتحق به إلى هناك. بعد وصولي الى المكان الجديد استقبلني موظف آخر لمرافقتي إلى القصر. مع أن هذا القصر يبدو أصغر من القصر الأول إلا أنه كان آية في الهندسة المعمارية شيد من المرمر الثمين فوق تلة خضراء وسط بستان يغص بأشجار البرتقال ويشرف من موقعه المرتفع على مدينة «رامسار».

كان باستقبالي أمام مدخل القصر ضابط متقاعد برتبة جنرال وبعد أن رحب بقدومي قادني إلى غرفة الاستقبال الجميلة وبعد أن أخبرني أنه يتوقع عودة جلالته في كل لحظة انسحب من الغرفة. بعد عدة دقائق سمعت صرير عجلات سيارة تتوقف أمام المدخل وبعد مرور حوالي خمس أو ست دقائق عاد

مرة أخرى ليرافقني لمقابلة الشاه. كان الشاه ينتظرني في الشرفة الواسعة المطلة على بحر قزوين وهو في بجامة من الحرير الأسود وسيماء وجهه يدل على ما يشعر به من مرارة وكدر وتوتر أعصاب.

بعد أن أخبرت الشاه بسبب مجيئي واقتراحات التسوية الجديدة بشأن طائرات الأواكس بدأ يتحدث مطولاً عن خيبة أمله ومعاناته بسبب صداقته للولايات المتحدة وما تجره عليه هذه الصداقة من أذى على الصعيدين الشخصي والرسمي. انتظرت حتى فرغ الشاه من سرد ما يؤلمه ويشكو منه واصفاً الكونغرس بالحماقة والصحافة الأمريكية بالغدر وحب الاثارة. ولما انتهى من حديثه الطويل أبدى استعداده للاستماع لتفاصيل الخبر الذي جئت من أجله. قمت بشرح التعديلات والتغييرات المقترحة ثم سألته عن رأيه. استوعب الشاه بسرعة مدى أهمية التعديلات المقترحة من الناحية التكنولوجية وأدرك أنها لن تغير شيئاً من فاعلية وفائدة الطائرات إلا أنه بدا محرجاً متردداً في اعطاء جواب قاطع لما شعر به من امتهان إذا قبل شروطاً أمليت عليه ولهذا بقي فترة من الوقت مصراً على رفض الاقتراح ولو بطريقة غير مباشرة طالباً مني مزيداً من المعلومات والتفاصيل عن فاعلية الطائرات بعد اجراء التعديلات. وأخيراً رفع الشاه يديه في الهواء وأعرب عن قبوله. بذلك انتهت المقابلة وغادرت المكان بهدوء تاركاً الملك في بجامته السوداء يستنشق عبير أزهار براعم البرتقال الذكية في الشرفة المطلة على بحر قزوين. التضخم المالي الشديد الوطأة الذي أصاب الاقتصاد الامريكي عام 1977 جعل من الواضح أن أسعار النفط كانت عاملاً مهماً في أوضاع بلادنا الاقتصادية والسياسية وبما أن ايران من الدول المصدرة الرئيسية للنفط وبما أن الشاه نفسه كان من أوائل المتحمسين والعاملين لرفع الأسعار فإن الولايات المتحدة بدأت تبدي اهتماماً كبيراً بمواقف الشاه من مسألة الاسعار.

في عهد الادارة السابقة لإدارة كارتر اختار بعض مسؤوليها الشاه شخصياً لتوجيه انتقاداتهم إليه إذ لم يتردد وزير مالية تلك الادارة «وليم سايمون» من وصفه في احدى تصريحاته بالمخبول. تلك التهجمات الشخصية كانت تثير غضب الشاه وتسيء إلى العلاقات بين البلدين. خلال فترة بعثتي في ايران كان

الشاه يشرح لي في عدد من المرات العوامل والمبادىء التي يعتقد أنها تبرر رفع الأسعار. كان من رأيه أن النفط الخام مادة أثمن وأغلى من أن تهدر لتشغيل محركات سيارات الولايات المتحدة وأوروبا الغربية كما أنه ثروة قومية قابلة للتبديد والنفاذ ولذلك من الواجب المحافظة على النفط الخام لصفاته وخصائصه الفريدة للاستفادة من منتجاته التي يمكن استخدامها قاعدة للمنتجات البتروكيميائية. ويرى أيضاً أن من الضرورات الملحة الآن العثور على مصادر أخرى للطاقة لمعظم الصناعات الغربية. هذا وكان الشاه شديد التحمس للطاقة الذرية لدرجة بات معها قادراً على التحدث في مواضيع تقنية تتعلق بتكنولوجية التحام النوى الذرية كهاوٍ اطلع على مبادىء بسيطة في علم الذرة ويعتقد أن الطاقة الذرية ستحرر العالم من اعتماده على النفط الخام كمصدر للطاقة.

كان من رأي الشاه أيضاً أن بلداناً مثل ايران يعتمد اقتصادها الوطني على مواردها النفطية المعرضة للتبخر والزوال عليها التحول إلى مصادر أخرى للطاقة وخاصة الطاقة الذرية. وكان يأمل ويتمنى أن تنحو معظم أقطار العالم هذا المنحى أيضاً ليفسح مجال الاستفادة من النفط لأغراض أكثر فائدة وأفضل جدوى اقتصادياً. كان الشاه يكرر في كل فرصة يتطرق حديثنا لموضوع أسعار النفط، أن ايران وبقية الأقطار المنتجة للنفط كان يجري سلبها بصورة منتظمة من قبل شركات النفط الدولية من موارد ثروتها الوطنية وحرمانها من الاستفادة منها لتطوير بلادها. وكان الشاه يؤكد أيضاً أن ما تحصل عليه الدول المنتجة الآن من برميل النفط ما يزال حتى الآن أقل بكثير من قيمته الحقيقية ولهذا كله فإن رفع أسعار البرميل الذي حصل مؤخراً ما هو إلا تصحيح لأوضاع غير عادلة وغير سليمة استمرت عقوداً طويلة من الزمن أي أن السعر الذي تحدده دول «الأوبك» لبرميل النفط لا يمكن اعتباره أعلى من السعر الذي يمكن للنفط تحقيقه في الأسواق العالمية.

تعقد منظمة الدول المصدرة للنفط «أوبك» سنوياً اجتماعين لمناقشة قضايا تتعلق بانتاج النفط وأسعاره ولذلك كانت الادارة الأمريكية في أواخر صيف 1977 ومطلع فصل الخريف، أي مع اقتراب موعد الاجتماع القادم في شهر كانون الأول من تلك السنة ينتابها القلق من احتمال حدوث ارتفاع جديد في

الأسعـار. فخـبراء الاقتصـاد والمحلّلون خـرجـوا من دراستهم لحـالـة الانتـاج والاستهـلاك العالميـين للنفط برأي يقـول أن الوقت قـد حان لـدول الأوبك أن تتوقف عن ممارسة مزيد من الضغط على الـدول المستهلكة لأن المعـادلة لا تحكم بـالعرض والـطلب فقط وإنما بلغـة الأسعار أيضـاً ولذلـك تعرضت ادارة كـارتر لضغط شـديد للضغط بـدورها عـلى أصـدقـائهـا داخـل دول الأوبـك لممـارسـة الاعتدال في موضوع الأسعار وتجميدها.

رغم عدم استلامي من واشنطن تعليمات خاصة حـول هذا المـوضوع إلا أني انتهزت فرصة أحـد اجتماعاتي الدورية مع الشاه لأبحث معه العلاقة بين تطوير وتقدم الاقتصاد الايراني واستقرار الأسعار في الولايات المتحدة. كان الشاه كثـير الشكوى من استمرار ارتفاع أسعار الاسلحـة والمعدات العسكـرية التي يبتـاعها من الولايات المتحدة وكنت أبرر ذلك بالتضخم الـذي يؤدي إليه ارتفـاع أسعار النفط عـلى هيكلية الصنـاعات الأمـريكية. وقـد شعرت بمـرور الـوقت وتكـرر الحديث في نفس الموضوع أن الشاه وصل فعلاً إلى نقـطة أدرك عندهـا أن هناك علاقة مباشرة بين أسعار النفط التي تتقاضـاها دول الأوبـك في الأسواق الـدولية وأسعار المنتجات التي تحتاجها دول الأوبـك من تلك الأسواق بكميـات متزايـدة لدفع عجلة التصنيع في بلادها إلى الأمام.

من سـوء الحظ، أنه في الـوقت الذي تحقق فيـه هذا التفـاهم في الـرأي بيني وبين الشاه أقدم نائب وزير المالية الأمريكي «انتوني سولومون» على ترديـد نفس الاتهـامات والانتقـادات القديمـة التي كان يـوجهها للشـاه وزير المـاليـة السـابق «سايمون». هذا التهجم الجديد على الشـاه شخصياً في خـطاب «سولـومون» من الجائز أن يكون قد لاقى استحسـاناً من قبـل بعض المستمعين لـه، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أنه كان خطأً كبيراً يسبب لنا مشكلة جديدة مع الشاه وخاصة ونحن نحاول استمالته لحمل منـظمة أوبـك على تجميـد أسعار النفط في الحـدود التي كانت عليها. لـذلك أرسلت بـرقية الى واشنـطن شديـدة اللهجة أذكـر أني قلت فيها أن «شبح سايمون متشحاً ثوب سولومون» هاجم الشاه دون مبرر وكـما كنت أتوقع أثارت برقيتي مـوجة من الاستيـاء والاحتجاج في وزارة المـالية ولكن «مايك بلومنتال» الوزير وكذلك «سولومون» لم يثيرا ضجة كبيرة حول الموضوع.

بعد أسابيع قليلة من خطاب «سولومون» جاء إلى طهران كل من بلومنتال وزير المالية ونائبه «سولومون» لإجراء محادثات مع الشاه حول أسعار النفط وكانت زيارتهما ضمن جولة واسعة على عدد من أقطار أوبك كالعربية السعودية ودولة الامارات العربية المتحدة وذلك بغية استباق أي قرار برفع أسعار النفط قد تتخذه المنظمة في اجتماعها القادم. ورغم النقاش العاصف الذي جرى بيني وبينهما حول الخطاب وبرقيتي إلا أننا استطعنا أخيراً الدخول في صلب الموضوع الذي قدما من أجله والطريقة الأكثر ملاءمة للتحدث مع الشاه عن أسعار النفط. كان وزير المالية «بلومنتال» يريدها مجابهة صريحة وقاسية مع الشاه إلا أنه وافق أخيراً على رأيي بضرورة تجنب اثارة الشاه وخاصة بعد أن أصبح يميل للاعتدال في مسألة الاسعار وتجنب اثارة الرأي العام الأمريكي ضده. وهكذا كان، وتمت المحادثات ونتائجها بشكل جيد رغم معاملته لسولومون بفتور وهو أمر طبيعي بالنسبة للطبيعة البشرية.

وقد يكون من المناسب أن أذكر هنا أن سولومون كان قد أمضى سنوات شبابه في الخدمة العسكرية في ايران كموظف مدني بوزارة الدفاع وهو الذي وضع الأسس والقواعد للمساعدات التقنية التي يمكن للولايات المتحدة تقديمها للحكومة الايرانية بموجب برامج النقطة الرابعة في عهد الرئيس ترومان.

كان موقف الشاه المتساهل في تصوري يعود إلى حقيقة أنه كان على وشك القيام بزيارة رسمية لواشنطن تلبية لدعوة تلقاها من الرئيس كارتر ولذلك لم يكن من مصلحته أن تصبح زيارته فصلاً آخر من فصول مشكلة أسعار النفط وإنما أرادها أن تكون زيارة ناجحة لبحث قضايا أكثر أهمية كان يريد التفاهم بشأنها مع ادارة كارتر الجديدة وزيادة التفاهم بين حكومته والولايات المتحدة.

12

زيارات دولة

عبر السنوات الطويلة الماضية باتت زيارات الشاه لـواشنطن ظـاهرة اعتيـادية على مسرح السياسة الأمريكيـة. جدران سفـارتنا في طهـران تكاد تكـون مغطاة بصور الشاه وهو برفقة أحد الرؤساء الأمـريكيين منـذ أيام الـرئيس روزفلت كما أن الرؤساء الأمريكيين قاموا بدورهم بزيارات مماثلة لطهران. الزيارات المتبـادلة طـوال تلك السنوات العـديـدة التي جـرت خـلال مختلف الادارات الأمـريكيـة تشكل دلالة واضحة على العلاقات الحميمة والوطيدة التي نشأت وتـطورت بين الولايات المتحدة وايران عبر ما يـزيد عن ثـلاثين سنـة حيث أصبح الشـاه بنظر الحكومات الأمريكية المتعاقبة حجر الزاوية للسياسة الأمريكية لجنوب غربي آسيا ومنطقة الخليج بعد أن صار ينظر إليه كرجل حصيف الفكر وملك متنـور العقل وحليف يعتمد عليه ورئيس دولة عطوف على شعبه سـوي في تصرفاتـه!!(*) لهذا كله لم تكن دعوته لزيارة واشنطن حدثاً مستغرباً إذ كانت تمشياً مع تقليـد استمر طوال خمسة وثلاثين عاماً تعاقب خلالها على الحكم الديمقراطيون والجمهوريون. ولكن رغم هذه الحقائق فقد أثارت الدعوة قدراً غير قليل من الاستغراب لـدى عدة جهات سياسية واجتماعية أمريكية نـظراً لما هـو معروف عن الـرئيس كارتـر وادارته الجديدة من تشدد في قضايا حقـوق الإنسان وخـاصة بعـد أن سبق لهذه الإدارة وأعلنت أنها ستجعـل من مـوضـوع حقـوق الإنسـان المحـك والمقيـاس

(*) اشارة التعجب، مضافة من الناشر. ولم تكن في الأصل.

لعلاقاتها مع الدول الأخرى في جميع أنحاء العالم. وما كان بخافٍ على أحد أن نظام الشاه بعيد عن ممارسة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية. لذلك، ورغم اجماع كبار المسؤولين في الإدارة بأن زيارة الشاه ليس فيها ما يدعو للاستغراب والدهشة إلا أن عدداً غير قليل في الإدارة نفسها وفي أوساط الحزب الديمقراطي أبدوا استياءهم من فكرة زيارة أحد أصدقاء أمريكا الأقل شعبية في بلاده. ولما كان الشاه قارئاً مواظباً للصحف الأمريكية فإنه اطلع بطبيعة الحال على حملة الانتقادات الموجهة اليه وإلى نظام حكمه المنشورة في الصحافة الأمريكية مما جعله يشعر بشيء من الحيرة والارتباك مع اقتراب موعد الزيارة وبالتالي انهالت عليّ أسئلته واستفساراته حول العلاقات بين بعض كبار المسؤولين في الادارة ومجلسي الكونغرس والرئيس كارتر ومدى تأثيرهم في صياغة القرارات السياسية المهمة إذ كان لديه إحساس غريب بأن البيت الأبيض في عهد الرئيس كارتر لا يكنّ له التقدير الكافي الذي يستحقه صديق قديم للولايات المتحدة من ناحية، كما أن مواقف الكونغرس منه قد أصابها الاهتزاز بدليل المشكلة التي أحدثها بسبب طائرات الأواكس من الناحية الأخرى ولهذا بدأ يساوره الشعور بأن زيارته لن يكتب لها النجاح الذي كانت تحققه زياراته الماضية خلال عقدين من الزمن.

بناءً على معلومات البرقيات التي كنت أستلمها من واشنطن حول زيارة الشاه رأيت من المستحسن تهيئته واعداده مسبقاً للمواضيع والقضايا التي قد تبحث معه أثناء زيارته. قلت مع أنه ليس هناك مشاكل ملحة بين الولايات المتحدة وايران إلا أن عدداً من القضايا سوف تطرح عليه ولا أستبعد أن يكون موضوع حقوق الإنسان في مقدمتها ولذلك أرى أن يكون جاهزاً لبحثها مع الرئيس كارتر مباشرة. أما المواضيع العامة الأخرى فأوجزتها للشاه كما يلي:

أولاً: أسعار النفط وهو موضوع سبق وتناولناه في عدة أحاديث ماضية ولكن مع ذلك أردت تذكيره بأن ادارة الرئيس كارتر تولي هذا الأمر الكثير من اهتمامها واعتزامها على متابعة الموضوع حتى النهاية وأن ما يؤكد ذلك هي الزيارة التي قام بها مؤخراً إلى طهران وزير المال الأمريكي ومساعده. أومأ الشاه برأسه دليل

الموافقة وقال انه على أتم استعداد لبحث الموضوع بكـل تفاصيله والإجـابة عـلى الأسئلة التي قد توجه حوله.

ثانياً: قلت إني أتوقع أن يثير المسؤولون في واشنطن مسألة المشتريات الايرانية من الأسلحة والمعدات العسكرية الأمريكية المتطورة بدليل الضجة التي قامت في الصحافة والكونغرس حول بيع طائرات الأواكس المتطورة لإيران. اقترحت على الشاه التفكير جـدياً بـامكانيـة تخفيض طلبات الأسلحـة في المستقبل وأن يحـاول التوصل إلى تفاهم مع المسؤولين الأمريكيين على وضع برنامج طويل الأمد يضع أسسـاً وقواعـد ثابتـة لمشتريـات الأسلحة وصيـانتها ومسـألة استيعـابها من قبـل القوات المسلحة الإيرانية.

ثالثاً: نظراً لما كنت أعرفه من اهتمام الولايات المتحدة بمسألة انتشار الأسلحة الذرية من ناحية ومعرفتي برغبة ومخططات الشاه في الحصول على مفاعلات ذرية والاستفادة منها كمصدر بديل للطاقة بدل النفط قلت إنه بالإضافة إلى البرنـامج الإيراني لبناء عدة مفاعلات نووية هناك أيضاً جهود الباكستان الحثيثـة للحصول على مادة البلوتونيوم اللازمة لانتاج أسلحة ذرية وتساءلت عن موقفه فيما لو أثـير المـوضوع معـه. نفى الشاه بصـورة قـاطعـة أن لـديـه النيـة أو الـرغبـة أو حتى الامكانات التقنية لاستعمال المفاعلات التي ينوي ابتياعهـا لإنتاج سـلاح ذري. أمـا حول مشـاريع بـاكستان الـذرية فـإنه عـلى استعداد للتعـاون مـع حكـومـة الولايات المتحدة وحثها على التخلي عن السعي للحصول على أسلحة ذرية. ثم تابع كلامه قائلاً إنه في الواقع يحاول منذ مدة اقناع الرئيس «بـوتو» بـالتخلي عن طموحاته الذرية وتبديد موارد باكستان الضئيلة من أجل تحقيق توازن ذري مـع الهنـد. وفي رأيه ان استعـمال قنبلة ذرية أو اثنتـين يشبه استعـمال «تحميلة»! بعد هـذا عاد الشـاه إلى موضـوع تزويـد ايران بـالمفاعـلات التي تحتاجهـا وقال انـه سيـطرح هذا المـوضوع بـإلحاح وقـوة ويـطلب من الـرئيس كـارتـر منـح شركـة «وستنغهاوس» اجازة التصدير اللازمة لبيع ايران أربع مفاعلات على الأقل.

رابعاً: قلت للشاه من المحتمـل أن يطلب المسؤولـون في واشنطن مسـاعدتـه وتأييده للجهود التي تبذلها الولايات المتحدة من أجل تحقيق تسوية للنزاع العربي

الاسرائيلي وتساءلت عن موقفه إذا ما طلب إليه ذلك. أظهر الشاه تحمساً قوياً للفكرة وأعرب عن ثقته التامة بقدرته على القيام بدور ايجابي ومفيد. قال ان علاقاته باسرائيل طيبة جداً كعلاقته بالملك حسين ملك الأردن ولذلك لن يجد صعوبة في القيام بدور فعال بالتعاون مع الولايات المتحدة للتوصل إلى تسوية لهذا النزاع في الشرق الأوسط. ثم أضاف إلى ذلك القول بأنه تربطه بالرئيس المصري أنور السادات روابط صداقة وقد قدمت له ايران مساعدات اقتصادية مهمة. في سياق هذا الحديث الذي أردت به اعداد الشاه للزيارة وبعد أن أوجزت القضايا التي تحظى باهتمام الادارة الأمريكية الحالية تحدث الشاه بدوره عن الشؤون التي يرغب في بحثها مع الرئيس كارتر وقد أوجزها بالشكل التالي:

أولاً: يريد الحصول على تأكيد من جهة رسمية يعتمد عليها لضمان تزويد ايران بالأسلحة والمعدات العسكرية المتطورة وخاصة احتياجات القوة الجوية والقوة البحرية دون اقحام للاعتبارات السياسية في مسألة هي في رأيه تجارية ومالية بحتة.

ثانياً: موافقة الادارة الأمريكية الجديدة على اجازة تصدير أربعة مفاعلات للطاقة الذرية إلى ايران.

ثالثاً: يود الاطلاع على رأي الحكومة الأمريكية حول الأخطار التي تهدد البلدان الواقعة على الخليج نتيجة التغلغل السوفييتي في القرن الأفريقي وعدن والمناطق المؤدية الى المحيط الهندي. ثم ان الشاه يود أن تمكنه زيارته القادمة لواشنطن من تكوين رأي أكثر وضوحاً عن الإدارة الجديدة من ناحية ومعرفة أفضل وأعمق بالرئيس الجديد وبالتالي تقييم مدى تأثير الفوارق الداخلية بين نظامي الحكم على اقامة تحالف استراتيجي بين ايران والولايات المتحدة لمصالحها المشتركة. بعثت جميع هذه الأحاديث ضمن عدة تقارير إلى واشنطن ثم غادرت طهران مع قرينتي إلى الولايات المتحدة لنكون في استقبال الشاه وشاهبانو.

كان سرورنا كبيراً بالفرصة التي أتيحت لنا في ذلك الوقت بالذات للسفر إلى واشنطن قبيل حلول عطلة عيد الشكر حيث يجتمع شمل العائلة من ناحية

وحضور حفلة قران كبرى بناتنا، وهي محامية في واشنطن من محام شاب كان يعمل في مكتب وزير الخارجية الجديد «فانس» للمحاماة من ناحية أخرى. وهكذا كنا نأمل أن تكون الزيارة ناجحة على الصعيد الرسمي وفرصة سعيدة على الصعيد العائلي.

ولكن تمنيات الإنسان شيء وما تأتي به الأيام شيء آخر. فبعد أيام قليلة من وصولنا استلمت وزارة الخارجية عدة تقارير من دوائر الأمن والشرطة عن اعتزام جماعات متطرفة القدوم إلى واشنطن من أنحاء مختلفة في الولايات المتحدة أثناء زيارة الشاه معظمهم من الطلاب الإيرانيين الذين يدرسون في الجامعات الأمريكية ومعهم أيضاً فئات يسارية متطرفة من الأمريكيين الذين لا علاقة لهم بإيران. وبناءً على تلك المعلومات أيضاً فإن مبالغ كبيرة من المال جرى تحويلها من مصادر مجهولة في أوروبا إلى الولايات المتحدة لإقامة المظاهرات ضد الشاه ونظام حكمه وإفشال زيارته. ثم وردت بعد ذلك أنباء أخرى تقول إن جهات معينة في الولايات المتحدة تسعى بدورها لحشد أكبر عدد من الطلاب الإيرانيين المؤيدين لنظام الشاه وإرسالهم في نفس الوقت إلى واشنطن. ولكن رغم هذه المعلومات التي أثارت قلق المسؤولين في الإدارة إلا أن الثقة التي أبدتها دوائر الأمن بقدرتها على معالجة الأمر والمحافظة على النظام نظراً لما لديها من خبرة سابقة تعود إلى أيام الاضطرابات بسبب حرب فيتنام أزالت ما كان يساورنا جميعاً من قلق وهكذا سافرت ومعي قرينتي وعدد من موظفي دائرة التشريفات بوزارة الخارجية مع ممثلي البيت الأبيض إلى مدينة «وليامز بورغ» حيث ستهبط الطائرة التي تقل الشاه وحاشيته لتمضية ليلة فيها والانتقال في صباح اليوم التالي بطائرات الهيليكوبتر إلى واشنطن.

هبطت طائرة الشاه التي كان يقودها بنفسه في الوقت المحدد وبعد أن استقبل من قبل الحاضرين استقل وحاشيته السيارات وسارت قافلتنا إلى المدينة التي وصلنا إليها دون مصادفة أية مظاهرة في الطريق.

خصصت الدولة قصراً تاريخياً بعد تجديده لإقامة الشاه وحاشيته وخصص لنا نحن الأمريكيين قصراً آخر في شارع قريب من القصر الذي خصص للشاه.

مـع حلول الغسق وبينما كنـا نتأهب لـلانتقال إلى قصر الشـاه لتنـاول طعـام العشاء على مائدته شاهدنا من نافذة غرفتنا مجموعة من الشبـان ومعهم أعلامهم ولافتـاتهم يقفون عـلى الرصيف المقـابل لمكـان إقـامتنـا وكـان بـإمكـانـنـا قـراءة الشعارات المكتوبة على اللافتات والتي تندد بالشاه ومضيفه الرئيس كارتـر الذي تطلب إليه بعضها رفع يده عن ايران. ولكن الشيء الـذي لفت أنظارنـا جميعاً وأثار دهشتنا هي الصور الكثيرة التي حملهـا المحتجون لآيـة الله خميني. ومع أني كنت مطلعاً على دور آية الله خميني في الصراع المحتدم في ايران بين رجال الدين والشـاه، لكن هذه كـانت المرة الأولى التي تـظهر فيهـا صورتـه علانيـة يحملهـا الطلاب المناوئون للشاه.

انتهت تلك التـظاهرة الصغـيرة نسبيـاً من حيث عـدد المشـتركـين فيهـا دون حادث يستحق الذكر بفضل الحيلة التي لجأت إليها قوات الأمن والشرطة بتوجيه المظاهرة المعادية للشاه إلى مكان اقـامتنا بينـما وجهت مظاهـرة المؤيدين إلى حيث يقيم الشاه بعد اقامة حاجز من قوات الشرطة في المنافذ المؤديـة إلى قصر الشاه، وبذلك أمكن تجنب وقوع اصطدام بين الطرفين. ولا أعتقد أن الشـاه قد شعـر بوجود مظاهرة معادية له في الشارع المجاور للشارع الذي كان يقيم فيه.

في صبـاح اليوم التالي غادرنـا وليامـز بورغ قـاصدين واشـنـطن بعدة طـائرات عمـودية. عنـد اقترابنـا من مكان هبـوط الطائـرات بالقـرب من البيت الأبيض شاهدنـا من الجو حشـداً غفيراً من النـاس الذين يحملون مئـات اللافتـات على مسافة غير بعيدة من البوابة الرئيسية للبيت الأبيض ولكن ما جعلنا نشعـر بشيء من الاطمئنــان هو وجـود عدد كبـير من قوات الشرطـة التي شكلت حاجـزاً في الوسط بقي خالياً من الناس بمثابة أرض حرام بين حشـد من الطلاب المؤيـدين وحشد المعارضين.

قطعنا المســافة القصـيرة من مكان هبـوط الطائـرات والبوابـة الجنوبيـة للبيت الأبيض بالسيارات وبعد أن تركنا السيارات أمام البوابة دخلنا جميعاً إلى حديقـة البيت الأبيض حيث كـان الرئيس كـارتر وعقيلتـه وكبار المسؤولـين في استقبـال الشاه وعقيلته وكبـار أعضاء حـاشيته ثم رافق الـرئيس كارتـر ضيفه الكبـير نحو

المنصة المعدة لإلقاء كلمة ترحيبية من كل من المضيف وضيفه من بعده. بعد طلقات المدافع وعزف النشيدين الوطنيين تقدم الرئيس كارتر من ناقل الصوت لإلقاء كلمته وما إن بدأها حتى سمعنا في الخارج صخباً شديداً وأصوات ألوف المتظاهرين بعد أن تمكنت المجموعات المناوئة للشاه من تحطيم السياج المتنقل والهش الذي كان يفصل بينها وبين المؤيدين للنظام وحدث الاصطدام الذي كنا نخشى وقوعه بين الطرفين فأطلق عدد من رجال الشرطة قنابل الغاز المسيل للدموع بغية تفريق المتظاهرين وفض الاشتباك بينهم ولكن تأثير الغاز لم يقتصر على المتظاهرين فقط وانما تجاوزهم إلى جميع المشتركين بمراسم الترحيب بالشاه داخل حديقة البيت الأبيض بعد أن حمل الهواء كمية من الغاز من الشارع إلى داخل سياج البيت الأبيض وهكذا وجد الملايين على شاشة أجهزتهم المرئية أمامهم منظراً فريداً من نوعه عندما شاهدوا رئيس الولايات المتحدة وشاه ايران والدموع تنهمر من عيونهما أثناء تأدية مراسيم الاستقبال. أما نحن فقد بذلنا جهداً كبيراً نمسح دموعنا بمناديلنا من ناحية وضبط نوبة السعال التي انتابتنا جميعاً من ناحية أخرى. في كل الأحوال، لم يمنع ما حدث من استمرار المراسم الرسمية حتى نهايتها واحتفظ الجميع، وخاصة الرئيس والشاه، بكامل هدوء الأعصاب. تمكنت قوات الأمن والشرطة من السيطرة على الموقف واستعادة النظام في الخارج بعد فترة قصيرة من الوقت. ولكني أعتقد أن المعارضين للشاه في داخل ايران شعروا بالغبطة والانشراح وهم يرون عدوهم اللدود على الشاشة المرئية التي نقلت مراسم الاستقبال بواسطة الأقمار الصناعية ودموعه تجري على خديه. بعد تلك الحادثة المؤسفة لم يحدث ما يسيء لزيارة الشاه لواشنطن التي كانت في الواقع جد موفقة. في الاجتماع المصغر الذي عقد بين الرئيس كارتر والشاه وبعض كبار المسؤولين الامريكيين والايرانيين استفسر الرئيس عن رأي الشاه وتقييمه بصورة عامة للموقف الاستراتيجي في ذلك الجزء من العالم المجاور لإيران.

تحدث الشاه طيلة خمس وأربعين دقيقة كان الرئيس كارتر يصغي للشرح الذي عرضه الشاه بمزيد من الانتباه والاهتمام. سرد الشاه بشيء من الإسهاب أفكاره وملخصها أن هناك كماشة سوفييتية تهدف إلى الإحاطة بشبه الجزيرة

العربية ومنطقة الخليج عن طريق التغلغل إلى القرن الأفـريقي والقارة الأفـريقية من جهة وعبر أفغـانستان بـاتجاه الجنـوب الى شواطىء البحـر العربي من الجهـة الأخرى (كان الشاه قد تحدث معي أكثر من مرة عن هاجسه).

لا شك أن الشاه كان رجل دولـة واسع الاطـلاع في الشؤون الدوليـة ولديـه قدرة كبيرة على عرض آرائه والدفاع عنها في غـاية المهـارة والاقناع ولـذلك حاز على اعجـاب واطراء الـرئيس كارتـر ومساعـديه الـذين حضروا الجلسـة معـه. أمـا الاجتماع الموسع الذي ضم عدداً أكبر من المسؤولين في كلا البلدين فقد خصص لمنـاقشة عـدة قضايـا هامـة ذات اهتمام مشـترك. كما بحثت مسـائـل أخـرى في اجتـماعات مصغـرة كانت تضم عـدداً قليـلاً من المعنيـين مبـاشرة بـالعـلاقـات الأمريكية الإيرانية. في واحـدة من هذه الاجتـماعات المصغـرة التي يطلق عليهـا أحياناً «اجتماع قمة» حدث ما يحدث لبعض اجتماعات القمة من غمـوض وعدم فهم من جراء عبارة يساء فهمها أو كلمة يخطأ في تلفظها. لما علق الرئيس كارتر على الشرح الذي قدمه الشاه حول النشاط السوفييتي في اثيـوبيا والصـومال قـال ان حكـومة الـولايات المتحـدة ترى أن من واجب منـظمة الـوحـدة الافـريقيـة بالدرجة الأولى معالجة هذا التهديد السوفييتي فرد الشاه بسرعة قـائلاً إن منـظمة الوحدة الافريقية «مهمة» ولكنه تلفظ كلمة important بطريقة غامضـة فجاءت وكأنه يقول impotent (أي عاقر) فالشاه رغم كونه يتقن اللغة الانكليزية اتقـاناً جيداً إلا أنه يخطىء أحيانـاً في مقطع الكلمـة الذي يجب التـوكيد عليـه. ولكن الرئيس كارتر وهو من الجنوب استنتج بسرعة ما يقصـد الشاه قـوله فعلق قـائلاً «نحن أيضاً نعتقد أن منظمة الـوحدة (مهمـة) ولكنه تلفظ كلمـة مهمة بـاللهجة الأمريكية الجنوبية فقال important وبذلك تطابقت آراء الـرئيس والشاه بـأهمية منظمة الوحدة الافريقية.

ما عدا هذا الحادث الـطريف فإن جميـع الاجتماعـات التي عقدت بـين الشاه وكبار المسؤولين والسياسيين الأمريكيين حققت نجاحاً باهراً يستحق الإعجاب. في الكونغرس استقبل الشاه بحفاوة كبيرة من قبـل شخصيات مهمـة من أعضاء المجلسين الشيوخ والنواب. ثم عقد اجتماعاً مع كبار رجال الصناعـة والمصارف الأمريكيين الذين لديهم مصالح مهمة في ايران. أخيراً عقد مؤتمراً صحفياً أجاد

اختيار توقيته اذ كان قبيل مأدبة العشاء الرسمية التي أقامها الرئيس على شرف ضيفه وأعلن الشاه في مؤتمره أن إيران سوف تعارض بشدة أية زيادة جديدة في أسعار النفط في الاجتماع القادم لدول الأوبك الذي سيعقد خلال شهر كانون الأول، وما كان باستطاعة الشاه أن يقدم لضيفه هدية أجمل من هذه الهدية التي قوبلت بالاستحسان والترحيب من كافة الجهات وهيأت الجو المناسب والمريح لتبادل الأنخاب بين الرئيس كارتر والشاه في مأدبة العشاء الرسمية التي كانت مسك الختام لزيارة الشاه الموفقة لواشنطن.

مع أن المظاهرات المعادية للشاه استمرت طيلة أيام الزيارة خارج البيت الأبيض كمتنزه لافاييت وأماكن عامة أخرى إلا أن قوات الشرطة المستنفرة تمكنت من تحجيمها وابقائها مظاهرات سلمية وبذلك حالوا دون حدوث تشويش في برنامج الزيارة.

في صباح اليوم التالي لمأدبة الرئيس كارتر غادر الشاه واشنطن عائداً إلى بلاده وهو يشعر بالارتياح التام لنجاح زيارته من ناحية وتوطيد علاقته بادارة الرئيس كارتر. ولكن رغم هذا النجاح الذي حققته زيارة الشاه فإنها تركت وراءها بعض الذيول المؤسفة كان من جملتها الاتهامات التي وجهتها صحافة واشنطن إلى السفارة الايرانية بالتدخل في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة وذلك بتجنيدها بعض الطلاب الايرانيين والأمريكيين وارسالهم إلى واشنطن لتنظيم مظاهرات مؤيدة للشاه.

من الأعراف المتبعة في العلاقات الدولية ان زيارات رؤساء الدول تكون عادة على أساس المقابلة بالمثل، غير أن هذه القاعدة لم تكن مطبقة مع الشاه فيما يتعلق بزياراته للولايات المتحدة. فالشاه شأنه شأن الملك حسين ملك الأردن، كان يأتي إلى الولايات المتحدة مرة على الأقل في العام الواحد، أما رئيس الولايات المتحدة فإنه زار ايران مرة واحدة خلال أربع سنوات تلبية للدعوة التي وجهها الشاه للرئيس كارتر أثناء تبادل الأنخاب في مأدبة البيت الأبيض وقبل الرئيس الدعوة.

افترض معظمنا أن الرئيس كارتر سيلبي الدعوة خلال السنتين القادمتين إذ

أن البرنامج الذي أعد لزيـاراته الـرسمية خـلال العام الجـديد 1978 لم يتضمن زيارة إلى إيران. ولكن وضعاً جديداً واجه المسؤولين عن برامج زيارات الرئيس عندما اكتشفوا أن الجولة التي يريد البدء بها قبيل عطلة عيد الميلاد والتي ستقوده إلى القارات الثلاث أوروبا وأفريقيا وامريكـا اللاتينيـة جد مـرهقة ليس بـالنسبة للمشتركين فيها فحسب وإنما بالنسبة للجهـات العديـدة التي لديهـا دور أو آخر لجعل السفر ممكناً ولهذا فإنهم اقترحوا تجزئة الجولـة الواسعـة إلى مرحلتـين يمكن القيام بالرحلة الأولى خلال المدة التي تبدأ يوم عيد الميلاد وتنتهي يوم عيـد رأس السنـة الجديـدة. ولما كـان قد تم فعـلاً تثبيت تواريـخ الزيـارة لعدد من الـدول الأوروبيـة قبل الانتقـال الى القارة الأفـريقية ظهـرت الحاجـة للعثور عـلى مكان يقضي فيه الرئيس وعقيلتـه وحاشيتـه يومـاً وليلة وهي الفترة الـواقعة بـين انتهاء زيارة الرئيس لبولندا وبدء جولته الافريقيـة. وهكذا وقـع الاختيار عـلى طهران لتكون المحطة المتوسطة ما بين المقدمة الأولى والثانية من جولة الرئيس كارتر.

بعد أن بلغت بهذا القرار في النصف الأول من شهر كانون الأول 1977 كـان علي ابلاغ الشاه بخبر الزيارة الـرسمية القصـيرة التي ستبدأ في اليـوم الأخير من عام 1977 وتنتهي صباح اليوم الأول من العام 1978 والحصول على موافقته عـلى قصر مدة الزيارة. مع أن الشاه أبدى أسفـه على قصر المـدة إلا أنه كـان شديـد التحمس لفكرة الزيارة ولم يحاول اخفاء سروره البالغ لسرعة تلبية الرئيس كارتر لدعوتـه. وأظن أن ابتهاج الشـاه بالـزيارة رغم كـونها لن تتجاوز ثـمان وأربعين ساعة يعود إلى ما تعنيـه بالنسبـة له من نصر سيـاسي على معـارضيه في الـداخل والخارج. فعلى الصعيد الدولي سوف تدل الـزيارة عـلى العلاقـات المتينة والثقـة المتبادلة بين الولايات المتحدة وايران أما على الصعيد الداخلي فإنها تقول للفئات المعـارضة لنـظامه ان نصـير حقوق الإنسـان الأول في أمريكـا يؤيده ويـدعمـه. أعطى الشاه موافقته على موعد الزيـارة ومدتهـا وقال انـه سيحاول خـلال الفترة القصيرة القادمة اقناع الرئيس كارتر لتمديد فترة الزيارة الخاطفة.

لما كانت الـزيارة ستصـادف ليلة رأس السنة الجـديدة قـال الشاه انـه سيقيم حفلة كبرى في ذلك المساء للاحتفال بحلول السنة الجديدة.

عنـدما أرسلت هـذه المعلومات إلى واشنـطن أعـربت الادارة عن ارتيـاحهـا لموافقة الشاه على موعد الزيارة رغم قصر الوقت غير أن الرئيس كارتر يرغب أن تكون حفلة عشاء الشـاه خاصـة وأن لا يتجاوز وقت انتهـائها السـاعة العـاشرة مساء.

عندما أخبرت القصر بالرغبة التي أبـداها الـرئيس كارتـر دلت ملامـح الشاه عـلى شعور بـالكدر والغم ولم يعلق بشيء ولكني بمـا لدي من تجـربـة طـويلة في وضع برامج زيارات رسمية في أقطار أخرى وفي ظروف مماثلة كنت متأكـداً ان ادخال بعض التعديلات على هذا التقشف ليس بالأمر المستحيل.

خلال أيام قليلة استلمنا من واشنطن قـائمة بـأسماء فـريق من موظفي البيت الأبيض وأرقـام جوازات سفـرهم لتسهيل اجـراءات دخولهم الى ايـران كفـريق متقدم قبل وصول الرئيس للاتفاق مع الجهات الايـرانية المختصـة على تفـاصيل برنامج الزيارة. المسؤول الاداري بالسفارة الذي اطلعني على القائمة سألني فيـما إذا وجدت فيها ما يلفت النظر. بعد قراءتي للقـائمة مـرة جديـدة أجبت بالنفي فأشار باصبعه الى العمود الثالث في القائمة الذي يظهـر تاريـخ ولادة كل عضـو في الفريق.

كانت أعمارهم جميعـاً عدا واحـداً منهم دون سن الثلاثـين فأبـديت استغرابي من ارسال هذه المجموعة من الشبـان وشاركت المسؤول الاداري في قلقـه حول سلوك وتصرفات شبان بمثـل أعمارهم. ولكن الأيـام القليلة التاليـة أثبتت ان ما ساورنا من قلق كان في غير محله. كانوا شباناً يتمتعون بالـذكاء والفـطنة وحسن التصرف ويتحلون بعقل راجح وكفـاءة عاليـة وأدب جم. وقد علمنـا فيما بعـد أنهم جميعاً كانوا يعملون إلى جانب الرئيس كارتر أثناء حملته الانتخابيـة فتدربـوا على يديه وتشربوا بمبادئه وقيمـه ثم زودهم العمل معـه في البيت الأبيض تجربـة ودراية وحنكة. كانوا يعرفون تماماً ما يريدون وكيف يريدونه أن يكون.

باشر الفريق العمل الذي جاء من أجله مع نظيره الفريق الايراني الذي كـان أعضاؤه في مقتبل العمر أيضاً ولا يقـل مستواهم العلمي والـوظيفي عن مستوى الفريق الأمريكي في مثل هذا العمـل إذ ان رحلات الشـاه خارج ايـران لم تكن

تختلف كثيراً عن الحملات الانتخابية. وقد أتقن الفريقان العمل المطلوب منهما وأمكن بسهولة إدخال بعض التعديلات على البرنامج الأصلي. فالعشاء الخاص الذي أراده الرئيس كارتر أمكن جعله مأدبة رسمية بملابس السهرة وتغير وقت ايواء الرئيس الى جناحه الخاص للراحة من العاشرة مساءً كما كان يرغب إلى منتصف الليل. الشيء الوحيد الذي لم يطرأ عليه تغيير هو مدة الزيارة.

نظراً لأن رئيسي الدولتين كانا قد اجتمعا قبل فترة وجيزة فقط في واشنطن لم يكن هناك الآن قضية ملحة جديدة تستحق اعداد جدول للمباحثات بين الشاه والرئيس كارتر. ولكن الشاه الذي يعرف جيداً مدى تركيز تفكير الرئيس كارتر على قضايا الشرق الأوسط بصورة عامة والمشكلة الفلسطينية بصورة خاصة وجد في زيارة الرئيس كارتر فرصة طيبة للوفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه أمامه في واشنطن لبذل وجهوده والاستفادة من صداقته الحميمة بالملك حسين وحثه على الانضمام إلى عملية السلام واعطاء الجزء المتعلق بالضفة الغربية من اتفاقيات كامب ديفيد دفعة قوية للأمام. وهكذا اتفق الشاه مع الملك حسين ليأتي إلى إيران بزيارة خاصة قبيل وصول الرئيس كارتر وبذلك يتمكن من الجمع بينهما. وهكذا كان الملك حسين موجوداً في ايران يوم وصول الرئيس كارتر.

هذه هي الظروف التي جمعت بين رؤساء الدول الثلاث في طهران في اليوم الأخير من سنة 1977 وتركزت مباحثاتهم حول القضايا المرتبطة باتفاقيات كامب ديفيد. الشاه الذي كان شديد الاعجاب بأنور السادات وصديقاً حميماً للملك حسين وضع ثقله مع جهود الرئيس كارتر لاقناع الملك حسين للانضمام إلى عملية كامب ديفيد ولكن الملك كان يشعر بالقلق من رد فعل منظمة التحرير الفلسطينية المتطرفة وكذلك من موقف السعوديين المحافظين.

بعد انتهاء المناقشات في المواضيع الجوهرية تحول الاهتمام نحو المأدبة الرسمية التي ستقام في مساء ذلك اليوم للرئيس كارتر. السبب في هذا الاهتمام هو أن مشكلة مراسمية قامت بسبب وجود الملك حسين. فالملك رغم أنه كان ضيف الشاه إلا أنه حسب تقاليد المراسم الايرانية لا يتمكن من حضور المأدبة دون أن يكون مكان جلوسه على المائدة متقدماً على مكان الرئيس كارتر. وليس هذا لأن

الملك كان رئيس دولة أقدم من مدة رئاسة الرئيس كارتر وإنما لأن المراسم في الدول الملكية تقدم رئيس دولة بالوراثة على آخر منتخب. ولهذا السبب تغيب الملك حسين عن حضور حفلة العشاء الرسمية. في الحقيقة وجدت المراسم الإيرانية التي طبقت في تلك الحفلة مثيرة للسخرية للطريقة غير اللائقة التي رتبت بموجبها أماكن جلوس المدعوين. ما عدا الرئيس كارتر وزوجته اللذان جلسا بجانب الشاه وزوجته في وسط المائدة الطويلة التي كانت على شكل حدوة حصان كانت المقاعد الأخرى القريبة منها مشغولة بشكل كامل من قبل أفراد العائلة البهلوية كالأشقاء وأنصاف الأشقاء والشقيقات وأنصاف الشقيقات إلى آخر ما هناك في القائمة الملكية الطويلة بينما جلس وزير خارجية الولايات المتحدة وغيره من الشخصيات الأمريكية المهمة في أماكن غير لائقة بمراكزهم الرفيعة.

من الأشياء التي تذكر عن تلك المأدبة أيضاً هي الكلمة القصيرة التي ألقاها الرئيس كارتر عند تبادل الأنخاب. ولما كانت السفارة قد أعدت صيغة هادئة لا تثير الجدل شعرنا بالدهشة والذهول عند سماعنا للرئيس وهو يقول واصفاً الشاه أنه «محبوب من قبل شعبه وعزيز عليه والساهر على منعة ورخاء هذه الواحة المستقرة في هذا الجزء المضطرب من العالم» وكانت كلمة ملؤها الرياء. لقد أضر ذلك الخطاب المرائي بسجل ادارة كارتر ضرراً كبيراً ولمدة طويلة قادمة.

بعد انتهاء حفلة العشاء تبلغ الصحافيون الثلاثة الذين وجهت إليهم الدعوة لحضور المأدبة بناءً على اقتراح من البيت الأبيض بنبأ تعديل طرأ على برنامج رحلة الرئيس في اليوم التالي باضافة توقف قصير في مدينة أسوان لمقابلة الرئيس أنور السادات.

بعد العشاء انضم الملك حسين لبقية الضيوف وانسحب الكبار الثلاثة ومعهم السيدتان قرينة الرئيس كارتر وقرينة الشاه «شاهبانو» إلى غرفة استقبال صغيرة مجاورة للصالون الرئيسي. بعد فترة من الوقت انتقلنا جميعاً إلى غرفة أخرى أقيم في احدى جوانبها مسرح مؤقت لمشاهدة فرق فولكلورية ايرانية للرقص والغناء. في أثناء العرض حاولت قرينة الشاه اقناع الرئيس كارتر بالبقاء

حتى منتصف الليـل لاستقبال السنـة الجديـدة وبعـد أن حصلت عـلى مـوافقتـه أرسلت ولي العهد لاعداد حفلة رقص في غرفة المكتبة وهكذا انتقلنا بعد انتهـاء العرض الفولكلوري إلى غرفة المكتبة للاحتفال بقدوم العام الجديـد 1978. كان ولي العهد وشقيقته قد أقاما على الشرفة الداخلية المطلة على أرضية الغرفة جهازاً «سـتريو» وبعض الاسـطوانات الـراقصة التي بـاشرت بالعـزف بعـد دقـائق من دخولنا إلى الغرفة. افتتـح الشاه حفلة الـرقص بدعـوة عقيلة الرئيس كـارتر كـما رقص الـرئيس مع الشـاهبانـو والملك حسين مـع الأميرة أشرف ثم انضم إليهم بقية الحاضرين في حلبة الرقص أزواجاً أزواجاً. أما أنا فقد دعوت قـرينة رئيس الوزراء اموزغـار من باب المجـاملة واللياقـة. في أثناء الـرقص وقع نـظري على الملك حسين وزميلته الأميرة وكلاهما لا يزيد طوله عن خمسة أقدام وهما يـرقصان بصورة آلية وعيونهما تحدق في الفضاء.

الحـادث الطريف الـذي حدث في حفلة الـرقص هو أن ولي العهـد الذي لم يتجاوز عمره السابعة عشرة وأخته التي لم تتجاوز السادسة عشرة يبدو أنهما شعرا بالضيق والملل من الاستماع لتلك الألحان الهادئـة التي يعود تـاريخها إلى سنـوات الأربعينات والخمسينات فقررا فيما بينهما أن الوقت قد حان لاستبـدالها بمـوسيقى حـديثـة كثـيرة الصخب والضجيـج التي يميـل إليهـا الشبـاب وهكـذا فـوجىء الراقصون بموسيقى صاخبة «روك» وتوقف معظمهم عن الرقص بينما كان الشـاه يقوم بايماءات بيديه لابنه على الشرفة لوقف هذا الضجيـج والأمير يـومىء بدوره لأبيـه وكأنـه يناشـده الموافقـة على استمـرارها وأخيـراً توقف الـرقص في الطابق الأرضي وجلس الجميع يتفرجـون على ولي العهـد وشقيقته وهمـا يؤديان أحـدث الـرقصات وأكـثرها تعقيـداً بمزيـد من المهارة والنشـاط والحبور ممـا دفعنـا جميعـاً للتصفيق اعجاباً واستحساناً.

في صباح اليوم التالي وكان اليوم الأول من العام الجـديد كـان الرئيس كـارتر وعقيلته على أتم الاستعداد للسفر في وقت مبكر. في المطار جرى توديـع رسمي بحضـور الشاه وقـرينته وعـدد كبير من أعضـاء العائلة المـالكة وكبـار المسؤولين الايـرانيين بـالاضافـة إلى أعضاء سفـارتنا وعـدد من أبناء الجـالية الأمـريكية في طهـران. بعد أن قـام الـرئيس كـارتـر وعقيلتـه بتـوديـع الشـاه وعقيلتـه وبقيـة

الحاضرين الإيرانيين انتقل لتحية أعضاء الجالية الأمريكية الواقفين في صف طويل فودعهم مصافحاً ومازحاً قبل أن يستقل طائرته.

بعد انتهاء مراسم التوديع واقلاع طائرة الرئيس سألت الشاه فيما إذا كان يود لقاء أعضاء الجالية الأمريكية الذين كانوا ما يزالون في أماكنهم بانتظار مغادرة كبار المسؤولين فأبدى الشاه سروره بذلك وتقدم باتجاه الصف الطويل كما شاهد قبل قليل الرئيس كارتر وهو يودع المودعين فرداً فرداً. في البدء كان يبدو على الشاه شيئاً من التحفظ ولعله شعر أيضاً بشيء من القلق مما قد يسمعه من تعليقات من هؤلاء الأمريكيين الأغراب. ولكن مع مرور الوقت بدأ يبدو أكثر انشراحاً وانسجاماً وصار يحرك يديه بنشاط وقوة لمصافحة الأيدي الممدودة نحوه كما يفعل أي مرشح سياسي أمريكي كما أنه توقف أحياناً مع البعض منهم لالتقاط صورة معه.

أكمل الشاه مصافحة جميع الأمريكيين الحاضرين هناك ورافقته إلى سيارته فصافحني بحرارة وقال بصوت يتهدج بالعاطفة وأثار دمعة في مقلتيه: «أنتم الأمريكيون أناس لطفاء حقاً».

13

تذمر ومظاهرات وعنف

الاحتياطات الأمنية التي اتخذتها الحكومة الإيرانية أثناء زيارة الرئيس كارتر كانت في غاية الاحتراس والشدة اشتركت فيها قوات كبيرة من الجيش والشرطة والأمن الذين انتشروا في كل مكان يمر فيه موكبه الرسمي بعد أن أخليت الشوارع من الناس. هذا الحذر الشديد يعود سببه لتخوف السلطات من أن تتحول حوادث الشغب التي بدأت تظهر منذ مدة في جامعة طهران الى اضطرابات ومظاهرات في الشوارع بصورة مفاجئة فتفسد على الحكومة الانطباع الذي تريد أن يحمله معه الرئيس كارتر عن الأوضاع الداخلية. في كل الأحوال نالت تلك الاحتياطات الحكومية الرضى والارتياح لدى رجال الأمن الأمريكيين المسؤولين عن حماية الرئيس وحاشيته من أي اعتداء أو محاولة اغتيال.

ولكن ما تخوفت الحكومة من وقوعه أثناء زيارة الرئيس كارتر القصيرة حدث فعلاً بعد رحيله عندما قامت مظاهرة صاخبة دموية في مدينة قم في أوائل 1978.

تقع مدينة قم على حافة الصحراء جنوبي طهران وهي مدينة أصبحت عبر سنوات طويلة المركز الروحي للحركة الإسلامية الشيعية. تضم مدينة قم في شوارعها القديمة المرصوفة بالحجارة وأزقتها الضيقة الملتوية عدداً من المدارس الدينية التي يتخرج منها عدد كبير من رجال الدين الناشئين يجري توزيعهم في مختلف أنحاء البلاد ويطلق عليهم اسم «ملاّ» وكان هناك عام 1978 ما لا يقل عن أربعة من هذه المعاهد الدينية في قم يشرف عليها علماء بارزون ومن المحافظين على تعاليم القرآن.

التركيز الشديد في قم على تعاليم القرآن والحضارة الإسلامية كان يعني بطبيعة الحال مقاومة سياسة الشاه العلمانية ويفسر أيضاً موقف رجال الدين في النزاع الحاد الذي نشب عام 1962 بين الشاه وآية الله خميني.

القسم الأكبر من الطلاب الذين يلتحقون بالمدارس الدينية ينتمون لمجتمعات محافظة وخاصة من المناطق الريفية البسيطة ولكنهم خلال سنوات الدراسة الطويلة في قم يتعلمون كثيراً من النعوت والمصطلحات التي يصوغها أساتذتهم لاستعمالها ضد الشاه. أما زعماء المعارضة المتنورون وخاصة في العاصمة طهران فقد اقتبسوا من علماء الشيعة طريقتهم في التعبير عن معارضتهم باللجوء إلى آيات قرآنية وأقوال الرسول لتحقيق أغراضهم السياسية. ولما كان ممنوعاً ومحرماً على الناس التعبير عن معارضتهم بصراحة واطمئنان أمام الشاه لذلك أصبح من المألوف أن يستشهد المتحدث بآية من القرآن للادلاء برأيه بدل الكلام الصريح.

ترافق مع هذه الأوضاع السياسية ظهور بعض فقهاء الدين من الشبان الذين حاولوا إيجاد قواعد لدولة إسلامية حديثة تتفق مع تعاليم الإسلام ومتطلبات العصر الحاضر. في مقدمة أولئك العلماء الدينيين الشبان «علي شريعتي» الذي كتب عدة كتب في الفقه الإسلامي والاقتصاد الاسلامي وغير ذلك من الأبحاث الإسلامية أراد منها أن يبرهن على أن بمقدور الاسلام ايجاد صيغة عصرية لاشتراكية دينية (ثيوقراطية) تكون أقرب إلى النظم الاجتماعية الإسلامية المبكرة في عهد الرسول في اندماج ديني وسياسي تقليدي بحيث تتحدى النظريات الاقتصادية الغربية من اشتراكية وشيوعية ورأسمالية. وهكذا دخلت قم العتيقة في حياة فكرية وسياسية متعددة الأوجه والجوانب. كانت بذور الثورة تختمر في صدور وعقول الناس رغم الجو الديني الهادىء الذي كانت تعيشه مدينة قم، ولكن في شهر شباط 1978 تحول الهدوء الظاهري فجأة إلى عاصفة بشكل مظاهرات ضخمة في شوارع المدينة تصدّت لها قوات الشرطة بمزيد من القسوة والنار والحديد مما أوقع الكثير من المتظاهرين بين قتلى وجرحى وكان ذلك بداية مسلسل طويل من الأحداث الخطيرة إذ أعلنت القيادة الروحية الحداد العام على أرواح الشهداء لمدة أربعين يوماً. فمجابهة جديدة أثناء فترة الحداد وضحايا جدد

وحداد جديد وهكذا استمر هذا المسلسل المخيف حتى النهاية. في مدينة تبريز الصناعية في الشمال ظهرت بوادر الاضطرابات في شكل آخر. فلقد نزح إلى هذه المدينة خلال السنوات الأخيرة عشرات الألوف من الشبان القادمين من مختلف المناطق الريفية الفقيرة بحثاً عن العمل والأجور المرتفعة التي ستوفر لهم الغنى وحياة الرفاهية بعد أن أصيب القطاع الزراعي في البلاد بالركود والشلل بسبب تركيز اهتمام الحكومة على المشاريع الصناعية وإهمال الزراعة. هؤلاء الشبان الباحثون عن الذهب في المدن حيث الرخاء والازدهار جاءوا من مناطق ريفية ومجتمعات إسلامية محافظة كان رجل الدين في قراهم الصغيرة يمثل في نظرهم السلطة الإلهية ويحظى بكامل ولائهم واحترامهم وذلك بخلاف الموظف الحكومي القادم من طهران. الحياة في المدينة بالاضافة إلى أنها لم تحقق لهم ما كانوا يصبون إليه من رفاهية وثروة فإنها أيضاً صدمتهم في عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم ومعتقداتهم. فالأشرطة السينمائية الخليعة والنساء والفتيات المتبرجات وملابسهن الضيقة والملتصقة بالجسد أو القصيرة ما فوق الركبة بعدة سنتمترات لم يستطع ابن الريف المحافظ المتمسك بتعاليم دينه وتقاليده أن يستسيغ مثل هذه المناظر التي يعتبرها قبيحة وبغيضة ومحرمة.

ثم ان الأجور المرتفعة نسبياً التي كانوا يتقاضونها في المدينة ولو أنها كانت أعلى بكثير مما يحلم به المزارع الريفي إلا أنها لم تمكنهم من توفير مبلغ محترم يمكن اعتباره رصيداً يعتمد عليه ويمكن استغلاله وذلك بسبب تكاليف الحياة المرتفعة في المدينة. فأسعار الطعام واللباس والسكن بالإضافة الى احتياجاتهم الضرورية الأخرى كانت تستنفد الجزء الأكبر من أجورهم ورواتبهم. بالاضافة إلى كل هذا كانت هناك مشكلة السكن وظروفه فإنهم يعلمون أن العمارات والمباني الجميلة والبيوت والقصور الفخمة تقوم بجهودهم وأكتافهم وعرقهم لينعم بسكناها نخبة موسرة ومرفهة من الناس أو تبقى خالية شهوراً طويلة بانتظار أصحاب الحظ السعيد ويقارنون هذه الأماكن الجميلة التي تتوفر فيها جميع أسباب الراحة بتلك الأكواخ الحقيرة التي يعودون إليها بعد انتهاء أعمالهم في المساء لتمضية سواد الليل في غرف معتمة شديدة الرطوبة والعفونة بمعدل ثلاثة أو أربعة أشخاص في الغرفة الواحدة.

كـل هذه العـوامل والـظروف الحيـاتيـة القـاسيـة وعـدم تمكّنهم من التكيف والانسجام مع ظروفهم الجديدة وشعورهم بالغربة والانفصام عن هـذا المجتمع الـذي ألقت بهم ظروف الحيـاة في وسطه أدى بـالتـالي إلى شعـورهم بـالضيـاع والتذمر والنقمة فاتجهوا إلى المكان الوحيد الذي باستطاعته أن يعيـد إلى نفوسهم الهدوء والسكينة والـراحة أي إلى الجـامع حيث يشعـرون فيه أنهم بـين اخوانهم وأقرانهم وهو الجو الديني الذي نشأوا وترعرعـوا فيه حيث يؤدون فـرائض دينهم ويستمعون لمواعظ رجـل الدين. في أيـام الجمعة كـانت الجوامـع تكتظ بألـوف المصلين لصـلاة الجمعة والاستـماع لخـطبـة الجمعـة التي بـدأت في تلك الأثنـاء تصطبغ بصبغة سياسية كما أصبحت الخـطب تكاد تكـون نفس الخطبـة في جميع المساجد وبصوت آية الله خميني. فلقد وجد آيـة الله في منفاه في مـدينة النجف العراقية طـريقة فعـالة وسهلة لإثـارة جماهـير الشعب الايراني ضـد الشاه فكـان يسجـل الخطبـة على «شريط» ويقـوم أعوانـه بتهـريب ذلـك الشريط إلى ايـران بواسطة أحد الايرانيـين الذين يؤمـون تلك المدينـة الشيعية المقـدسة في العـراق للزيـارة. في ايران يقـوم اعوان خميني بعمـل عـدة مئـات من النسـخ من ذلـك الشريط وتـوزيعها في مختلف أنحـاء ايران. وليس من الصعب معـرفة مضمـون تلك الخطب المهربـة إذا ما عـرفنا مـدى كراهيـة آية الله خميني واحتقـاره لعائلة بهلوي وكـل ما يمثله النـظام البهلوي. فصوت الخميني كـان أعلى صـوت ضـد تطبيق العلمانية في ايـران منذ الأيـام الأولى وهو الـذي تصدى بقـوة وعناد لكـل محاولة ترمي لتسير في خطى كمال أتاتورك في تركيا وهو ما كـان يهدف إليـه رضا شاه منذ استيلائه على السلطة في ايران في أوائـل العشرينات من القـرن الحاضر ثم واصل ابنه محمد رضا شاه خطوات أبيه.

كانت رسالة آية الله خميني للشعب الايراني بسيطة ومفهـومة من قبـل مختلف الطبقات والمستـويات عنـدما كـان يُرجِـع جميع الأمـراض التي تعاني منهـا ايران لأعمال الشاه وسياسته وأفكاره فكان يقول لهم في خطبـه. . . «إن جميع المشـاكل التي تعيشونها ناجمة عن سياسة الشاه الخاطئة فـإذا أردتم حل مشـاكلكم تخلصوا من الشاه وتخلصوا من عائلة بهلوي!». كان فعل هذا الكلام البسيط في أوساط طلاب المعاهد الدينية في مدينـة قم وأوساط العـمال الشبان المتـذمرين في مـدينة

تـبريز كفعـل شرارة كهربـائية تصيب كـدساً من حـطب شديـد الجفاف فتفجـر الوضع بشكل مظاهرات صاخبـة في الشوارع . وإذا كـانت السلطة قد تصرفت بطريقة متهـورة عندمـا قررت استعـال قوة النـار لتفريق المـظاهرات في قم فـإن الـطريقة التي تصرفت فيهـا في تبريـز دلت على غبـاء كبير. فحـين خرجت أول مظاهرة في تبريز أعلنت قوات الأمن عن اغلاق جميع جوامـع المدينـة وأقامت في مداخلها المتاريس لمنع المتظاهرين من الـدخول فـزاد ذلك من اهتيـاج العواطف واتجهت تلك الجمـوع الغفيرة نحـو الشوارع الـرئيسية وأشعلوا الحـرائق في دور العرض وحطموا مخازن بيع الخمور وكل شيء آخر يعتـبرونه مـظهراً من مـظاهر المدنية الغربية التي يستهجنونها ولا يتقبلونها.

بـدخول شهـر آذار/مارس 1978 انتشر نفس مـا حصل في تـبريـز إلى مـدن أخرى وخاصة أصفهان وشيراز بفعل أشرطـة آية الله خميني التي كـانت تتضمن خطبه وتـوجيهاتـه السياسيـة والتي تسمع في الجـوامع . ومـع اقتراب ربيـع ذلك العـام كانت الاضـطرابات قـد انتشرت في جميع أنحـاء إيران والتـذمر الشعبي الـذي تمكن نظام الشـاه من الإبقـاء عليـه راكـداً تحت غـطاء ثقيـل من الكبت والقمع لمدة طويلة أصبح الآن اضطرابات واسعة ودموية لا مثيل لها من قبل.

بداية الاحداث لم تكن مصحوبة باتجاهات سياسية معينة أو مطالب محددة كما أنه لم تكن هناك قيادة تديرها وتوجهها. فالزعامات السياسية القديمة سواء كانـوا من صفوف الطبقـة الارستقراطيـة أو الحزب الـديمقراطي الاشـتراكي أو الفئات الشيوعية كانوا جميعهم يخضعون لرقابة مشددة من السافاك ولذلك لم يتحركوا في بـداية الأمـر للاستفـادة من الأوضاع المضـطربة لعـدم تأكـدهم من قدرتهـا على الاستمرار أمام أجهزة البطش الحكومية. بالاضافة إلى ذلك فـإن بعضهم كانـوا ما يزالون في السجون أو المعتقـلات وبالنتيجـة لم يقدم أحـدهم على النـزول الى الشارع وقيادة الجماهير الثائرة.

في الـواقع كـان الرأي السـائد في أوسـاط المراقبـين الأجانب منهم وكـذلـك الوطنيين، والتفسير الذي كانوا يقدمونه للاضـطرابات التي اجتـاحت البلاد مـع بـداية ربيـع 1978 ثم أخذت بـالتراجـع تدريجيـاً مع اقـتراب ذلك الفصـل من

نهايته، انها تعبير عن القلق والآلام لفترة المخاض التي يمر بها المجتمع الايراني في انتقاله السريع من مجتمع إسلامي محافظ وتقليدي يقوم على اقتصاد زراعي إلى مجتمع عصري في نمط حياته غربي في تطلعاته ومستقبله يجري بناء اقتصاده على أسس صناعية. ولم ينس هؤلاء المفسرين أن يرجعوا الاضطرابات إلى عوامل أخرى اضافية كانتشار الفساد وحالة التمزق الاجتماعي وكذلك المعارضة الدينية. قليل من الناس من اعتقد أن نظام الشاه يواجه مشكلة سياسية معقدة قد يتولد عنها آثار ونتائج خطيرة بالنسبة للتاج. الشخص الوحيد الذي خرج على هذا التقييم وتوقع أسوأ النتائج للاضطرابات هو موظف شاب في السفارة الفرنسية (ضابط مخابرات) عندما تنبأ بسقوط الشاه عن عرشه خلال سنة. وانتشر تنبؤ موظف المخابرات الفرنسية داخل الوسط الدبلوماسي في طهران بسرعة البرق وأصبح موضوع الحديث الأهم داخل السفارات. ولكن استنتاج الآخرين ومن ضمنهم سفارتنا لم يكن متشائماً كل التشاؤم. فلقد شعرنا جميعاً أن الشاه يواجه وضعاً صعباً وأزمة حقيقية وشعرنا أيضاً أن خططه الاقتصادية وعملية التصنيع القسرية التي فرضها على شعبه بطريقة أشبه بالقفزات منها إلى خطوات وئيدة بدأت تحدث تخلخلاً في نسيج المجتمع الايراني المحافظ وجذور عقيدته الدينية، الأمر الذي ينتج عنه ـ كما هو حاصل فعلاً ـ ردود فعل عنيفة في الأوساط الشعبية. ولكننا مع ذلك لم نر في الاحداث الجارية مقدمة أو بوادر ثورة عامة وكاسحة ـ كما وقع فعلاً بعد ذلك ـ في طول البلاد وعرضها. في التقرير الذي أرسلته إلى واشنطن حول مجريات الأمور والأوضاع السياسية في ايران قلت إن الشاه يواجه أمامه طريقاً شديدة الوعورة والخطورة ولكنه لا يبدو أنه أدرك الظروف والأسباب التي أدت إلى هذا التذمر الشعبي العام كما أنه ليس هناك ما يدل على توفر النية لدى الشاه وحكومته لإزالة أسباب شكاوى الناس من أجل اعادة الهدوء والاستقرار. فالشاه يكتفي بتوجيه تهمة تحريض الجماهير تارة إلى جهات أجنبية خفية وتارة أخرى للشيوعيين أو رجال الدين. وقد أحجمت في تقريري عن التنبؤ بالمستقبل رغم اشارتي لاحتمال اتساع الاضطرابات من حيث رقعتها وعنفها إذا ما استمرت السلطة في تطبيق سياسة الحديد والنار بأمل إعادة الهدوء والاستقرار. أخيراً ختمت تقريري بالقول إن

الصراع قد يكون طويلاً ومعقداً وليس هناك من حلول سريعة وسهلة للأزمة الحادة التي تواجه النظام الملكي البهلوي.

بناءً على هذا التقييم للأوضاع الداخلية ونظراً لأننا لم نتمتع خلال ثلاث سنوات متتالية باجازة طويلة في الوطن رأيت أن من الأفضل أن نتمتع بهذه الاجازة خلال فصل الصيف 1978 وليس بعد ذلك لافتراضي أن ما قد يحدث بعد هذا التاريخ قد لا يسمح بمغادرتي مركز عملي. ولما كنت أعلم أن زميلي السفير البريطاني يتأهب هو الآخر للسفر في اجازة طويلة إلى بريطانيا بحثت الموضوع معه واستنتجنا معاً أن ليس هناك من سبب وجيه لإلغاء فكرة الذهاب بإجازة خلال فصل الصيف. وهكذا قررت السفر مع عائلتي الى الولايات المتحدة خلال فصل الصيف على أن أعود إلى مركز عملي في طهران عند انتهاء شهر رمضان الذي سيصادف في تلك السنة في شهر آب/ أغسطس حسب التقويم الغربي.

خلال الأسابيع القليلة الباقية من فصل الربيع واقتراب موسم الصيف أي عندما بدأنا نهيىء أنفسنا للمباشرة في الاجازة اتخذت بعض الفئات المعارضة لنظام الشاه خطوات تدل على نشاط سياسي جديد. ويبدو أن المظاهرات الشعبية قد شجعت رجال الأحزاب السياسية القديمة، ومعظمهم من بقايا الحزب الديمقراطي الاشتراكي، الذي كان فعالاً لفترة قصيرة في عهد حكومة الدكتور مصدق على الخروج من حياة المعتكف والتحرك في محاولة لأخذ زمام المبادرة. وكانوا في غالبيتهم من الذين أتموا دراساتهم في جامعات الغرب ويعتبرون أنفسهم من أتباع مذهب الليبرالية السياسية ولذلك لم يكونوا قطعاً شيوعيين. ومع أن الشاه كان يعاملهم بازدراء ويعتبرهم دمى شيوعية إلا أن للكثيرين منهم ماضياً سياسياً حافلاً. في العام 1978 كان معظم هؤلاء الرجال في أواخر الستينات أو أوائل السبعينات من العمر أمضوا سنوات طويلة بعد سقوط حكومة مصدق يعيشون تحت رقابة السافاك وزج ببعضهم في السجون وتعرض بعضهم لآلام التعذيب الجسدي. ومع أن نشاطهم السياسي كان مجمداً طيلة السنوات الماضية إلا أنهم ما زالوا يعتبرون أعضاء ـ ولو اسمياً ـ في الجبهة الوطنية الممنوعة من العمل السياسي.

اقتصر نشاط هؤلاء السياسيين القدامى في بداية الأمر على ارسال رسائل بدون أسماء إلى بعض الصحف المحلية يقترحون فيها عدداً من الاصلاحات السياسية والاجتماعية تلى ذلك اصدار بيانات سياسية توزع باليد على جهات معينة. بعد ذلك ساروا خطوة جديدة فبدأوا يعقدون اجتماعات علنية وتوجيه رسائل تتضمن آراءهم وأفكارهم حول الأوضاع في البلاد إلى الشاه مباشرة. وأخيراً تسلمت رسالة شفوية منهم عن طريق طرف ثالث يبدون رغبة للاتصال بي شخصياً.

في احدى الأيام تلقيت دعوة لتناول العشاء من وزير الزراعة السابق الذي كنتُ أعرف أنه يؤيد ويتعاطف مع الجبهة الوطنية. بعد تناول العشاء فاتحني واحد من الضيوف للتحدث معي على انفراد وبعد أن جلسنا في ركن هادىء في غرفة الاستقبال وبدأ حديثه ممهداً لما يريده معي تقدم نحونا شخص كان معروفاً بولائه المتحمس للشاه مبدياً رغبته بالاشتراك معنا في الحديث فتوقف صاحبي عن الكلام وبقي بعيداً عني طوال السهرة.

هذا الحادث دفعني لأن أقرر مع نفسي ضرورة قيام السفارة بشكل جدي باقامة علاقات واسعة قدر المستطاع برجال السياسة المعارضين للنظام بواسطة زملائي وأعواني من الموظفين الدبلوماسيين في السفارة بدلاً من اتصالي المباشر بهم تجنباً لإثارة حساسية وشكوك النظام. وهكذا أصبح لسفارتنا مع نهاية فصل الربيع 1978 علاقات واتصالات واسعة ومتينة مع المعارضة السياسية وهو ما لم لكن موجوداً قبل ذلك التاريخ. لقد قيل الكثير عن انقطاع الصلة بين سفارتنا والمعارضة السياسية في ايران قبل سنة 1978. والملاحظة هي على العموم صحيحة. ولكن، لما كنتُ قد وصلت شخصياً إلى طهران سنة 1977 فإني لا أقدر أن أحدد بصورة دقيقة كم طالت تلك القطيعة بين سفارتنا والمعارضة. كما لا يمكنني أيضاً أن أشرح الظروف والأسباب التي أدت بالتالي إلى حدوث تلك القطيعة. ولكني سأتحدث قليلاً عن تجربتي الشخصية بهذا الشأن.

كان تعييني في ايران عقب انتهاء مدة سفارتي في الفيليبين حيث كان موضوع الاتصال بين السفارات والمعارضة جزءاً من الحياة اليومية ولهذا فإن الوضع

المختلف في ايران لفت انتباهي منذ الأيام الأولى بعد وصولي. ولما حاولت اصلاح هذا النقص في نشاط السفارة من وجهة نظر العمل الدبلوماسي اكتشفت أن مختلف فئات المعارضة تتجنب كل علاقة لها مع السفارة الأمريكية بسبب عدم ثقتهم بالسفارة نتيجة انطباع خاطىء تكوَّن في أذهانهم عن صلاتنا الوثيقة المزعومة بالنظام والسافاك(*). بالإضافة إلى هذا كان رجال المعارضة جميعاً دون استثناء عليهم رقابة صارمة من السافاك الذي يعتقد الناس أن عيونه ترى كل حركة وان آذانه تسمع كل همسة وان كل صلة بالسفارة سوف تكتشف فوراً. ثم انهم بعد هذا وذاك كانوا شبه يائسين من امكان حدوث أي تغيير في نظام الشاه عن طريق العمل السياسي. ولكن لما تبدل هذا الوضع خلال ربيع 1978 بسبب المظاهرات الجماهيرية تحركت السفارة بسرعة وتمكنت من اقامة صلات مع بعض الجهات المعارضة بدرجة طيبة من الثقة والسرية. فهمت من بعض الدبلوماسيين الذين سبق لهم الخدمة في طهران والذين وصل بعضهم مؤخراً لمساعدتنا على توسيع حلقة اتصالاتنا بالمعارضة انهم كانوا قد منعوا من ممارسة مثل هذا النشاط ولستُ أدري طبعاً إذا كان المنع بناءً على اجتهاد شخصي للسفير الذي كان المسؤول آنذاك أم كان نزولاً عند رغبة الشاه. وفي كل الأحوال أستطيع الآن أن أقول عن تجربتنا الشخصية اننا لم نتعرض لضغوط من أي جهة ايرانية رسمية بسبب العلاقات التي استطعنا إقامتها في تلك الآونة مع أوساط المعارضة. النشاط السياسي الذي بدأه قادة الجبهة الوطنية في أواخر ربيع 1978 لم يبق خافياً عن عيون وآذان السافاك وبالتالي عن الشاه نفسه، كما أنه لم يمر دون عقاب. ففي احدى اجتماعاتهم هوجموا من قبل أشقياء مسلحين بالعصيّ والهراوات وفرقوا شملهم بعد أن انهالوا عليهم بالضرب الذي ترك آثاره على أجسادهم فترة غير قليلة. وتعرض بعضهم للضرب المبرح في شارع عام في طهران كما سطا بعض المجهولين على بيوت بعضهم الذين بعد أن حطموا ما صادفهم من أثاث وأدوات حملوا معهم أوراقاً وبعض الأشياء

(*) يثير المؤلف تناقضاً واضحاً، وباعترافه عندما يتحدث عن «الصلات المزعومة بالنظام والسافاك». ذلك أن هذا لا يحتاج الى تدليل ومن خلال ما سجله المؤلف نفسه على صفحات هذا الكتاب فكيف يمكن للمعارضة الايرانية أن تثق بممثلي الولايات المتحدة؟ الناشر.

الثمينة. ونسبت الشرطة جميع تلك الجرائم إلى لصوص مجهولي الهوية وكأنها لم تكن جميعها من تدبير السلطة الحاكمة المسؤولة عن أمن المواطنين. في غضون ذلك واصلت سفارتنا جهودها لتوسيع حلقة معارفها وصلاتها مع أوساط المعارضة على أسس من الثقة المتبادلة والاحترام والسرية.

كان بعضهم تبدو عليه الدهشة والاستغراب عندما يكتشف تعاطفنا معهم في المشاعر ولو أننا لا نشجعهم بأي حال من الأحوال على دورهم في معارضة الشاه. أذكر على سبيل المثال حفلة عشاء أقامها أستاذ جامعي سابق في منزله حضرتها بدعوة منه عن طريق دبلوماسي شاب في سفارتنا الذي اصطحبني إلى هناك. التقيت في الحفلة رهطاً من شخصيات معروفة من الكتاب والادباء والوسط الجامعي الذين كان لكل منهم تجربته الخاصة مع السافاك والسجون والمعتقلات. بعد الانتهاء من تناول الأطباق الفارسية الشهية ألقى صاحب الدعوة كلمة قصيرة رحب فيها بحضور السفير الأمريكي ثم تطرق إلى موضوع حقوق الإنسان وأشاد بالجهود التي يبذلها الرئيس كارتر بصفته رئيساً للولايات المتحدة لاحترام هذا المبدأ الإنساني الرفيع في مختلف أنحاء العالم. ومع أنه تجنب الخوض في مسألة احترام حقوق الإنسان في ايران لعدم احراجي إلا أن رسالته اللبقة والمؤدبة كانت مفهومة من جميع الحاضرين وأنا من ضمنهم طبعاً. السفارات الأخرى في طهران كانت تبذل هي الأخرى جهودها سعياً وراء كل ما يساعد المسؤولين فيها على رؤية أكثر وضوحاً وجلاءً لما يحدث الآن وما هو متوقع حدوثه. من جملة تلك المحاولات كانت الندوة الشعرية التي أقامها معهد غوته في طهران للشعراء الإيرانيين من الشبان. استعد المعهد لاستقبال حوالي 200 شخص في ذلك المساء وهيأ أماكن الجلوس في احدى القاعات ولكن المسؤولين فوجئوا عندما وصل عدد الحاضرين بضعة آلاف بحيث لم يبق في داخل المبنى وحديقته الواسعة موطىء قدم. وقد لفت هذا الاقبال المنقطع النظير أنظار وشكوك عملاء السافاك.

السفارة الفرنسية التي حافظت طيلة الوقت على صلة طيبة بالجبهة الوطنية عن طريق ما يسمى بالدائرة الفرنسية وهي المجموعة التي تعتبر فرنسا الوطن

الفكري والثقافي للديمقراطيين الاشتراكيين فوجئت في الآونة الأخيرة بمختلف الآراء والاقتراحات السياسية يتقدم بها رجال السياسة القدماء بغية الحصول على موافقة وتأييد فرنسا. وهكذا تحول الخوف الإيراني من كل ما هو غريب والذي كان على الدوام مرضاً ايرانياً مستوطناً إلى رغبة ولهفة لعطف وتأييد الأجانب.

14

الاجازة الصيفية

رحلة الاجازة إلى الوطن في صيف 1978 أتاحت لي فرصة لزيارة واشنطن مرتين، الأولى في طريقي ذهاباً والثانية قبل عودتي إلى طهران. ومع أن كل زيارة كانت لأسبوع واحد فقط إلا أنها كانت كافية لبحث عدد من القضايا المتعلقة بعلاقاتنا الثنائية مع ايران. ونظراً لحالة القلق السياسي التي كانت تعيشها ايران في تلك الأثناء فإن هذا الموضوع أخذ جانباً مهماً من تلك المناقشات الطويلة. ولكن السؤال لم يكن إلى أين يمكن للاضطرابات أن تقود البلاد أو ما هي النتائج التي قد تنجم فيها إذا تمكنت الفئات المعارضة من تقويض نظام الشاه وإنما كان ما الذي تستطيع حكومة الولايات المتحدة أن تفعله استجابة لنداءات الحكومة الإيرانية المتكررة للمساعدة في مواجهة المشكلة القائمة! واصطدمت القضية فوراً بسياسة حقوق الإنسان التي ترعاها وتعتز بها إدارة الرئيس كارتر!!!(*).

السيدة «بات دريان» جاءت إلى وزارة الخارجية مع ادارة كارتر وعينت بمركز مساعد وزير الخارجية المسؤولة عن الاشراف على قضايا حقوق الإنسان على نطاق عالمي.

كان حبل الود بين هذه السيدة ومساعديها وبين الشاه مقطوعاً بسبب التهم

(*) مرة أخرى اشارات التعجب من قبل الناشر، وليس في أصل الكتاب.

التي كانت توجه إلى حكومته بانتهاك حقوق الإنسان ولم يكونـوا يخفون تـأييدهم وعـطفهم على خصـوم الشاه السيـاسيين بصرف النـظر عن ميـولهم واتجـاهـاتهم السياسية وبالتالي كانوا يعارضون تقديم أي مساعـدة لحكومـة الشاه قـد تستفيد منها للبطش بـالعناصر المعـارضة. حتى الغـاز المسيل للدمـوع كانـوا يعارضـون تزويد حكومة الشاه به. لذلك حاولت أثناء وجودي هناك التوصل لوضع قاعدة عامة لتسهيل تصدير هذه المادة إلى ايران دون الاضطرار في كل مرة لاجتياز كل تلك العوائق التي تضعها البيروقراطية في الطريق.

لما كان الغاز المسيل للدموع لا يعتبر سلاحاً مميتـاً وإنما من جملة المعـدات التي تستعملهـا قوى الشرطـة لقمع أعمال الشغب في المدن لـذلك لم يكن تصـديـره خاضعاً للقيود الموضوعة على الأسلحة. ولكن الكونغرس الأمريكي قيّد تصـدير هـذه المادة وجعله خـاضعاً للحصـول على اجـازة تصديـر. ومع أن الغـاز يمكن شراؤه تجـارياً إلا أنـه أصبح ضروريـاً الحصول عـلى موافقـة الجهات الـرسميـة لتصديره إلى الخارج.

كان رأيي الذي أبـديته أثنـاء مناقشـة موضـوع الغاز لإيـران أن استعمالـه في المظاهرات هو الأقل شراً من وجهة نظر حقوق الإنسـان فحكومـة الشاه عنـدما تواجه اضطرابات داخلية مصحوبة بأعمال العنف لا بد أن تتصـدى للمشاغبـين بما لديها من وسائل ولهذا من الأفضل حمايـة لحقوق الانسـان أن تستعمل الغـاز المسيل للدموع بدل استعمال أسلحة نارية فتاكة.

ومـع أن حامـلي مشعل حقـوق الإنسان في وزارة الخـارجية أبـدوا اقتنـاعهم بـوجهة نـظري إلا أنهم لم يتقبلوا فكـرة السماح بتصـديـر الغـاز إلى ايـران دون الحصول على موافقتهم المسبقة في كل مرة. أخيراً تدخل وزير الخارجية «فانس» وأصدر موافقته على منح اجازة التصدير إلى ايران بدون عراقيل ما لم تطرأ أمـور تجعل قراره غير ضروري.

القضية الأكثر أهمية من ذلك التي بحثت بمزيد من التفصيل تتعلق بمشتريـات إيران من الأسلحة والمعدات العسكرية الأمريكية. كان أمام المسؤولين في وزارة الخارجية في تلك الأثنـاء قائمـة مهمة من الأسلحـة والمعدات التي تـطلب ايران

شراءها لقواتها المسلحة. من جملة ما تضمنته تلك القائمة عدد كبير من طائرات اف 16 وعدد من طائرات اف 14 بالاضافة إلى نـوع جديـد من هذه الـطائرات مزودة بأجهزة حديثة تجعل من الممكن استخدامها بمثـابة منصـة لإجراء انتقـامي الكتروني. كما طلبت ايران ادخال تعـديلات عـديدة عـلى طائـرات اف 14 التي تمتلكهـا لرفـع وتحسين فعـاليتها بـاضـافـة بعض المعـدات والأجهـزة المتـطورة. بالإضافة إلى ذلك تضمنت القائمة شراء أربعـة طرادات من أحـدث ما أنتجتـه أحواض بناء السفن الأمريكية وعدداً من الغواصات لتعزيز وتقوية القوة البحرية الإيرانية.

تلك القائمة الإيـرانية الـواسعة قسمت الجهـاز البيروقـراطي في واشنطن إلى قسمين. العسكريون لا يعارضون بتاتاً تزويد إيران بكـل ما تـطلبه من أسلحـة ومعدات أمريكية. البعض من هؤلاء المجندين يعتقد بأهمية حضور إيـراني قوي وفعال في منطقة الخليج والمحيط الهنـدي. والبعض الآخر يعتقـد أن التوسـع في بيـع أسلحة أمـريكية لـدول صديقـة سيؤدي إلى زيـادة الانتـاج ومن ثم خفض تكاليفه ويجعل بالتالي مشتريات القوات الأمريكية لتلك الأسلحـة أقل أسعـاراً. وكان هناك بعض العسكريين ولو أنهم لا يعارضون بيع أسلحـة متطورة لايـران إلا أن لديهم شكوكاً حول قدرة القوات المسلحة الإيرانية على استيعاب وصيانـة هذه.الأسلحة المتطورة نظراً لما يعرفونه من افتقـارها للمستـوى التقني والتدريبي المطلوب ومن ثم يخشـون أن تعهـد مسؤوليـة تـدريب وتعليم أولئـك الجنـود الايرانيين بقدراتهم المتدنيـة على عـاتق البعثة العسكـرية الأمـريكية في إيـران اذ يرون مثل هذه المهمة شبه مستحيلة.

وزارة الخـارجية كـانت هي الأخرى مشتتـة الـرأي حـول مشـتريـات إيـران العسكرية من أمريكا. المسؤولون في دائرة المناطق الجغرافيـة لا اعتراض لـديهم على تزويد إيران بكل ما تطلبه من أسلحة ومعدات عسكرية. ويتفق رأيهم هذا مع مبدأ الرئيس نيكسون الذي كان يعتبر إيران ويتعـامل معهـا على أسـاس أنها تمثل قوة الغرب العسكرية في الخليج وجنوب شرق آسيا كما أنهم كانـوا ينظرون إلى الشاه كحليف موثوق وان مركـزه ثابت وراسـخ وقوتـه رصيد هـام وأساسي للولايات المتحدة.

ولكن رأي المسؤولين في قسم حقوق الإنسان كان مختلفاً عن رأي الآخرين، فهم يعارضون بيع الأسلحة الأمريكية للشاه لأنهم يعارضون سياسته الداخلية ويتهمونه بانتهاك حقوق الإنسان. ورغم علمهم بأن الأسلحة الأمريكية التي تباع لإيران لا علاقة لها البتة بممارسات السافاك ولن تستعمل داخلياً غير أن الحجة التي يتمسكون بها هي أن كل دعم عسكري للشاه سوف يشجعه على مواصلة سياسة البطش والقهر داخلياً. وانضم إلى هذا الرأي المعارض المسؤولون في دائرة التخطيط السياسي الذين يعتقدون أن استمرار الشاه في شراء المزيد من الأسلحة والمعدات العسكرية المتطورة تقنياً والغالية ثمناً يشكل عبئاً ثقيلاً على الميزانية العامة للدولة، الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى خفض الأموال المخصصة لمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ومع أني لا أوافق على صحة هذه النظرية من وجهة النظر الاقتصادية البحتة ولكني أجد فيها بعض الوجاهة حول علاقتها باليد العاملة الإيرانية. فالقوات المسلحة الإيرانية تستوعب عادة الجزء الأكبر من اليد العاملة المدربة والتي تتمتع بالكفاءات الفنية وبذلك تحرم المشاريع التنموية من كفاءتهم وخبرتهم.

في هذا الخضم من الآراء والأفكار المتضاربة وبعد مناقشات طويلة ومتشعبة تقرر بحث الموضوع برمته في جلسة تطرح فيها مختلف وجهات النظر ويرأسها «ليزلي غب» مدير الدائرة السياسية والعسكرية ومساعد وزير الخارجية. بعد أن استمع «غب» لمختلف الآراء خرج برأي معقول ومنطقي ثم اجتمعنا نحن الاثنين بعد انفضاض الاجتماع الموسع وقمنا بوضع قاعدة مناسبة لمشكلة بيع الأسلحة الإيرانية مع الأخذ في الاعتبار الاعتراضات المعقولة لأولئك الذين يعتقدون أن مشتريات الشاه من الأسلحة أصبحت تتسم بالإفراط والإسراف كما راعينا أيضاً متطلبات الأمن القومي لكل من ايران والولايات المتحدة. السياسة التي تقررت بشأن مبيعات الأسلحة لايران والتي ستتطلب بعد عودتي إلى إيران تلخيصها للبعثة العسكرية الأمريكية ترمي الى تشجيع الايرانيين على اعادة النظر في برامج شراء الأسلحة والمعدات العسكرية من الولايات المتحدة ليس فقط من وجهة نظر ما تمتاز به من تطور تقني وكفاءة قتالية ولكن التفكير أيضاً في الموارد التي سيحتاجونها لتأمين التكاليف المالية والأيدي العاملة المدربة

والماهرة لضمان استمرار أعمال الصيانة والادامة لتلك الأسلحة والمعدات بطريقة منتظمة ومبرمجة والاحتفاظ بها في حالة جيدة وفعالة في المستقبل. ونظراً للطبيعة العسكرية للمهمة المطلوبة سيعهد للبعثة الاستشارية العسكرية الأمريكية في طهران مهمة الاتصال بالجهات العسكرية الإيرانية المسؤولة وبحث الموضوع معهم. ولما كنا نعلم أن المسؤولين العسكريين الإيرانيين لم يهتموا في السابق باجراء تقدير دقيق لتكاليف الصيانة واليد العاملة في برامج مشترياتهم ونظراً لما كنا نعلمه أيضاً أن بعض كبار المسؤولين العسكريين الإيرانيين، وفي مقدمتهم قائد القوة الجوية، سبق وأعربوا عن شكوكهم بقدرتهم على استيعاب كل ما يريد الشاه شراءه، رأينا أن يطرح الموضوع بصورة مشكلة فنية وتقنية بحتة وليس كقرار سياسي أمريكي وذلك تفادياً لإثارة غضب الشاه وإحراجه الذي قد يتهمنا بالتدخل في شؤونه والوقوف عقبة أمام برنامجه للتسلح، الأمر الذي قد يدفعه للحصول على نفس الأسلحة من مصادر أخرى بينما عرض المشكلة على أنها تقنية بحتة يمكنه تقبلها دون حرج وبالتالي يقرر شخصياً بتشذيب قوائم طلباته باعتباره صاحب القرار ولم يفرض عليه من أحد. الموضوع الثالث الذي أردت متابعته أثناء وجودي في واشنطن هو نفسه مصدر قلقي القديم وما بدأته قبل نحو سنة في طهران وأعني الحصول على دراسة موضوعية ووافية لأوضاع الاقتصاد الايراني. حاولت مرة أخرى اقناع الجهات المختصة بوزارة خارجيتنا ووكالة المخابرات المركزية لبحث الموضوع من جديد وإكمال الدراسة. مع الأسف، مرة أخرى، ضاع مشروعي في جو بيروقراطية واشنطن الخانق ولم أجد من كان مستعداً للتفرغ لهذا الموضوع المهم ولكني وجدت من اقترح تحويل الموضوع من دراسة اقتصادية إلى موضوع واسع يشمل نظام الشاه ككل بما في ذلك النواحي الاقتصادية والسياسية ولما كانت مثل هذه الدراسة ليست مطلبي فقد صرفت النظر عن الموضوع برمته وأقلعت عن فكرة مصارعة البيروقراطية.

فيما بين زيارتينا لواشنطن أمضينا الوقت بزيارة الأقارب والأصدقاء. ثم قمنا بزيارة الى المكسيك لإكمال مشروع خاص بنا لم تسمح لنا الظروف من قبل لإكماله وإخراجه إلى حيز الوجود. فلقد كان الأمل يراودنا منذ مدة طويلة أن نمضي سنوات ما بعد الاحالة على التقاعد في المكسيك وفي مسكن نقوم ببنائه في

موقع جميل نستقر فيه. «كويرنافاكا» بلدة صغيرة تقع في منطقة جميلة بالمناظر الطبيعية حيث أمضينا عطلتنا الصيفية قبل عدة سنوات. وقد حالفنا الحظ في هذه الزيارة الجديدة وتمكنا من شراء قطعة أرض مرتفعة تشرف على سهل واسع يزخر بأشجار الصنوبر وبذلك خرج الجزء الأول من مشروعنا العائلي إلى حيز الوجود.

أتذكر بهذه المناسبة أني بعد عودتنا إلى طهران وأثناء إحدى لقاءاتي مع الشاه سألني عن كيفية تمضية الإجازة التي تمتعنا بها مؤخراً فحدثته عن قطعة الأرض التي اشتريناها في المكسيك فعلق بأنه يعرف المكسيك جيداً حيث أمضى قبل سنوات بعض الوقت في مدينة المكسيك كما زار أيضاً المنتجع الجميل «أكابولكو» ولكنه لا يعرف بلدة «كويرنافاكا» وأبدى رغبته أن أحدثه قليلاً عن تلك المنطقة. قلت انها تقع على ارتفاع عن سطح البحر مثل ارتفاع طهران وان الجو فيها معتدل لطيف في مختلف الفصول كما أنها غنية بمظاهرها الطبيعية الجميلة.

بعد مرور عدة أشهر على ذلك الحديث تفاقمت الثورة في ايران واضطر الشاه وعائلته على مغادرة بلاده وبعد أن تنقل من بلد لآخر استقر مؤقتاً في مدينة «كويرنافاكا» المكسيكية. في يوم من الأيام وجه إليه التلفزيون المكسيكي سؤالاً عن سبب اختياره «كويرنافاكا» مكاناً لإقامته فأجابه الشاه مردداً الوصف الذي كنت قدمته له عن المدينة والمنطقة وقال. . . «لأنها تقع على ارتفاع يماثل ارتفاع طهران ولأن جوها معتدل طوال أيام السنة ولأنها أيضاً محاطة بالمناظر الطبيعية الجميلة!».

كانت الأخبار التي تنشر وتذاع في وسائل الإعلام الأمريكية عن الأوضاع الداخلية في ايران أثناء وجودنا في الولايات المتحدة قليلة نسبياً ولهذا كنت حريصاً أثناء وجودي مرتين في واشنطن على قراءة التقارير والبرقيات الواردة من سفارتنا في طهران وخاصة مع بداية شهر رمضان. لم أجد في تلك المعلومات شيئاً مهماً غير خبر واحد يشير إلى ظاهرة رجوع عدد كبير من عناصر حزب تودة الشيوعي إلى إيران قادمين من المنفى في المانيا الشرقية.

بعد انتهاء زيارتنا الثانية الى واشنطن سافرنا إلى «اديروندداكس» لتمضية

بعض الوقت مع بعض الأقارب قبل عودتنا إلى طهران. في أثناء وجودنا في تلك المدينة سمعنا من نشرة الأخبار الصباحية في أحد الأيام عن حريق هائل في احدى دور العرض في عبادان الواقعة في منطقة الأهواز الإيرانية بينما كانت تغص بالرواد وان ما لا يقل عن 300 شخص ماتوا احتراقاً داخل مبنى دار العرض التي كانت جميع مخارجها الاضطرارية مقفلة. وذكر نفس الخبر أن المعارضة السياسية في ايران اتهمت عملاء السافاك بإشعال الحريق عمداً للقضاء على أكبر عدد من معارضي نظام الشاه. حادث مروّع ستكون له أسوأ الآثار السياسية. ومع أنه من الصعب أن يتصور الانسان امكان اقدام السافاك على ارتكاب مثل هذه الجريمة الوحشية ولكن من يدري! الشيء الأكيد هو أن المعارضة سوف تستغل هذه المأساة على أوسع نطاق لإثارة الجماهير وحشد عواطفها ونقمتها على السافاك والنظام. ومع أن السلطات ألقت القبض على عدد من الأشخاص بتهمة الحريق إلا أن الحقيقة ظلت مختفية وراء الاتهامات والاتهامات المضادة المتبادلة بين النظام والمعارضة وستبقى كذلك دون أن تثبت تهمة الجريمة على جهة معينة بصورة قاطعة وأكيدة. وكما توقعنا جميعاً فإن الفئات المعارضة تمكنت من استغلال الحادث لصالحها بعد أن جعلته الموضوع الرمز لخطب وشعارات الثورة التي أخذ زخمها في البلاد بالازدياد.

بعد عودتنا إلى إيران في أواخر شهر آب/ أغسطس 1978 وجدنا الأوضاع بصورة عامة كما كانت وقت سفرنا بالإجازة اذ لم يقع أثناء غيابنا ما يستحق الذكر عدا حادث حريق دار العرض في عبادان. الشيء الجديد الذي شعرنا به بعد رجوعنا هي أمزجة الناس وحالتهم النفسية إذ بدا لنا أن الشعور بالضيق والانفعال الذي يبدو على الناس عادة خلال شهر الصوم قد تحول إلى مشاعر قلق وغضب بعد أن أضيف إليه الشعور باحباط سياسي بدأت تظهر بوادره واضحة حتى في شوارع طهران.

15

الأحكام العرفية والمذبحة

انصب اهتمامي بعد عودتي إلى طهران على معرفة أهم الأحداث التي وقعت أثناء غيابي وما قد يكون لدى كبار موظفي السفارة الذين كانوا يديرون شؤون البعثة من أخبار ومعلومات.

الصورة التي عرضها زملائي عن الأوضاع كانت قاتمة. فالاضطرابات والمظاهرات ولو أنها لم تتغير عما كانت عليه قبل سفري ولكن الجو العام في البلاد يبدو أنه أصبح أكثر توتراً ومظاهر التذمر والاستياء أوسع انتشاراً ولم يعد هذا مقتصراً على طهران وإنما انتقل أيضاً لمعظم المدن الكبيرة. فتبريز مثلاً، التي كانت عادة من المدن المعروفة بولائها للشاه ونظامه يقول قنصلنا العام فيها إن روح المعارضة بدأت تتسرب بسرعة إلى أوساط المثقفين وصفوف العمال. ولم تختلف تقارير قناصلنا في أصفهان وشيراز في الفحوى عن تقرير قنصلنا في تبريز التي أكدت أن حركة المعارضة للشاه أصبحت أوسع انتشاراً عما كانت عليه قبل عدة أشهر وأن الحديث عن الفساد والكبت السياسي وعقم الأجهزة الحكومية صارت من المواضيع العامة لأحاديث الناس. كما أشارت إحدى التقارير إلى حركة تذمر في صفوف القوة الجوية بسبب قيام الجيش بتمديد عقود العمل مع التقنيين والفنيين وجعلها لمدة 11 سنة دون استشارتهم أو أخذ موافقتهم قبيل انتهاء مدة عقودهم الأصلية فاعتبروا هذا التمديد الإلزامي مخالفاً للشروط التي تم استخدامهم في البداية بموجبها.

وقام تجار الأسواق (البازار) بضجة كبيرة واحتجاجات واسعة بسبب اقدام حكومة اموزغار على انتهاج سياسة اقتصادية متقشفة ووضع قيود صعبة على التسليف المصرفي وغيرها من الاجراءات المالية التي قضت على أرباحهم الكبيرة التي كانوا يجنونها من المضاربات للتضخم المالي. بعد أن تعالت أصوات التجار بالتذمر والاحتجاج وانتقاد الشاه ونظامه قدم اموزغار استقالة حكومته وكلف «جعفر شريف امامي» الرئيس السابق لمجلس الشيوخ بتأليف حكومة جديدة.

الشائعات عن الشاه نفسه كانت كثيرة ومتضاربة. فلقد أمضى الشاه معظم أشهر الصيف بعيداً عن الأنظار في احدى قصوره الواقعة على شواطىء بحر قزوين فكثرت الأقاويل عن سبب غيابه الطويل وكانت إشاعة مرضه أكثرها انتشاراً. كنتُ ومعظم سفراء الدول الغربية نعلم أن لديه مشكلة صحية ولكننا لم نكن نعلم طبيعة المرض الذي يعاني منه. كما لا أعتقد أن أحداً في حكومة الولايات المتحدة كانت لديه معلومات دقيقة عن إصابة الشاه بالورم اللمفاوي حسب تشخيص الأطباء الفرنسيين. كنت من ناحية أخرى أعلم أن الشاه يتناول العقاقير بصورة مستديمة ولكني لم أكن أعرف تماماً حقيقة دائه. الحالة الصحية للشاه لم تكن مادة مثيرة لمروجي الشائعات في ايران فقط ولكنها كانت مسألة تحظى باهتمام المسؤولين في واشنطن أيضاً ولهذا طلبت مقابلة مع الشاه بعد عودتي بفترة قصيرة لعلي أستطيع معرفة الحقيقة من موطنها الأصلي فاستجيب طلبي فوراً وحدد اليوم التالي للمقابلة.

استقبلني الشاه في غرفة مكتبه بقصر ينافران وهو بادي العافية وقد اكتسبت بشرته سمرة خفيفة من أشعة الشمس بعد إقامة طويلة في احدى قصوره العديدة على بحر قزوين كما أنه بدا هادىء البال.

بدا حديثنا ودياً ومريحاً تناول ذكريات كل منا عن أشهر الصيف وكيف أمضيناها ولكن ما كاد الحديث يتناول الأوضاع السياسية في البلاد حتى اكفهر وجهه وظهرت عليه علامات الحزن والكآبة وتوقف عن الكلام مما جعلني أشعر بعدم رغبته التحدث في هذا الموضوع فحاولت تغيير الحديث إلى مواضيع أخرى أكثر مرحاً لإدخال السرور إلى نفسه الحزينة ولكني لما وجدت أن محاولتي كانت

دون جدوى نظرت إليه وسألته قائلاً. . . «ماذا جرى لك؟» وقد خرجت الكلمات من فمي بشيء من القوة غير معتادة في لقاءاتنا ولكن يبدو أنها أصابت الوتر الحساس فخرج عن صمته فجأة وأخذ يحدثني عن عدة حوادث وقعت في عدة أنحاء الواحدة بعد الأخرى واختتم كلامه بالقول إنها عمليات هدامة وتخريبية تستهدف النيل من هيبة حكومته ونظامه. وبعد هنيهة من الصمت تابع حديثه قائلاً إن ما حدث خلال الأشهر القليلة الماضية لم يقم به الطلاب فقط وإنما اشترك فيه العمال وتجار البازار ورجال الدين وعلماء الشيعة، كما أن تحركاتهم كانت متشابهة ومتناسقة بطريقة مسلسلة ومتلاحقة الواحدة بعد الأخرى في فترات قصيرة، الأمر الذي يدل على وجود مخطط واسع ومدروس ومنظم وليس عفوياً وآنياً كما يفكر البعض. وهنا التفت الشاه نحوي قائلاً إنه أطال التفكير بكل روية فيما حدث ويحدث في ايران وأنه خرج بنتيجة واحدة هي أن هناك مؤامرة ضده تحركها الأيادي الأجنبية من وراء الستار. وقال بعد أن استرد أنفاسه المتلاحقة ان هذه المؤامرة هي أكبر من قدرات وامكانيات المخابرات السوفييتية KGB ولذلك يعتقد جازماً أن المخابرات البريطانية وكذلك وكالة المخابرات المركزية الامريكية لا بد أن يكونا شركاء ضالعين في مؤامرة واسعة ضده. وقال انه قد يفهم أن تتآمر بريطانيا ضده ولكنه لا يستطيع أن يفهم لماذا تشترك الولايات المتحدة في مؤامرة ضده وضد نظامه. فبريطانيا لم تغفر له تأميمه لصناعة النفط في ايران وان خصومه في بريطانيا وجدوا الفرصة سانحة الآن والمباحثات جارية الآن بين الحكومة الإيرانية «والكونسورتيوم» النفطي لمحاولة استعادة سيطرتهم القديمة على ايران وتخريبها من جديد. وقال الشاه للتأكيد على صحة وجهة نظره واتهاماته أنه يكفي أن يستمع المرء للاذاعة البريطانية BBC وتخرصاتها عليه وتحريض شعبه على نظامه ليتأكد من صحة كلامه. بعد هذا استدار الشاه للهجوم على وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقال ان ما يؤلمه ويحز في نفسه أكثر من أي شيء آخر هو دور الـ CIA في هذه المؤامرة وانه لذلك لا ينفك يسأل نفسه عن الأسباب التي جعلت المخابرات الامريكية تشترك بمؤامرة عليه؟ وما الذي فعله ليستحق من الولايات المتحدة مثل هذه المعاملة! ثم أشار إلى زيارته للرئيس كارتر في واشنطن وزيارة الرئيس

كارتر لإيـران وقال انـه اعتقد بعـد تينك الـزيارتـين أن علاقـات متينة وصـادقة ووطيدة قد ترسخت بين ايران والولايات المتحدة وأن الحكومة الامـريكية بـاتت تتفهم وتتعاطف مع سيـاسته الـرامية إلى تحقيق اصـلاحات سيـاسية تـدريجية في ايـران، ثم تساءل لمـاذا تقوض ذلـك التفاهم؟ هـل فعل شيئـاً ضـد المصـالـح الأمريكية؟ أو هل هناك تفاهم بين الدولتين العظميين حول تقسيم مناطق النفوذ في العالم وتريد امريكا تقسيم ايران كجزء من ذلك المخطط العالمي؟

شعـرت بذهـول عميق أمام هـذا الانفجار العـاطفي للشـاه. لم يكن يتكلم بلهجة الآمر المتكـبر وإنما كشخص عـادي شعر فجـأة أن ظلماً كبيراً وقـع عليه. كان شديد الاضطراب وكلامه أقرب إلى المناشدة والتبرير بشكل يثـير الاشفاق. لقد صعقتُ بما رأيت وسمعت في ذلك اللقاء.

بعد لحظات من الصمت بدأت أتكلم وأنا أحـاول جهدي أن يكـون كلامي منطقياً وبدون انفعال فأكدت له أن تأييد الولايـات المتحدة لـه شخصياً ولنـظام حكمه لم يطرأ عليه تغيير وأنه يحظى بتأييد الـرئيس كارتـر وجميع كبـار المسؤولين الأمريكيين وأنهم يتفهمون جيداً المشاكل والتحـديات التي يـواجهها. بعـد هذا انتقلت الى الحوادث التي وقعت في البلاد والتي تطرق اليها أثناء كلامه وشرحت له ما تجمع حولها من معلومات لدى سفارتنا والظروف التي أدت إلى كـل واحدة منها والجهات التي نعتقـد أنها تقف وراءها وأنهيت كـلامي بنصحه أن يقلع عن عـادة اتهام الأجـانب بالـوقوف وراء كـل اضطراب سيـاسي يقع في ايـران وقبل اجراء فحص دقيق وشامل لكل الظروف والملابسات والعوامل التي أدت إليه.

كان الشاه يصغي لكلامي بمزيد من الانتباه والاهتـمام مع آثـار الدهشـة على وجهـه من اطلاعي عـلى هذه المعلومـات الدقيقـة والمفصلة حول شؤون ايـرانية داخليـة لم تنشر في ايران أو في الصحـافة الأجنبيـة. بعد أن تـوقفت عن الكلام شعرت أنه بات مقتنعاً بصحة معلوماتي ووجهة نظري فسـأل عن المصدر الـذي يقوم بتمويل الفئات المعـارضة قـائلاً ان القيـادة الدينيـة لم تكن في السابق تملك المال الوفير الذي يبدو أنها تملكه الآن! أجبت بأني لا أعرف كثيراً من التفاصيـل حول هذا الأمر ولكن المعلومات التي لدي الآن تدل على أن الممول هـو البازار!

وهنا أبدى الشاه استغرابه الشديد من هذا الخبر وأعرب عن شكوكه بصحة معلوماتي بهذا الخصوص وذلك لأن الحركة التجارية لم تزدهر سابقاً كما ازدهرت خلال الحكم البهلوي ولأنهم كانوا دائماً من أنصار ومؤيدي النظام البهلوي منذ تأسيسه! أجبت على ملاحظته بتذكيره بموقف تجار البازار المعارض واحتجاجاتهم القوية ضد سياسة التقشف والقيود المالية التي وضعتها حكومة اموزغار والتي أدت بالنتيجة لاستقالة تلك الحكومة.

ذلك الحديث الانفعالي والصريح يبدو أنه كان نافعاً لاعصاب الشاه المتوترة. ومع أنه لم يتمكن من التغلب كلياً على مشاعر الكآبة والتشاؤم غير أنه بات أهدأ بالاً وأكثر اطمئناناً عندما نهضت استأذن بالانصراف. وقد فتح ذلك الحديث مرحلة جديدة في علاقاتي مع الشاه إذ باتت مناقشاتنا للأوضاع الداخلية في لقاءاتنا التالية وحتى مغادرته أرض ايران تتسم بالصراحة والواقعية والتفاهم المتبادل. ولا أعتقد أن أحداً غيري، باستثناء الامبراطورة، كان يستطيع التحدث معه عنها بنفس الصراحة. عند مغادرتي له رافقني الشاه حتى باب الغرفة فلاحظت عليه أنه يعرج قليلاً فسألته إذا تعرض لحادثة ما في ساقه فاجفل من سؤالي وبدا عليه الارتباك لحظة قصيرة ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه بسرعة وأجاب مبتسماً أن ركبته أصيبت بالالتواء عندما كان يمارس رياضة التزلج على الماء. ومع أني لم أشك في حينه في حقيقة التعليل الذي قدمه ولكن تفكيري ظل مشغولاً عدة أيام وبدأت أشك أن يكون سبب العرج ناشئاً عن مرض أكثر خطورة ومثل المرض الذي قضى عليه فعلاً في النهاية.

عدتُ إلى السفارة وسجلت ما سمعته من الشاه في برقية إلى واشنطن مع الاقتراح أن يبعث الرئيس كارتر رسالة الى الشاه يؤكد فيها تأييد حكومة الولايات المتحدة كما أعربت عن أملي أن لا يعطى موضوع الاتهام الذي وجهه الشاه للمخابرات الأمريكية أكثر مما يستأهل من التفات واهتمام ولكن أن يشار إلى الموضوع بطريقة غير مباشرة وبشكل ينفي بصورة قاطعة كل اشاعة من هذا القبيل. وأخيراً رجوتُ الاسراع بارسال الرسالة لأن حالة الشاه النفسية بحاجة إلى قدر من الرعاية.

وصلت برقيتي إلى واشنطن ومفاوضات كامب ديفيد بشأن النزاع العربي الاسرائيلي الشغل الشاغل للرئيس كارتر فاستلمت من وزارة الخارجية خبراً يفيد عن اعداد الرسالة جاهزة لإرسالها باليد بعد أن يوقع عليها الرئيس الذي اتخذ من كامب ديفيد مقراً لإقامته متفرغاً للمفاوضات الجارية بين الاسرائيليين والمصريين باشرافه، الأمر الذي قد يؤخر وصول الرسالة المطلوبة بعض الوقت! خلال أيام قليلة بعد وصول هذا الخبر طغت أحداث ايران على ذلك التأخير.

انتهى شهر رمضان يوم 6 أيلول/ سبتمبر واتخذت مواكب المصلين إلى الجوامع أهمية جديدة. فالتقارير الواردة إلى السفارة أشارت بأن المواكب التقليدية ستتحول إلى مسيرات لها دلالات سياسية. ثم علمنا من جهاز الاستخبارات الايراني أن مسيرة كبرى ستخترق شوارع العاصمة ابتداءً من المنطقة الشمالية باتجاه جنوب طهران وأنها ستنقسم في مكان لا يبعد كثيراً عن سفارتنا إلى قسمين يواصلان التقدم نحو المناطق الجنوبية مفترقين عن بعضهما حتى نقطة نهاية المسيرة. قيل لنا انه لا ينتظر أن تشترك بالمسيرة جماهير كبيرة وأنها ستتألف بالدرجة الأولى من طلاب المعاهد الدينية ورؤسائهم.

نظراً لأن المناسبة كانت ذات طابع ديني بلغنا أن السلطات لن تتعرض للمسيرة. ولما كان هذا القرار الحكومي بعدم التعرض غير عادي أفردت سفارتنا عدداً من المراقبين على طول الطريق الذي ستسلكه المسيرة لنتمكن من معرفة أدق لما قد يقع خلال سير هذه التظاهرة الاستثنائية.

اشترك في تلك المسيرة التي تعتبر فريدة في نوعها في حياة إيران العصرية ما لا يقل عن مئة ألف شخص وكانت حسنة التنظيم لدرجة كبيرة بقيادة واشراف عدد من الشبان الذين أظهروا كفاءة عسكرية في المحافظة على النظام والانضباط وهم يتنقلون بدراجاتهم البخارية «هوندا» على جانبي المسيرة وأمامها ومن خلفها فكانوا ينظمون حركة المرور للسيارات ويغلقون أماكن تقاطع عدة شواريع لافساح المجال لتقدم المسيرة وفي نفس الوقت يتصلون ببعضهم البعض بأجهزة «ووكي توكي» من نوع «سوني» التي تستعملها عادة قوات الأمن وشرطة المرور. كما كان ملحقاً بالمسيرة عدة سيارات للاسعافات الأولية وسيارات أخرى لتزويد

العطشى من المشتركين بالمسيرة بمياه الشرب الباردة والمرطبات. بالاضافة إلى كل هذا كان لكل مجموعة من المجموعات الكثيرة التي تتألف منها المسيرة شخص مسؤول عن الهتافات التي تطلق من حناجر المشتركين داخل كل مجموعة.

كانت المسيرة تظاهرة مرعبة لقوة المعارضة الإسلامية. بعد رجوع المراقبين من أماكنهم في الشوارع إلى السفارة علق أحدهم بالقول انه بالنظر لما هو معروف عن الشاه وميله لأن يعزو كل ما يحدث في ايران من مظاهرات واضطرابات لجهات أجنبية لذلك فإن اليابانيين سيواجهون مشكلة كبيرة هذا المساء! ولما سئل عن السبب قال لأن جميع الدراجات البخارية المرافقة للمسيرة هي صناعة يابانية وكذلك أجهزة الاتصالات التي كان يستعملها المشرفون على تنظيم المسيرة ولذلك يصبح من السهل القاء اللوم على اليابانيين من قبل بعض حاشية الشاه الذين يعانون من عقدة الاضطهاد والارتياب.

لم يسعني إلا أن أشعر بالاعجاب من النظام الذي ساد جو المسيرة والجهود الكبيرة التي لا بد أن تكون بُذلت من أجل اعدادها وتنظيمها. وقد نبهتني المسيرة مجدداً لما تفتقر إليه سفارتنا من معلومات وافية عن التحركات والاتجاهات السياسية وهوية الفئات المعارضة وأهدافها بصورة عامة والحاجة لإقامة علاقات مع رجال الدين وطبقة تجار الأسواق بصورة خاصة. بعد الانتهاء من اعداد تقريري عن المسيرة تحركت سفارتنا مرة أخرى في محاولة جديدة مع تعليماتي المشددة لبذل كل جهد ممكن من أجل التعرف على بعض رجال الدين البارزين وكبار تجار الأسواق. خلال الأسابيع التالية لم أتوقف عن الضغط والإلحاح على الموظفين الدبلوماسيين وضباط المخابرات لجمع كل ما يمكن التوصل إليه من معلومات عن هاتين الفئتين المهمتين وإمكانية إقامة نوع من العلاقات بين السفارة وبين بعض أعضاء أو أنصار أو المتعاطفين مع حركة المعارضة. جميع الجهود التي بذلت طيلة أسابيع عديدة ذهبت سدى وأصبح واضحاً لدينا أن جميع الجهات التي تم الاتصال بها بصورة غير مباشرة ترفض بصورة قاطعة أن يكون لها أية علاقة مع السفارة الأمريكية.

أخيراً قدمت لنا المصادفة المحضة ما عجزت جهودنا المكثفة عن تحقيقه وذلك

عن طريق رجل أعمال أمريكي لـديه تجارة واسعة في ايـران منذ سنـوات طويلة وله صلات عمل وصداقة مع أحد كبار التجار الذي بدوره له عـلاقات صـداقة قـديمة مـع أحد رجـال المعارضـة البارزين. وافق رجـل الأعمال الأمـريكي على ترتيب مناسبة اجتماعيـة يجمع فيهـا صديقـه التاجـر الكبير مـع أحد دبلومـاسيي السفـارة. من خلال هـذه المعرفـة الجديـدة توصـل الـدبلومـاسي للتعـرف عـلى الدكتور مهدي بزركان رئيس حركـة التحريـر وأحد المعـارضين البـارزين لنظام الشاه وهو رجل معروف بالاعتدال والـورع والتقوى وقـد اختاره آيـة الله خميني لرئاسة أول وزارة تألفت في ايران بعد الثورة.

المسيرة الكبرى وما تطور بعدها من أحداث كادت تنسيني مـوضوع الـرسالـة المـرتقب وصولها من الرئيس كـارتر وبـالنظر إلى التـطورات التي حدثت خـلال الفترة بتُ أشك في فائدتها بالصيغة التي اقترحتها في البدايـة ولهذا أرسلت بـرقية اقـترح اجـراء تعـديـل عـلى الصيغـة الأولى والأخـذ بنـظر الاعتبـار التـطورات الجديدة.

المسيرة التي فاجـأت الشاه بضخـامتها مثلما فـاجأت جميـع المـراقبـين دفعتـه للتحرك بسرعة وتصميم فاستدعى كبار القادة العسكريين لـلاجتماع في قصره في مساء نفس اليوم وعقد معهم اجتماعاً طويلاً امتد حتى منتصف الليل. في صباح اليوم التالي استيقظت البلاد على خبر اعلان الأحكام العرفية ابتداء من صباح 8 أيلول/ سبتمـبر أي اليوم التـالي ليوم المسـيرة. إعـلان الاحكـام العـرفيـة بهـذه السرعة فاجأ الجميع ومن ضمنهم طبعاً المعارضة التي كانت قـد تهيأت من قبـل لاعلان الحداد على قتلى مدينة قم أمام جمع غفير كان مقـرراً اجتماعـه في ساحـة جاله حيث مبنى «البرلمان».

بعـد اعلان الاحكـام العرفيـة كان أمـام المعارضـة أحد خيـارين: إما إلغـاء الاجتـماع الجماهـيري المقـرر من قبـل أو قبـول التحـدي وكـأن شيئـاً لم يتغـير، واختارت المعارضـة الخيار الثـاني وامتلأت سـاحة جـاله بجمـع غفير في المـوعد المحدد حيث كان الجيش قد أرسل قوة عسكرية للتمركز أمام مبنى «الـبرلمان» في ساعة مبكرة من يوم 8 أيلول/ سبتمبر وهكذا تقابل الطرفان في نفس السـاحة.

بناءً على رواية بعض شهود العيان لما حدث في ساحة جاله في ذلك اليوم يبدو أن المجابهة بدأت كلامية تبادل فيها الطرفان عبارات تدل على الغضب والاتهامات. بعد ذلك خاطب الضابط المسؤول جموع المحتشدين وذكرهم بإعلان الأحكام العرفية وأن اجتماعهم يعتبر مخالفاً للقانون وأمرهم بالتفرق ولكن الجماهير بدل الأخذ بنصيحته أخذوا ينادون بهتافات مهينة ومعادية للنظام. وبناءً على بعض الروايات يقال ان عدداً من الطلاب أخذوا يتقدمون نحو الجنود عبر الساحة فتقدم بعض الجنود لمواجهتهم ثم اشتبك الطرفان في معركة بالأيدي وأعقاب البنادق (قيل إن الطلاب كانوا يحاولون اختطاف أسلحة الجنود) فأمر قائد القوة العسكرية جنوده بالتراجع إلى أماكنهم واتخذت القوة وضع الاستعداد للرمي ثم فتحت النار من مختلف الأسلحة باتجاه الجمهور في الناحية المقابلة وخلال لحظات معدودة سقط ما يزيد عن 200 قتيل وعدة مئات أخرى من الجرحى.

لقد تضاربت الأخبار المنشورة في وسائل الاعلام العالمية عن عدد القتلى والجرحى الذين سقطوا في ساحة جاله يوم 8 أيلول/ سبتمبر 1978 اتسم الكثير منها بالمبالغة المفرطة. ولكن الحقيقة التي لا يمكن مناقشتها أو إنكارها هي أن هذا العدد نفسه كافٍ لإثارة الهلع والاشمئزاز بكل المعايير والمقاييس.

ومهما كان الأمر فإن مذبحة جاله أحدثت هزةً كبيرةً لدى الطرفين المتصارعين، فالحكومة ـ وخاصة الشاه ـ أصيب بصدمة عنيفة من ضخامة عدد الضحايا، والمعارضة أصيبت بالذهول والدهشة من القسوة التي تصرفت بها الحكومة وساد البلاد فترة من الهدوء والحذر وكل طرف مشغول بمراجعة النفس وحساب الأرباح والخسائر والاستعداد للجولة القادمة.

لم تضيع الحكومة وقتاً طويلاً حول ما يجب اتخاذه من اجراءات فقررت اقامة حاميات عسكرية قوية في جميع المدن الكبيرة كما بدأت حركة اعتقالات واسعة لبعثرة قوى المعارضة وبدت الأمور ـ ظاهرياً على الأقل ـ وكأن سياسة القبضة الحديدية قد فرضت نفسها فعلاً. في تلك الأثناء كانت قمة كامب ديفيد بين مناحيم بيغن وأنور السادات برعاية الرئيس كارتر تسير بخطوات طيبة نحو

النجاح، الأمر الذي جعل التقارير الواردة من ايران تتراكم على طاولة الرئيس كارتر في ذلك المنتجع الجبلي. ولكن مع ذلك فإن أخبار الاضطرابات في ايران أثارت قلق الرئيس أنور السادات فاتصل بصديقه الحميم الشاه في طهران هاتفياً للإعراب عن تأييده ومؤازرته. بعد ذلك بأيام قليلة اتصل الرئيس كارتر هاتفياً أيضاً بالشاه. ومع أني لم أطّلع على ما تضمنه الحديث الهاتفي إلا أني علمت بعدئذٍ من وزارة الخارجية أن ذلك الاتصال الهاتفي اعتبر بديلاً للرسالة التي كنت اقترحت ارسالها قبل مدة والتي تجاوزتها الأحداث الأخيرة. بعض رجال الأعمال الأمريكيين الذين قابلوا الشاه في نفس اليوم الذي اتصل فيه الرئيس كارتر بالشاه هاتفياً كانوا ضمن المدعوين لحفلة استقبال كنتُ قد أقمتها في مساء ذلك اليوم فأخبروني أن الشاه اضطر لقطع حديثه معهم لعدة دقائق للرد على مكالمة الرئيس كارتر وأنه عند عودته كان يبدو أكثر ارتياحاً وتفاؤلاً. أما أنا فلم أعد أسمع من الشاه بعد تلك المكالمة الهاتفية أية شكوى حول تورط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في مؤامرة ضده أو محاولة حكومة الولايات المتحدة تقويض نظامه وتجزئة بلاده.

16

تغذية التماسيح

يبدو أن الشاه كان قد اتخذ قراراً بـاجراء تغيير وزاري حتى قبل اعلان الأحكام العرفية. فعندما قدمت حكومة اموزغار استقالة جماعية فإنه قبلها فوراً وكلف جعفر شريف امامي رئيس مجلس الشيوخ تشكيل حكومة جديدة. قالت مصادر شبه رسمية عن هذا الاختيار أنه اشارة من الشاه يقصد بها استرضاء المعارضة، وخاصة الفئات الدينية، نظراً لعلاقاته ـ إمامي ـ الشخصية وعلاقات عائلته القديمة مع علماء الدين.

ولكن واقع الأمر كان شيئاً آخر. فالمعارضة بصورة عامة والقيادات الدينية بصورة خاصة قابلت الاختيار بمزيد من التحفظ إن لم نقل الازدراء ووصفته بالقول انه لم يكن ممكناً أن يكون هناك اختيار أسوأ منه.

هناك أسباب عديدة لعدم تقبل الناس لهذا الاختيار منها ان شريف امامي ارتبط اسمه ارتباطاً وثيقاً ولسنوات طويلة بمؤسسة بهلوي السيئة السمعة كما أنه كان معروفاً بالفساد والرشوة. ورغم ما يقال في بعض الأوساط عن تدينه وورعه فإن العلاقات بينه وبين كبار رجال الدين كانت سطحية وأبعد ما تكون عن علاقات حميمة.

تعرفت على شريف امامي لأول مرة بعد وصولي إلى ايران أثناء قيامي بزيارات المجاملة التقليدية لكبار المسؤولين الحكوميين وسلمته خطاب تقديم

شخصي من زميلي «مارتن هيرتز» سفير الولايات المتحدة في بلغاريا بمناسبة تعييني سفيراً في ايران. كان «مارتن هيرتز» أثناء سنوات خدمته الدبلوماسية بدرجة مستشار سياسي في ايران قد أقام علاقات حميمة مع عدد من السياسيين وكان شريف امامي في ذلك الوقت يتزعم حركة معارضة غير حقيقية ضد النظام الحاكم فتكونت بينهما علاقات توطدت بمرور السنوات وخاصة بسبب ولع شريف امامي بالأحاديث السياسية واطلاعه على تاريخ ايران السياسي الحديث.

كان شريف امامي رجلاً ضخم الجثة ذا رأس أصلع كبير يثير حديثه المستفيض الطويل الملل والضجر ويتسم تفكيره بالسطحية ويفتقر لحكمة رجل الدولة ونباهة السياسي. كان رأيي يوم أعلن تأليفه لحكومة جديدة ان الشاه أساء الاختيار بتسليمه ادارة البلاد التي تعصف بها الاضطرابات السياسية والتصرف بمصيره السياسي.

بعد أيام قليلة من تسلمه رئاسة الحكومة تلقيت دعوة من رئاسة الوزارة لمقابلة رئيس الوزراء في موعد معين دون أن أعلم أن دعوة مماثلة وفي نفس اليوم والساعة قد وجهت أيضاً لزميلي السفير البريطاني. ومع أن مثل هذا الاجتماع المشترك لا يحدث اعتيادياً إلا أنه لم يكن هناك ما يمنعه بالنسبة لكلينا لتطابق المصالح الأمريكية والبريطانية وقد تكررت هذه الاجتماعات المشتركة ليس مع رئيس الوزراء فحسب بل مع الشاه أيضاً.

في ذلك الاجتماع الأول مع رئيس الوزراء الجديد بذل جهده ليؤكد لنا أنه كرئيس حكومة يتحمل مسؤولياته مستقلاً عن الشاه وليس كالذين سبقوه في اشغال هذا المنصب الذين قال عنهم انهم كانوا أدوات تنفيذية لرغبات الشاه وان مجلس الوزراء الجديد سيكون مسؤولاً أمامه وأمام «البرلمان» وان صلته بالشاه ستكون مجرد صلة عمل.

قال أيضاً ان السياسة التي سيتبعها مع معارضي الحكومة هي تحقيق مطالبهم واعطائهم كل ما يريدون حتى يصابوا بالتخمة والارتباك في أوضاعهم الجديدة ومن ثم تتحول اهتماماتهم وأفكارهم الى جهة أخرى غير معارضة الحكومة! (أطلقنا على هذا البرنامج السياسي منذ ذلك الحين اسم تغذية التماسيح).

الاجراء الأول الذي اتخذته حكومة شريف امامي تطبيقاً لبرنامجه السياسي هو رفع الرقابة على الصحافة واذاعة المناقشات التي تجري في «البرلمان» عن طريق الاذاعة وأطلقت الحرية لجميع النشاطات السياسية دون أي تدخل من الحكومة.

كان شريف امامي يبرر اجراءاته في مجالسه الخاصة بأنه يتوقع حدوث انشقاقات حادة وظهور التناقضات في صفوف المعارضة الى السطح فتقوم فيما بينها معارك سياسية وخلافات شديدة بدل توحيد صفوفها ضد الحكومة والتاج.

الإجراء الثاني الذي اتخذته الحكومة أثبت أنه كان خطأ في التقدير أشد سوءًا من الاجراءات السياسية الأخرى. فبناء على تفكير شريف امامي فإن النبتة الشائكة في خاصرة الشاه السياسية والتي تزعجه وتثير غضبه أكثر من أي شيء آخر هو آية الله الخميني الذي يعيش منفياً في مدينة النجف العراقية منذ حوالي خمس عشرة سنة.

كان شريف امامي أحد المسؤولين الايرانيين الذين ساهموا في المساعي التي بذلت في حينه لتحسين العلاقات العراقية الايرانية ولذلك يعلم جيداً أن الحكومة العراقية غير مرتاحة من وجود خميني في العراق وما يقوم به من نشاط سياسي ضد الشاه وحكومته خشية الاساءة إلى العلاقات التي توطدت مؤخراً بين البلدين من ناحية والتخوف مما قد يخلقه من متاعب ومشاكل للحكومة العراقية نفسها بين شيعة العراق الذين يكونون حوالي 60% من سكان العراق من ناحية أخرى. بناءً على هذا التفكير قرر شريف امامي الطلب من الحكومة العراقية طرد الخميني من العراق نهائياً لقطع كل صلة بينه وبين ايران وقطع دابر عمليات تهريب أشرطة التسجيل لخطبه ومواعظه التي يحرض فيها الشعب الإيراني ضد الشاه عن طريق الايرانيين الذين يقصدون مدينة النجف وغيرها لزيارة العتبات الشيعية المقدسة إلى أعوانه ومؤيديه داخل ايران. وتابع شريف امامي حديثه قائلاً ان الخميني بعد أن يطرد من العراق لن يجد دولة عربية أخرى تقبل لجوءه ولن يبقى أمامه غير طريق واحد هو الذي يوصله إلى أوروبا

وانه بعد أن يحل في باريس سيجد نفسه في عزلة تامة ويسدل عليه ستار النسيان تدريجياً ولن يسمع عنه مرة أخرى.

مثل هذه السطحية في التفكير السياسي والاجراءات غير المنطقية التي تنتج عنها كانت السمة المميزة لحكومة شريف امامي. فاجراءات الانفتاح السياسي على سبيل المثال والتنازلات السياسية التي قدمت للمعارضة حدثت والبلاد تعيش تحت طائلة الأحكام العرفية التي لم يفكر أحد حتى بإلغائها قبل تطبيق سياسة الانفراج ودون أن يخطر ببال أحد أن الانفراج السياسي والاحكام العرفية نقيضان متنافران لا يمكن الجمع بينهما في آن واحد.

وقد أبدى الجنرال «أوفيسي» قائد القوات البرية والحاكم العسكري المسؤول عن تطبيق قانون الأحكام العرفية الدهشة من تصرفات الحكومة والحيرة فيما يجب عمله أمام هذا التناقض الواضح بين الأحكام العسكرية ومسؤوليته كحاكم عسكري من ناحية ودعوة رئيس الوزراء للانفراج السياسي من الناحية الأخرى بحيث لم يجد مندوحة في آخر الأمر من مفاتحة الشاه حول المشكلة غير أنه لم يجد لديه أذناً صاغية حيث أن استقلال رئيس الحكومة في اتخاذ قراراته السياسية ورفض التدخل شخصياً في خلاف حول وجهات النظر داخل الحكومة الواحدة.

في تلك الأثناء أصبحت لقاءاتنا المشتركة (السفير البريطاني وأنا) بالشاه شبه يومية وندخل ثلاثتنا في حوار طويل يتناول بصورة رئيسية الأزمة السياسية الحالية. في احدى تلك الجلسات استعرض الشاه المشاكل التي تواجهه والخيارات المتاحة أمامه من أجل ايجاد الحل الأصلح والأكثر ملاءمة ليس بالنسبة للوقت الحاضر فقط وإنما للمستقبل أيضاً. قال انه يريد أن يصبح نظام الحكم ملكياً دستورياً وليس ديكتاتورياً بأي حال من الأحوال. فالملك، في رأيه، لا يستطيع أن يحكم شعبه عن طريق القوة وإنما يمكنه اقناع أبناء شعبه عن طريق الحوار والمنطق والتوعية العقلانية بالمنافع التي يمكن أن تعود عليهم وعلى البلاد من سياسته وأهدافها النبيلة. ويعتقد أيضاً أن جيل الشباب وخاصة منهم الذين تخرجوا في جامعات الغرب يجب أن يدركوا الخطأ الفادح الذي يرتكبونه بحق

بلادهم وشعبهم إذا هم مالأوا رجـال الدين الأصـوليين وتعـاونوا وايـاهم لتنفيذ هدفهم باقامة نظام حكم إسلامي ومن ثم إلغـاء كل مـا حققه من تقـدم ورقي للبلاد. وتابع الشاه حـديثه بعـد لحظات من الصمت وقـال ان حكومـة شريف امامي ستمنح هؤلاء الشباب الفرصـة والمجال في مختلف ميـادين الحياة وكـذلك مسؤوليات سياسية ليحققوا أهدافهم وأحلامهم الاصلاحية في مختلف المجـالات وبذلك يحققون نجاحاً سياسياً على الفئات الدينيـة الأصوليـة التي قال عنهـا انها فئات معزولة بعيدة عن دفق الحياة والتقدم التي تعيشها ايران المعاصرة. وأعرب الشاه عن ثقته بأن الطبقة المثقفة تعلم أن رجال الدين غير مؤهلين ولا يصلحون لتحمل أعباء الحكم، كما أن قيام نظام حكم إسلامي في ايران سيقدم للشيوعية الراديكالية فرصة ذهبية للاستيلاء على مقدرات البـلاد. بعد قليـل تطرق الشـاه إلى موضوع اللجـوء إلى القوة العسكـرية ضـد الفئات المعـارضة وقـال انه بعـد تفكير طويل تناول مختلف جوانب القضية قرر رفض الخيار العسكـري رغم ثقته بقدرة القوات المسلحة على قمع الاضطرابات والجهات التي تقف وراءهـا طالما بقي على العرش. ولكن قد يقرر يوماً ما التنازل عن العرش لولي عهده لأسباب صحية (للمرة الأولى يشير الشاه ولو ضمنياً لحالته الصحية) وتابـع الشاه حـديثه قائلاً أنه إذا ما حدث هذا فعلاً خلال السنوات القادمـة وغاب عن المسرح فلن يكـون باستـطاعة ابنـه الاستمرار في حكم البـلاد معتمداً عـلى القوة العسكـرية بصورة دائمة ولذلك فإنه يعتقد ضرورة ان يعمل بسرعـة من أجل اقـامة نـظام سياسي ديمقراطي يضمن الحفاظ على العرش سلمياً.

مع اقتراب شهر تشرين الأول من نهايته أدخلت المعـارضة في طـريقة عملهـا شيئاً جديـداً لم نعرفـه من قبل. مـع حلول الظلام يعتـلي سكان طهـران أسطح منازلهم ومبانيهم ويرددون بصوت متناسق يهدر كالرعد في سماء العاصمة الشعار الاسـلامي «الله أكـبر» وتتخللهـا رشقـات من أسلحـة الجنـود المـرابـطين في الشوارع. كانت تلك الليالي أشبه بكـابوس مـرعب يستمر جـزءاً غير قليـل من ساعات الليل. أثناء ساعات النهار بدأت مجمـوعات من الشبـان والفتيان تـظهر في عدة شوارع تهاجم السيارات والمخازن وتشعل النيران في أكوام النفايات التي أخـذت تتكـدس في كـل مكـان بعـد أن اختفى عـمال التنـظيفـات وانهارت

الخدمات. وما ان يشاهد هؤلاء الصبية الجنود يتقدمون باتجاههم حتى يتفرقوا بمثل لمح البصر في الشوارع الفرعية والأزقة ليعودوا للتجمع مرة أخرى في مكان آخر. وهكذا انتشرت الفوضى وأصيبت الحياة اليومية بما يشبه الشلل ليس في العاصمة فحسب وإنما في غيرها من المدن الكبيرة كأصفهان وشيراز وتبريز وغيرها.

التدهور السريع والمتلاحق في الأوضاع الأمنية بدل اتجاهها تدريجياً نحو الهدوء والاستقرار جاء دليلاً واضحاً على فشل سياسة المهادنة التي قررها الشاه ونفذتها حكومة شريف امامي. سياسة تقديم التنازلات السياسية لم تفشل في استرضاء وتهدئة المعارضة فحسب بل انها زادت من شعورهم بالقوة والثقة بأنفسهم من ناحية واعتبرت دليل ضعف النظام واهتزازه من ناحية أخرى فظهرت على الجدران كتابات تهاجم الشاه شخصياً مثل شعار «الموت للشاه».

بالنسبة لي لم يكن الأمر يحتاج إلى عبقرية في علم السياسة أو استقراء للمجهول البعيد لأرى حقيقة ما يحدث يومياً في كل مكان لأتوقع أن يلجأ الشاه للخيار الوحيد الباقي وهو المجيء بحكومة عسكرية. لهذا أردت أن أستبق الأيام والأحداث فأرسلت الى وزارة خارجيتنا استفسر عن رأي الحكومة حول احتمال قيام حكومة عسكرية في ايران لأتمكن من إعطاء الشاه جواباً واضحاً فيما إذا سألني عن ذلك فأرسلت في أواخر شهر تشرين الأول تقريراً أوجزت فيه الأحداث في مختلف انحاء ايران مع تقييم للأوضاع السياسية بصورة عامة وما أتوقعه من تطورات جديدة وطلبت تزويدي بالتوجيهات اللازمة. استلمت جواب وزارة الخارجية بعد 48 ساعة من ارسال التقرير وشكل هذا بنظري رقماً قياسياً من ناحية السرعة وخلافاً لتجاربي السابقة. جاء في ذلك الرد السريع أن الادارة الامريكية تعتبر استمرار نظام حكم الشاه أمراً حيوياً ولذلك فإنها تؤيد وتدعم كل اجراء يراه الشاه مناسباً للحفاظ على مركزه وحتى لو تطلب ذلك تشكيل حكومة عسكرية.

كان من الواضح لديّ بعد الاطلاع على هذه التعليمات أنها كتبت مع افتراض المسؤولين في واشنطن أن الحكومة العسكرية قادرة على تطبيق الأحكام

العرفية بيد حديدية وتبطش بالمعارضة وتقصم ظهرها. ولكن هذه الموافقة حتى على قيام حكومة عسكرية تتناقض وتعليمات الادارة وتوجهاتها السابقة بهذا الشأن، كما أنها تختلف في صراحتها عن اجابات واشنطن السابقة حول قضايا سياسية كنت أثيرها وأطلب توجيهات بشأنها دون أن أستلم اجابات واضحة ورداً محدداً.

ولكن استغرابي من موقف واشنطن الأخير لم يطل كثيراً اذ اتصل بي بريجنسكي هاتفياً ليخبرني أنه كان يتحدث مع الشاه هاتفياً قبل عدة دقائق ليبلغه تأييد الرئيس كارتر بكل قوة لأي اجراء يراه مناسباً. بعد ذلك بوقت قصير فوجئت بمكالمة هاتفية أخرى ولكنها من طهران هذه المرة كان صاحبها السفير الايراني في واشنطن «ازدشير زاهدي» فاتفقنا على أن أراه في منزله لأعرف سبب مجيئه إلى طهران.

قال زاهدي بعد تبادل التحية. . . (لقد أخذ بريجنسكي في يده كل ما له علاقة بالسياسة الأمريكية نحو ايران!) ولما طلبت مزيداً من الايضاح قال ان البيت الأبيض استدعاه فجأة قبل يومين وأبلغه بريجنسكي بمشاعر القلق التي استبدت بالرئيس كارتر بسبب الاضطرابات السياسية في ايران وأنه يقترح أن يتخذ الشاه قرارات واجراءات حازمة للسيطرة على الأوضاع! وبناءً على أقوال زاهدي تمنى عليه بريجنسكي الرجوع إلى طهران بسرعة ليشد من أزر الشاه ويشجعه على اتخاذ اجراءات حاسمة وسريعة وأنه (زاهدي) عندما أجابه بعدم استطاعته ترك مركز عمله دون موافقة حكومته اصطحبه بريجنسكي معه الى مكتب الرئيس كارتر الذي قال ان الرئيس كارتر سيكون سفيراً لإيران في واشنطن طيلة غيابه عنها وان واجبه الأكثر أهمية في الظروف الحالية هو السفر فوراً إلى طهران والوقوف إلى جانب الشاه مناصراً ومشجعاً إياه على مواجهة التحديات بكل قوة وتصميم.

بعد هذا الحديث بوقت قصير طلب الشاه حضوري إلى القصر وأعاد نفس المعلومات التي سمعتها من زاهدي وأضاف متسائلاً فيما إذا كنت تلقيت من

واشنطن رسالة تؤكد كل ما سمعه زاهدي من الرئيس كارتـر وبريجنسكي طـالباً مني إخباره بمضمونها!

في ذلك الحين كان كل ما وصلني من واشنطن هو الجواب للاستفسار الـذي بعثته قبل وقت قصير عن رأي الادارة في واشنطن حول احتمال تشكيـل حكومـة عسكرية فـأبلغت الشاه ان واشنـطن تؤيد أي اجـراء ضروري يتخذه من أجـل انهاء الأزمة السياسية ولكن قسمات وجه الشاه دلتني أنه كان ينتظر شيئاً أكـثر من ذلك فسألني مباشرة فيما إذا استلمت تعليمات محددة حول احتمال استعـمال القوة العسكرية لإخماد الفتنة!

عند عودتي الى السفارة أرسلت تساؤلات الشـاه إلى واشنطن واستلمت الـرد في برقية كان فحواها أكثر تحفظاً من تصريحات السفير زاهدي وأقل من توقعـات الشاه ونقلت رأي الادارة الأمريكية عن تساؤله للشاه الذي لم يظهر ارتياحه له.

في كل الأحوال، بدأت أحداث الشارع تتخطى تبادل الرسـائل فمـع حلول شهـر تشرين الثـاني اتخـذت الاضـطرابـات منحى شـديـد العنف وبـاتت الاصطدامات بين المتظاهرين وقوات الجيش أكثر تكراراً.

17

حكومة عسكرية

مع مرور الأيام بات الانتقال من مكان إلى آخر في طهران وخاصة في مركز المدينة يشكل مجازفة تحفّ بها المخاطر. ونظراً للعدد الكبير من الأمريكيين الذين يقيمون ويعملون في العاصمة الذين يضطرون للتنقل من أماكن عملهم وإليها أنشأنا في السفارة غرفة للعمليات مرتبطة بوسائل الاتصال الهاتفي واللاسلكي مع عدد من مراكز أقمناها في مختلف أنحاء العاصمة لمراقبة الحالة الأمنية كل منها في منطقته والتبليغ عنها حالاً ليتسنى لغرفة العمليات اعطاء المعلومات الدقيقة عن حالة كل منطقة من المناطق في حالة استفسار أحد أعضاء الجالية الأمريكية وتحذيرهم من خطر المرور أو الوصول إلى أية منطقة مضطربة. بالإضافة إلى ذلك أنشأنا عدداً من اللجان في مناطق مختلفة تشبه في عملها وواجباتها لجان الدفاع المدني ووضعت تحت اشراف ضباط الأمن الأمريكيين في السفارة. بالاضافة إلى هذه الاجراءات الأمنية بدأت أعقد اجتماعات منتظمة مع ممثلين عن الجالية الأمريكية لإطلاعهم على مجريات الأحداث وتقييم سفارتنا للأوضاع بصورة عامة. هذه الاجتماعات كانت محرجة بالنسبة لي وشديدة الحساسية. فمن جهة كنت أشعر بمسؤوليتي الأدبية تجاه أبناء وطني وحرصي على سلامتهم وأمنهم، غير أني كنت شديد الحذر من أن يؤدي كلامي إلى الشعور بالذعر والهلع بين أفراد الجالية وخاصة إذا اضطرتنا الظروف الأمنية لنقل بعض الأمريكيين من المناطق الأكثر تعرضاً للاضطرابات إلى مناطق أخرى داخل أو خارج العاصمة بالإضافة إلى ما قد تثيره مثل هذه الخطوة من حساسية لدى

الشاه وقد تفسر بطريقة تسيء إلى علاقاتنا مع ايران. ولكن ما جعل مهمتي أكثر يسراً وسهولة هو ما أظهره أفراد الجالية من روح التعاون والتفهم والانضباط.

رغم هذه الاحتياطات الأمنية التي اتخذتها السفارة حفاظاً على سلامة المواطنين الأمريكيين فإن بعض الحوادث المؤسفة وقعت لعدد بسيط من أعضاء الجالية فتعرض بعضهم للأذى الجسدي وأحرقت سيارات البعض الآخر. مع ذلك اعتقد أن حسن الحظ لازمنا حتى ذلك الوقت ولم تقع أية خسارة في الأرواح إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار حالة الأمن المتردية وانتشار الفوضى بالإضافة إلى العيارات النارية العشوائية التي كان يطلقها الجنود والشرطة في الهواء. ولكن في إحدى تلك الأيام كدت ومعي السفير البريطاني أن نصبح أول ضحيتين أجنبيتين في قائمة الضحايا من الأجانب. في ذلك اليوم كنا معاً في اجتماع مع رئيس الوزراء في مقره الرسمي الكائن في وسط المدينة. بعد الاجتماع قررنا أن نذهب معاً إلى السفارة البريطانية للتداول في الأمور التي بحثت مع رئيس الوزراء في اجتماعنا المشترك. ومع أن كلًا منا حضر إلى مكان الاجتماع بسيارته الرسمية غير أننا قررنا أن تكون عودتنا بسيارة واحدة ووقع اختيارنا على سيارة السفير بارسنز وكانت رولز رويز من الحجم الصغير. تحركت بنا السيارة بعد أن أوعزت لسائق سيارتي الرسمية، وكانت سيارة مصفحة واسعة وثقيلة الوزن، أن يتبعنا إلى السفارة البريطانية. كان موكبنا الصغير يتألف من سيارة الرولز رويز في المقدمة تليها سيارة ضابط الأمن الايراني ثم سيارتي الرسمية وخلفها سيارة جيب تحمل عدداً من أفراد الشرطة للحماية. كان ضابط الأمن قد استطلع طريق عودتنا أثناء وجودنا في الاجتماع وبعد عودته أعطى تعليماته لسائقي السيارات حول الشوارع التي عليهم سلوكها. قطعنا مسافة في الشارع الذي عيّنه ضابط الأمن لبعده عن الشوارع التي تسلكها المظاهرات ولكننا فوجئنا أننا لم نكن الوحيدين الذين وقع اختيارنا عليه إذ أن عدداً ضخماً من السيارات اختارته على ما يبدو لنفس السبب وهكذا وجدنا أنفسنا وسط صف طويل من السيارات أمامنا وخلفنا. بعد مدة قصيرة توقفت السيارات التي كانت أمامنا فتوقفنا أيضاً دون أن ندري سبب التوقف. لم يطل انتظارنا لمعرفة السبب فبعد عدة دقائق سمعنا ضجة وأصواتاً وشاهدنا مقدمة مظاهرة ضخمة قادمة

باتجاهنا. لم يكد سائق سيارة السفير بارسنز يشاهد ما شاهدناه حتى بدأ يحاول الخروج بالسيارة فأخذ يتقدم بضعة خطوات حيناً ويتراجع أخرى حتى استطاع اخراج السيارة من صف السيارات المتوقفة عن الحركة صاعداً على الرصيف وحول وجهة السيارة إلى الجهة التي جئنا منها واندفع بسرعة كبيرة. ولما كانت سيارتنا قد فتحت مجالاً كافياً لحركة سيارة ضابط الأمن فإنه فعل نفس الشيء وانطلق وراء سيارتنا ثم تقدم واجتازها وأصبح في المقدمة بعد أن أشار على السائق أن يتبعه. ويبدو أنه قرر مكاناً آمناً نلجأ إليه فقادنا إلى بناية المصرف المركزي ودخل المرآب الواسع في أسفل البناية وتوقف وتوقفت سيارتنا وراءه في ركن بعيد عن الأنظار. غادرنا السيارة وذهبنا معه إلى المصعد الكهربائي الذي أوصلنا إلى الطابق السادس والأخير حيث توجد غرفة محافظ البنك الذي استقبلنا بترحيب وقدم لنا فنجاناً من الشاي اللذيذ. النوافذ الواسعة في مكتب المحافظ هيأت لنا مجالاً ممتازاً لرؤية ما يجري في الشوارع من أعمال الشغب والاصطدامات العنيفة بين جماهير المتظاهرين الغفيرة وقوات الجيش. استمرت الاضطرابات نحو ساعة وأخذ المتجمهرون يتفرقون تدريجياً والحياة الطبيعية وحركة المرور بدأت تعود إلى عادتها وأصبح ممكناً أن نواصل سيرنا إلى السفارة البريطانية ولكن محافظ البنك اقترح بعدم استعمال السيارة الرسمية ووضع تحت تصرفنا بدلاً منها سيارة من سيارات المصرف التي أوصلتنا إلى السفارة بسلام.

بعد حوالي أسبوع على تلك التجربة أخذت الأوضاع الأمنية في العاصمة تزداد سوءاً بدل أن تتحسن وبات من الصعب جداً السيطرة عليها. ففي صباح يوم 4 تشرين الثاني اجتاحت شوارع العاصمة عدة فرق من الشبان والأحداث واتجهت كل واحدة منها إلى أحد شوارع المركز التجاري والمصرفي وبدأت عملية واسعة ومنظمة لإشعال الحرائق في المصارف ومخازن بيع الخمور ودور العرض. كانت الطريقة التي كانوا يعملون بها تدل على معرفة سابقة بالأماكن المراد احراقها وكذلك كيفية العمل. يبدأ عملهم باخلاء المبنى من سكانه ثم تكدس أكبر كمية من الأثاث في بهو أو غرفة واسعة وبعد أن يسكبوا على ما أمكنهم تجميعه كمية من البنزين يوقد فيها النار بعود ثقاب ثم يغادروا المكان بسرعة. خلال أقل من ساعتين كان مركز المدينة قد تحول إلى نار ولهب.

في الـوقت الذي كـانت فيه عمليـات إشعـال الحـرائق في الـوسط التجـاري للعـاصمة قـائمة عـلى قدم وسـاق كنت في اجتماع مـع السفـير بـارسنـز في مبنى سفـارتنا نتـداول ونتبادل مـا لدينـا من أفكـار وآراء حـول الأوضـاع السيـاسيـة والخيـارات المتاحـة للشاه لحـل الأزمة القـائمة واحتـمالات الخيار العسكـري أو السياسي ونصيب كل منهما من النجاح. وقطع حديثنا طرق على باب الغـرفة ثم دخل الملحق العسكري وقـال مشيراً لنـا بالنـظر من النافـذة أن الحرائق أخـذت تقـترب من سفارتنـا وأنه يقـترح أن يتصل فـوراً بـالسلطات العسكـريـة لاتخـاذ الاجـراءات اللازمـة للحيلولة دون وصـول أولئك الـذين يشعلون الحـرائق من منطقتنا فوافقته على ذلك. اتخذ الجيش إجراءً فورياً وأرسل قوة عسكرية أغلقت جميع الممرات المؤدية الى سفارتنا وبذلك سلمت سفارتنا وجميع المباني المحيطة بنا بينما كان وسط المدينة يلتهب كالآتون.

انتهى اجتماعنا بعد ظهر ذلك اليوم في وقت متأخر وبينما كان السفـير بارسنـز يستعد للمغادرة استلمنا مكالمة هاتفية طارئة من السفارة البريطانيـة لابلاغنـا أن السفـارة تتعرض لهجـوم من عدد غـير قليل من الغـوغاء الـذين يحـاولـون كسر البوابة الرئيسية واقتحام مبنى مكاتب السفارة. عند سـماعه بخـبر المكالمـة أسرع السفير بارسنز يريد الرجـوع إلى سفارتـه ولكن عندمـا اتصل المسؤول في غـرفة العمليات بمركز المراقبة القريب من السفـارة البريـطانية والاستفسـار عن احتمال مرور السفير بارسنز من تلك المنطقة للوصول إلى سفارته قيل لنا ان جموعاً غفيرة محتشدة بالقـرب من السفارة الـبريطانيـة ويستحيل عليـه اختراقهـا للوصول إلى السفارة. انتظر السفير بارسنز في سفارتنا حتى حلول الغسق وأصر على الـرجوع خـاصة بعـد أن بلغنا من غـرفة العمليـات أن الجـماهـير بـدأت تتفـرق وبـدت الشوارع أكثر هدوءاً وهكذا استقل سيارته متجهاً إلى السفـارة، لكنه لم يستـطع الـوصول واضـطر أن يلجأ للسفـارة الفرنسيـة التي لا تبعـد كثيـراً عن السفـارة البريطانية.

كانت حصيلة ذلك اليوم خسارة وطنية ضخمة تقدر بملايـين الدولارات أمـا الحي التجاري والمصرفي فإنه كان يبدو في اليوم التالي وكأنه كان سـاحة قتـال أو أنه تعرض لهجوم جوي كاسح فالعمارات والأبنية لم يبق منها غير هياكلها المسودة

وقطع الأثاث المحترقة والسيارات المحطمة مبعثرة هنا وهناك في الشوارع. في تلك الأثناء استلمت مكالمة هاتفية من الشاه وسألني إذا كنت أستطيع الحضور إلى القصر لمقابلته فأجبته أني سأفعل ذلك حالما يصبح بالإمكان اجتياز الشوارع التي تناثرت فوقها هياكل السيارات المحترقة وكتل الأحجار والخرسانة المبعثرة وقطع الأثاث المتناثرة في كل مكان. أرسلت سائق السيارة مع ضابط الشرطة في مهمة استطلاعية والتأكد من إمكان المرور في الشوارع التي علينا اجتيازها للوصول إلى قصر ينافران. رجعا من مهمتهما بعد حوالي نصف الساعة بعد أن تأكدا أن الذهاب إلى هناك ممكن. غادرنا السفارة في شبه رتل عسكري في المقدمة سيارة ضابط الشرطة ثم سيارتي المصفحة وسيارة الجيب مع حمولتها من أفراد الشرطة في المؤخرة. في ذلك الوقت من الغسق بدت المدينة أمام ناظري ورتلنا الصغير يخترق صفوفاً طويلة من المباني المتهدمة والجدران الكالحة اللون أشبه شيء بصورة سوريالية. عندما اقتربنا من المناطق المجاورة للقصر شاهدنا أعداداً كبيرة من دبابات «شيفتن» البريطانية ومدفعية ضد الجو وناقلات الجنود المصفحة وأسلحة أخرى غيرها مع أعداد ضخمة من الحرس الامبراطوري الذين تمركزوا في جميع النقاط المهمة.

اجتازت قافلتنا البوابة الرئيسية للقصر دون عائق وقطعنا المسافة الطويلة حتى باب القصر. ترجلتُ من السيارة وتقدمتُ نحو الباب اعتدت أن أرى حاجباً بملابسه الرسمية الزاهية ولكنه لم يكن واقفاً في مكانه. دفعت الباب فوجدته غير مغلق فدخلت متجهاً إلى البهو الواسع حيث أعلم أن العادة جرت وجود أحد المرافقين فيه ولكنني مرة أخرى لم أجد أحداً هناك فاتجهت نحو قاعة الاستقبال الكبرى فوجدتها خالية أيضاً. وبينما أنا واقف في مكاني أفكر فيما يجب أن أعمل فتح باب إحدى الغرف الجانبية وخرجت منها الشاهبانو ففوجئت هي بوجودي كما فوجئت بدوري أن تكون هي أول شخص ألتقيه داخل القصر. قلت لها ان الشاه استدعاني لمقابلته فابتسمت وسارت إلى غرفة جانبية أخرى وعادت بعد لحظات قليلة وبرفقتها أحد المرافقين وخلفه اثنان آخران. أخبرني المرافق أن الشاه موجود في مكتبه في الطابق العلوي ورافقني إلى هناك. وجدت الشاه لاستغرابي الشديد هادئاً. قال انه عاد قبل دقائق من جولة قام بها فوق العاصمة

بطائرة مروحية فتراءت له مناطق واسعة كأرض قاحلة والدخان ما يزال يتصاعد من المباني والخراب في كل مكان.

بعد برهة من الصمت التفت الشاه نحوي وقال انه لم يبق لديه خيار آخر غير تأليف حكومة عسكرية وسألني إذا كان ممكناً أن أتحقق من تأييد واشنطن لهذا الاجراء. أجبت بأنني كنت أتوقع منذ فترة الحاجة لمثل هذه الخطوة ولدي تأكيد من واشنطن عن تأييد الرئيس كارتر وحكومة الولايات المتحدة لكل اجراء يراه الشاه ضرورياً ومن المصلحة اتخاذه. ما ان سمع الشاه اجابتي حتى ظهرت علامات الارتياح على وجهه وكأن هماً ثقيلاً أزيح عن صدره وطلب من أحد الخدم أن يقدم لي كأساً من الويسكي. بعد هنيهة قال وهو يبتسم أنه طلب حضور السفير البريطاني أيضاً لهذا الاجتماع واقترح أن ننتظر وصوله.

أخبرت الشاه بالهجوم الذي وقع على السفارة البريطانية وإحراق المبنى الذي يضم المكاتب واحراق الأثاث وتدمير أجهزة الاتصالات. بدت على وجه الشاه علامات الاندهاش والحيرة وقال بعد لحظة أنه الآن فقط وجد تفسيراً لطلب السفير بارسنز الغريب لارسال إحدى حاملات الجنود المصفحة لنقله من السفارة الفرنسية إلى القصر. وكأنما حادث السفارة البريطانية ذكره بشيء يعتمل في نفسه منذ مدة طويلة فأخذ يتذمر من اذاعة B.B.C البريطانية وما تذيعه من أخبار وتعليقات حول شؤون ايران وأوضاعها التي يعتبرها معادية للحكومة والنظام ومؤيدة للمعارضة وخصومه. وتابع كلامه بعد لحظات قائلاً إن الاعتداء على السفارة البريطانية قد يكون من فعل بعض أبناء الشعب المتحمسين الذين يكنون الكراهية والحقد على موقف الاذاعة البريطانية المتحيز.

قلت للشاه ان اشاعات كثيرة تدور في البلد وان معظمها تتهم السافاك بالوقوف وراء عملية احراق العاصمة بهدف استفزاز الشاه وتحريضه على اتخاذ موقف حاسم وقاسٍ ضد المعارضة وتشكيل حكومة عسكرية وسألته إذا كان يصدق هذه الاشاعات!

نظر إلي الشاه بعينيه المتعبتين وقال: «من يدري، في هذه الأيام بت أصدق أي شيء!».

طال انتظارنا لوصول السفير بارسنز ما يقارب الساعة كان الشاه خلالها يحدثني في موضوع طالما كرره في الفترة الأخيرة عن الخيارات المتاحة أمامه والنواحي الايجابية والسلبية في كل منها. وبينما نحن كذلك اتصلت به الشاهبانو هاتفياً وأخذا يتحدثان باللغة الفارسية. ومع أن معرفتي باللغة الفارسية بسيطة غير أني استطعت أن أفهم مضمون الحديث عندما أخبرها عن عزمه على تأليف حكومة عسكرية واستنتجت من خلال أجوبته على تساؤلاتها أن الشاهبانو لديها بعض التحفظات على قراره ولكنه في الأخير طمأنها بالقول ان حكومة الولايات المتحدة تقر هذا الاجراء وتؤيده. لاحظت طيلة الوقت الذي استغرقته المكالمة الهاتفية أن اسلوب الشاه في مخاطبته لزوجته كان أسلوباً فيه الكثير من المحبة والاحترام والوداعة وبعيداً كل البعد عن أسلوب من يأمر وينهي ويحسم.

بعد أن انتهى حديثه مع الشاهبانو رفع الشاه سماعة جهاز هاتف آخر وتكلم مباشرة مع الجنرال أزهري رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة وطلب حضوره الى القصر.

عندما وصل السفير البريطاني استقبله الشاه وهو يبدي مزيد أسفه واعتذاره عن الحادث ومؤكداً استعداد الحكومة لاصلاح الأضرار التي لحقت بالمبنى ودفع التعويضات اللازمة عما أصاب الأثاث والأجهزة من تلف وتدمير، ثم انتقل بسرعة للموضوع الذي طلب حضورنا من أجله وأخبره بقراره حول تأليف حكومة عسكرية لإعادة الأمن إلى نصابه وسأله فيما إذا كانت لديه تعليمات من حكومته بهذا الشأن! أجاب السفير بارسنز أنه لا يملك أية تعليمات حول هذا الموضوع كما أنه لا يستطيع اجراء اتصال سريع مع وزارة الخارجية في لندن لاستطلاع رأيها بسبب تدمير أجهزة الاتصالات في سفارته. ويبدو أن الشاه اكتفى بهذا الجواب ولم يضف ولم يعلق وقال يخاطبنا أنه سيؤلف حكومة عسكرية في نفس الليلة ويعلن ذلك بصورة رسمية صباح الغد.

في طريقنا إلى الخارج صادفنا الجنرال أزهري جالساً في قاعة الاستقبال الكبرى في الطابق الأرضي ينتظر دوره لمقابلة الشاه. أثناء الحديث القصير الذي تبادلناه مع الجنرال استنتجنا من كلامه أنه يتوقع أن يكلف بتأليف حكومة

عسكرية فأكدنا له ما يتوقعه وتمنينا له حظاً سعيداً في مهمته الجديدة.

لم يكن الجنرال أزهري بتاتاً من نوع الرجال المتعطشـين للسلطة ولذلـك كان يبدو مكتئباً مهموماً عندما صافحناه مودعين لـيرتقي السلالم الى الـطابق العلوي متثاقلاً على نفسه.

18

مناورات سياسية

مع تشكيل الحكومة العسكرية بـدأ العمل السيـاسي في ايران يسـير في خمسة اتجاهات متوازية وبعيدة عن بعضها البعض:

الاتجاه الأول يديره رئيس الوزراء الجنرال أزهري وهدفه ايجـاد حل منـاسب لمشكلة الاضرابـات وخاصـة بعد أن أصـابت صنـاعـة النفط وشلت العمـل في حقول الانتاج واعادة الأمن إلى نصابه والاعداد لـلانتخابـات «البرلمـانية» تمهيـداً لتأليف حكومة ديمقراطية مسؤولة أمام «البرلمان».

الاتجـاه الثاني بـاشراف وتوجيـه الشاه نفسـه ويهدف إلى التـوصل الى تسـوية سياسية بينه وبين القوى المعارضة لنظامه. استخدم الشاه لهذا الغرض عدداً من قـدامى السياسيـين لاعتقاده أن صـلاتهم القديمـة بقـادة المعـارضـة تسمـح لهم وتمكنهم من التأثير عليهم.

الاتجاه الثالث يـديره ويشرف عليـه أزدْشير زاهـدي سفير ايـران في واشنطن ويتحرك داخل حكومة الولايات المتحدة عبر زبغنيـو بريجنسكي مستشـار الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي. الغرض من هذه الحركة هو أن يحشد زاهدي قوى الفئـات المؤيدة للشـاه وتوجيههـا للحيلولة دون فـرض أي حـل وسط لتسـويـة سياسية واقناع المعارضة بعدم جدوى محاولة القيام بثورة ناجحة.

الاتجاه الرابع، وهو الذي كان يحـظى بأكـبر قدر من اهتـمام الشعب الايراني

هو النشاط الذي تقوم به المعارضة والذي كـان يديـره ويوجهـه آية الله الخميني من منفاه في باريس ويتعاون معه مجموعة من السياسيين المرموقـين مثل ابـراهيم يـزدي الذي انتقـل من الولايـات المتحدة إلى بـاريس ليتعاون مـع الخميني. أما المجموعة التي كانت تعمل في ايران لتنفيذ توجيهات الخميني فـإنها كانت بقيـادة اثنين من علماء الشيعة هما آيات الله بهشتي وطالقاني ومن المدنيين مهدي بزركان وأمير انتظام وناصر ميناتشي.

الاتجاه الخامس والأخير يتعلق بما كـان يجري من نشـاط في سفارتنـا وما يجب ويمكن عمله من أجل صيانة المصالح القومية للولايات المتحدة في ايران الغـارقة في تيارات عاتية من الاضطرابات السياسية ومستقبلها المجهـول. كان افـتراضي أن هنـاك احتمالاً بحـدوث شيء يفقد الشـاه معه حكمـه لذلـك كـان غـرضي الاحتفاظ للولايات المتحدة بعلاقة كافيـة للحد من فـرص السوفييت التي تنجم عن نجاح الثورة. كان علينا ابقاء عيوننا مفتوحة لمتابعة التطورات التي تطرأ على هذا النشاط السياسي المتعدد الاتجاهات والأهداف. خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول وقعت أحداث عززت مخاوفي حول مستقبـل الشاه ونـظامه وبـات علينا أن نتخذ الاحتياطات الضرورية لمرحلة ما بعد ذهابه.

بين جميع الاتجاهات المختلفة كانت مهمة رئيس الوزراء وحكومته العسكـرية هي الأكثر وضوحاً واستقامة. فهذا الجندي المحترف تعـوّد على معـالجة المشـاكل بطريقة مباشرة ولذلك كان يعتقد أن منصبه الجـديد كـرئيس للحكومـة سيمكنه من اقنـاع الجهـات التي تقف وراء الاضـطرابـات بـالاقـلاع عن اثـارة الشغب والفتنة ووضع حـد للاضـطرابات التي أضرت الاقتصـاد الوطني وأرزاق النـاس وخاصة بعدما شملت الاضرابات حقول انتاج النفط. وهكذا كـان يتصور هـذا الجندي المحترف الذي يحظى فعلاً بتقدير مختلف طبقات النـاس من عسكريـين ومـدنيين أنـه سيوفق عن طـريق الاقناع واثـارة المشاعـر الوطنيـة في النفـوس في محاولاته لإعادة الحياة في البلاد إلى طبيعتها.

كلف الشـاه الجنرال أزهـري بتشكيل حكـومـة عسكـريـة بشكـل مفـاجيء ومستعجـل وأمره أن يستلم وأعضـاء وزارته زمـام الأمور خـلال ساعـات قليلة

وبذلك لم يتوفر لديه الوقت الكافي لإجراء مشاورات مع بعض العناصر المدنية المعروفة بالولاء من ناحية والخبرة والكفاءة من الناحية الأخرى لاختيار عدد منهم أعضاء في حكومته مما اضطره الأمر أن يستعين بعدد من كبار الضباط وأسند اليهم مناصب وزارية فجاءت حكومته عسكرية صرفة مئة في المئة. ولكنه لما اكتشف بعد أيام قليلة أن أمور الدولة أخذت تزداد تعثراً أعاد جميع الضباط عدا اثنين منهم إلى أماكنهم السابقة في الجيش وعين في المناصب الشاغرة عدداً من الإداريين الأكفاء من مختلف قطاعات الخدمة المدنية ولذلك لم تكن الوزارة التي شكلها الجنرال أزهري حكومة عسكرية بالمعنى الدقيق إلا في أيامها القليلة الأولى.

أحد الضابطين اللذين احتفظ بهما الجنرال أزهري في حكومته هو الجنرال «عباس قره باغي» قائد قوات الدرك وهو ضابط ذو ثقافة واسعة وأخلاق رفيعة وماضٍ ممتاز. كان قره باغي في شبابه أحد الذين اختارهم رضا شاه ليصبح زميلاً لولي العهد الأمير محمد رضا بهلوي في الدراسة فأمضيا سنوات الدراسة منذ الابتدائية حتى الكلية العسكرية سوية وبقي منذ ذلك الوقت مقرباً من الشاه محمد رضا والعائلة المالكة. بعد تخرجه من الكلية العسكرية أوفد إلى فرنسا للالتحاق بعدة دورات عسكرية فتعلم اللغة الفرنسية وأتقنها بدرجة ممتازة. كانت زوجته تنتمي لعائلة محترمة معروف عن أفرادها صلاتهم الوثيقة مع علماء الدين، كما أن عائلة قره باغي والبيت الذي نشأ فيه معروفة بالتدين والتقوى وهو ما جعله رغم احترافه الجندية معروفاً بتأييده العميق والقوي لجميع القضايا الإسلامية.

خلال السنوات التي أمضيتها في ايران توطدت بيننا علاقات صداقة حميمة وكانت عائلتانا تتبادلان الزيارات معظم الأوقات. ونظراً لعدم وجود علاقات عمل بين البعثة العسكرية الأمريكية وقوات الدرك لذلك كانت الصلات الشخصية والعلاقات الاجتماعية بين الجنرال قره باغي وضباط البعثة الأمريكيين ضيقة ومحدودة. كان موقف الجنرال من الولايات المتحدة ودياً ولكنه كان معجباً بالنظام السياسي للولايات المتحدة، أما موقفه نحو الاتحاد السوفييتي فكان موقف الشك والقلق من نوايا السوفييت تجاه ايران.

قمت بـزيارتـه في مكتبه بـوزارة الداخليـة فشرح بشيء من التفصيـل رؤيتـه لأوضـاع البلاد الأمنيـة والسياسيـة والواجبـات الملقاة عـلى عاتقـه بصفته وزيـراً للداخلية معتبراً اعداد الأجواء للانتخابات «البرلمانية» في مقدمتها وأكثرها أهمية. فيما يتعلق بعلاقته بقوات الدرك التي كانت تحت قيادته كـان من رأيه أن اعـلان الأحكام العرفية في البلاد جعل قيادتها تنتقل عملياً إلى القيادة العسكرية وأظهـر ارتياحه لتحرره من مسؤوليتها.

كان رئيس الوزراء أزهري الذي كنت أزوره في مقره الرسمي خـلال فترات قصـيرة يرى أن واجبـه الأكثر أهميـة هو اعـادة اللحمة للمجتمـع الـذي فـرقتـه التيارات السياسية المختلفة وخلق جو من الثقة والتفـاهم بين الحكـومة والشعب ولذلك بدأ يظهر على الشاشة المرئية بين حين وآخر يخاطب الأمـة بلغة النـاصح والمحذر من مغبة الفوضى القائمـة والاضرابات المنتشرة ومـا ستجره عـلى البلاد من أخـطار جسيمة ويحـاول في الوقت نفسـه استثارة الـروح الـوطنيـة والشعـور بالمسؤولية تجاه البلاد حاضراً ومستقبلاً. في الجلسة التي عقدها «البرلمان» لمنـاقشة منهاج الحكومة الجديدة والتصويت على الثقة بها عرضت الشاشة المرئية جميـع ما دار في الجلسة من مناقشات واعتراضات وانتقادات على الهواء مباشرة وكان ذلك حدثاً فريداً لم يشاهده الايرانيون من قبـل بتاتـاً وخاصـة بعد أن انتهـز عدد من المعارضين هذه الفرصة التي تسنح لهم لأول مرة فوجهوا نقداً قـوياً للشـاه ونظام حكمه والاجراءات القمعية التي تطبق بحق المعارضة السياسية والمطالبة باطلاق الحريات العامة في البلاد. ان ما جرى في تلك الجلسة كان فعلاً مناقشة سياسية حرة لم تشهدها ايران خلال ثلاثين سنة.

في احدى لقاءاتي مع رئيس الوزراء عبّر عن شكوكـه بأن يكـون حزب تـوده الـذي ينفـذ تعليـمات الاتحـاد السـوفييتي هـو الـذي يقف وراء إضراب عـمال المؤسسات النفطية. وقال مع أنه لا يملك حتى الآن دليلاً قاطعـاً على ذلـك لكنه يعتقـد أن الطريقـة التي نظمت ونفـذت بها الاضرابـات لا يمكن أن تكـون من عمـل ايرانيـين مسلمين. ويعتـبر نجاحـه في ميدان الصنـاعة النفـطية في البـلاد المعيار الذي يقاس بموجبه مدى نجاحه في مسؤوليته كرئيس للحكومة.

استطاعت حكومة أزهري خلال الأسابيع القليلة الأولى من عهدها تحقيق بعض النجاح في اعادة عجلة الصناعة الوطنية إلى الدوران وبدأت المصانع بالانتاج إلى مستويات لا بأس بها ولكنها بقيت دول معدل الانتاج لعام 1977. إذ أن هذا النجاح المحدود لم يكن كافياً لسد النقص الخطير في المحروقات والطاقة الكهربائية أو اختفاء العديد من المواد الغذائية الأساسية من المخازن. خلال شهر تشرين الثاني وصلت الأوضاع الاقتصادية إلى درجة خطيرة من الركود والانهيار المتسارع بحيث توقع المراقبون الأجانب أن تودي الأزمة الاقتصادية الخانقة بالحكومة والشاه أيضاً إلى الركوع في وقت غير بعيد.

الأوضاع في الشارع تحسنت بعض الشيء بعد مجيء الحكومة العسكرية وانتشار الدبابات والسيارات المصفحة وقوات الجيش في المناطق الحساسة في العاصمة. كما أن فظاعة ما حدث في مركز المدينة من تخريب واحراق نبّه الكثيرين من الناس الذين لا علاقة لهم بالسياسة أن التظاهرات التي كانت سلمية في البداية تحولت إلى عمليات تخريبية أوقعت بالبلاد أفدح الأضرار وتجاوزت كل الحدود المعقولة ولذلك رحب الكثيرون بمجيء حكومة عسكرية للسيطرة على الأوضاع واعادة القانون والنظام في البلاد.

بدأ الجيش والشرطة بعملية واسعة لرفع الأنقاض وحطام السيارات والنفايات المكدسة في الشوارع بغية الايحاء بعودة الهدوء والاستقرار والنظام وهكذا أخذت الحياة تعود تدريجياً لمجراها الاعتيادي وبدت العاصمة وبقية المدن الكبيرة مع نهاية تشرين الثاني أقرب إلى الصحة والعافية مما كانت عليه في مطلع الشهر.

في غضون ذلك كان الشاه يتحرك بنشاط في اتجاه آخر. فبعد أن منح رئيس الوزراء أزهري حرية العمل بادارة شؤون الدولة اليومية دون الحاجة لمراجعته يومياً في كل كبيرة وصغيرة كما جرت العادة في السابق انهمك في العمل لاعادة تركيب الهيكل السياسي لنظام حكمه فباشر بعقد اجتماعات يومية مع عدد من الشخصيات السياسية القديمة كان في مقدمتهم والبارز بينهم رئيس الحكومة والسفير سابقاً «علي اميني» الذي كانت بعض الأوساط السياسية تتهمه بأنه

الشخصيـة السياسيـة الايرانيـة المقربـة وذات الحظوة لـدى الأمريكيـين. وتزعم بعض الشائعات أن إسناد رئاسة الحكومة إلى علي أميني عام 1961 كان بنـاءً على اقـتراح الرئيس الأمـريكي الراحـل جون كنيـدي وأن الاصلاحـات التي طبقها أميني في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أثناء رئاسته تـدل على مـدى تأثير الادارة الأمريكية في ذلك الوقت على الأوضاع الداخلية في ايران.

كـان غرض الشـاه من أخذ مشـورة علي أميني ادخـال بعض الاصـلاحـات السياسية على نظام حكمـه تمكّنه من قـطع الطريق عـلى التغييرات الجـذرية التي يدعو إليها آية الله خميني. تناولت المحادثات التي جرت بـين الشاه وأميني عـدداً من الاصلاحات المهمـة كالحـد من سلطات الشاه وتمكـين «البرلمـان» من العمل بحرية كسلطة تشريعية وعدداً آخر من الاصلاحات السياسية التي اقترحهـا علي أميني والتي كـان يمكن أن تصبح أسـاساً صـالحـاً لتغيـير نـظام الحكم من نـظام أوتوقراطي إلى نظام «برلماني» ديمقراطي. وكان الغرض الآخـر للشاه من اجـراء تلك المداولات مع أميني وغيره هو اقناع بعض الشخصيات المعـروفة بمعـارضتها لنظام حكمه كالسياسيين الذين تعـاونوا مـع حكومـة الدكتـور مصدق وكـذلك الاشتراكيين الديمقراطيين بالتعـاون معه واستـلام بعض المراكـز الحساسـة داخل الحكم. بعد اكمال حـواره مع عـدد غير قليـل من قدامى السيـاسيين بـدأ الشاه يعلن عن الاصلاحات السياسية التي يـوافق عليها مثـل مسؤولية «الـبرلمان» عن *تعيين رؤساء الوزارات ومسؤولية الحكومة أمام «البرلمان» وتصريف شؤون الدولة* من قبل رئيس الوزراء دون تدخل من أية جهة كـانت وبنفس الحريـة التي تمنح لرئيس أية حكومة غربية وحرية الانتخابات «البرلمانية». بالاضافة إلى هـذا وافق الشاه أيضاً على مسؤولية «البرلمان» والحكومة عن تطبيق ميزانية الحكومـة العامـة وسياسة البلاد النفطية (أي اخضاع شركة النفط الوطنية التي كانت تحت سيطرة الشاه مباشرة وبصورة مستقلة عن الحكومة إلى قرارات مجلس الوزراء). قضيتان امتنع الشاه عن التنازل عنهما الأولى منصب القائد العام الأعلى للقـوات المسلحة والثانية ميزانية وزارة الدفاع ورفض أي تدخل في شؤونهما من قبـل «البرلمـان» أو مجلس الـوزراء. كان الشـاه يبرر تصلبـه في هـذه القضيـة بـالقـول ان القـوات المسلحـة هي «اداة الملك وسنده» وان البـلاد تبني جيوشهـا لـواجبـات الـدفـاع

الوطني ولهذا «لا يعهد بها الا للملك وحده الذي يحمل المصلحة القومية العليا الموضوعية والمجردة عن الهوى في ضميره وعقله!».

مع أن علي أميني لم يكن متفقاً مع الشاه في هذا الرأي إلا أنه وافق أن يكون مبعوثه الخاص للسفر إلى باريس وبحث هذه الاصلاحات السياسية التي وافق عليها الشاه مع أعوان آية الله خميني ومحاولة التوصل إلى تفاهم وحل وسط يمكن معه إذا تحقق نزع الفتيل عن القنبلة الزمنية للثورة قبل انفجارها.

خلال فترة حوار الشاه مع الشخصيات السياسية كنت أقابله بين يوم وآخر فيحدثني عن اتصالاته والآراء والحلول التي طرحت عليه مستحسناً بعضها ورافضاً البعض الآخر. من جملة الآراء التي كان يرفضها بصورة قاطعة هي التي تقول بضرورة اللجوء للقوة العسكرية لقمع الاضطرابات وسحق أعدائه. كان يعتقد أن المشكلة التي تواجهه هي مشكلة سياسية ولذلك يجب أن تحل سياسياً. كان الشاه يكره أن ينعت بالرجعية ولهذا أخذ يكرر المرة تلو الأخرى أنه يؤمن بالتقدم وأنه مستعد أن يتخذ خطوات سياسية أكثر تقدمية مما يطالب به المعارضون لو كانت لديه القناعة بأن المجتمع الايراني لديه القدرة والقابلية على استيعابها وتقبلها. كان رأيه حول احتمال قيام ثورة شعبية في ايران ان الثورة التي يقودها رجال الدين لا يمكن أن تكون أكثر من خطوة أولى تمهد الطريق لثورة أخرى تعقبها ويسيطر عليها الشيوعيون الذين لا يعملون لغير مصلحة الاتحاد السوفييتي وأطماعه التوسعية ولهذا فإنه يعتقد أن واجبه يقضي باتخاذ جميع الاجراءات المناسبة والتي قد تعتبر في الأوقات الاعتيادية غير حكيمة من أجل انقاذ البلاد من أخطار انحلال وتفسخ ثنائي أوله أسود وآخره أحمر (الاسود يقصد به عمائم رجال الدين الشيعة والأحمر علم الثورة الشيوعية).

في تلك الأثناء أيضاً كنت ألتقي علي أميني بصورة تكاد تكون متواصلة في اجتماعات سرية للاطلاع منه مباشرة على المداولات التي تجري بينه وبين الشاه. السبب في سرية اجتماعاتنا هو أن علي أميني الذي تتهمه بعض الجهات بالعمالة لأمريكا طلب أن تكون لقاءاتنا في مكان آخر غير السفارة الأمريكية أو مسكنه الخاص تفادياً لتخرصات الناس واتهاماتهم ولذلك اتفقنا أن نجتمع في منزل

أحد الموظفين الايرانيين في دائرة الاستعلامات الأمريكية. كنا نجلس ونحن نرتدي معاطفنا في غرفة الضيوف الباردة والمظلمة الا من نور باهت لشمعة وحيدة بيننا نناقش أوضاع البلاد السياسية ونتبادل الآراء والمعلومات ونحن نحتسي أكواب الشاي الساخنة مع قطع صغيرة من البسكويت الايراني اللذيذ.

لا أعتقد أن اجتماعاتي الليلية مع علي أميني بقيت سرية بالنسبة للسافاك والشاه لمدة طويلة إذ أن متطلبات أمنية وخاصة في مثل تلك الأوقات المضطربة كانت تقضي أن يرافقني عدد من حرس السفارة من الشرطة الايرانيين في طريق ذهابي وايابي ولا أستبعد أن تكون التقارير التي كانت ترفع من قبل السافاك الى القصر قد أكدت تهمة العمالة لأمريكا ضد علي أميني بينما كان من المحتمل أن نتفادى اثارة الشكوك لو أن علي أميني وافق على أن نجتمع بشكل ظاهر وعلني في سفارتنا كما اقترحتُ عليه في البداية. لم يكن علي أميني كبير التفاؤل بالمناورات السياسية التي يقوم بها الشاه منذ عدة أسابيع. قال انه نصح الشاه بالتخلي ليس عن سلطته السياسية فحسب وانما التخلي أيضاً عن سيطرته على القوات المسلحة واحتكاره للميزانية العسكرية أيضاً. وقال أيضاً ان خلافه مع الشاه أثناء رئاسته للحكومة في 1961-1962 واستقالته من منصبه كان بسبب اصرار الشاه على هيمنته على الميزانية العسكرية. وحول المناورات السياسية التي يقوم بها الشاه حالياً وحواره مع شخصيات سياسية قال أميني انه صارح الشاه بالقول ان ليس هناك شخصية سياسية تثق بالوعود التي يقطعها على نفسه أمامهم وان أفضل خطوة يتخذها الآن هو مغادرة البلاد مع عائلته في اجازة طويلة والبقاء في الخارج طيلة المدة الضرورية لوضع أسس ثابتة يتم الاتفاق عليها في غيابه للتغيير السياسي والدستوري. (في احاديثي مع الشاه لم يتطرق لهذا الجانب من رأي أميني). بعد زيارة علي اميني لباريس والمفاوضات التي أجراها مع مساعدي آية الله الخميني عاد الى طهران وأخبر الشاه أن أية تسوية لم تتحقق وان التنازلات التي يقدمها الشاه لن تغير من موقف الخميني منه ومن نظام حكمه.

قال لي أميني بصورة خاصة عن رأيه الشخصي بعد تلك الزيارة لباريس والذي لم يقله للشاه وهو ان آية الله الخميني ومؤيديه وأتباعه ليست لديهم رغبة

البتة في التوصل إلى أية تسوية مع الشاه وأنهم يرفضون كل تفاهم معه وسيبقى موقفهم كذلك حتى إجبار الشاه على التنازل عن العرش.

جواباً عن سؤالي حول النتائج التي تحققت من خلال حواره مع الشاه قال أميني ان كل شيء باقٍ على حاله بسبب معارضة الشاه للتنازل عن حق الاشراف على الميزانية العسكرية «للبرلمان» ورفضه مغادرة البلاد بإجازة طويلة.

كانت اجتماعات الشاه بالسياسيين القدماء قد توقفت خلال الفترة التي أمضاها أميني في باريس إلا أنها تجددت بعد فشل المهمة السياسية التي أوفده الشاه من أجلها. استمرت الاجتماعات الجديدة عدة أسابيع خرج منها الشاه وقد أصبح موقفه من القضايا المعلقة أقل تشدداً من قبل فوافق على التنازل عن حق الاشراف على الميزانية العسكرية لصالح «البرلمان» ومجلس الوزراء. أما مسألة غيابه في اجازة طويلة عن البلاد فقد اتخذت شكل خطوات متتابعة كل خطوة أكثر تقبلاً للأمر الواقع من التي سبقتها. كانت خطوته الأولى الموافقة على مغادرة العاصمة إلى ميناء بندر عباس مقر القوة البحرية الايرانية والاعتكاف هناك وبذلك يكون غائباً عن الأنظار دون أن يغادر ايران. في مرة أخرى قال انه سيعتكف في قصره الشتوي في جزيرة «كيش» ثم غير رأيه مرة أخرى وقال إنه سيقيم في اليخت الملكي ويتجول داخل مياه الخليج وأخيراً قال ان جولته البحرية ستكون خارج الخليج وفي المياه الدولية.

في النصف الثاني من شهر كانون الأول انهارت آمال الشاه بايجاد حل ينقذ الموقف المتردي وظهر عليه اليأس والقنوط فأخذ يتناول في حديثه احتمال رحيله عن البلاد لمدة طويلة يقوم أثناءها مجلس للوصاية على العرش بتدبير شؤون البلاد.

ما يمكن قوله الآن هو أن جميع الاجراءات السياسية التي وافق الشاه على اتخاذها كانت دوماً جد قليلة وجد متأخرة. وعندما أستعيد للذاكرة تلك الأحداث بشيء من التأمل الهادىء أعتقد اعتقاداً يكاد يكون جازماً أنه لم يكن من المرجح أن يتمكن أي اجراء قد يتخذه الشاه في ذلك الوقت من تعطيل مسيرة الثورة التي كانت تزداد شعبية وزخماً مع مرور كل يوم. وفي الحقيقة،

عندما أجبرت الظروف الشاه على التفكير في تحقيق اصلاحات سياسية كانت الثورة قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق الوصول إلى هدفها الأخير. وحتى التنازلات السياسية المتعاقبة التي وافق في المراحل الأخيرة على تقديمها فإنها أصبحت غير كافية بالنسبة لأعدائه فكل تنازل يوافق عليه يزيد من شهيتهم بعد أن شعروا أنه وصل لمرحلة الاستسلام. مع ذلك فإن الشاه ظل يقاوم لمدة شهرين كاملين شاغلاً نفسه والآخرين بمناوراته السياسية العقيمة، باحثاً دون جدوى عن صيغة تقربه إلى قلوب الجماهير الواسعة والوقوف إلى جانبه أمام مخططات أعدائه السياسيين الذين لا يرتضون بأقل من ازاحته عن عرشه والتخلص من حكم عائلة بهلوي وكل ما يمثله في ايران.

19

رسل من واشنطن

خلال الأسابيع التي باتت فيها اجتماعاتي مع الشاه شبه يومية كنتُ أبعث إلى واشنطن تقريراً بعد كل اجتماع أشرح فيه التطورات الأخيرة والقضايا التي بحثت في الاجتماع غير أني لم أكن أستلم من واشنطن أي تعليق أو رأي يمكن أن يفهم منه موقف حكومة الولايات المتحدة مما يجري في ايران.

كان الشاه منذ فترة من الزمن يقابلنا أنا والسفير البريطاني معاً غير أنه غيّر هذه العادة فجأة بعد أن أحجمت الحكومة البريطانية عن تأييد فكرة المجيء بحكومة عسكرية. بعد ذلك تعرضت السفارة البريطانية لهجوم غوغائي على مبنى مكاتب السفارة واشعال النار فيه وألحقت بما يحتويه من أثاث ووثائق وأجهزة أضراراً مادية كبيرة. بالاضافة إلى ذلك كان الشاه وكبار المسؤولين الحكوميين لا تتوقف احتجاجاتهم على ما تذيعه اذاعة BBC البريطانية من أخبار وتعليقات عن أحداث ايران والتي كانوا يعتبرونها عدائية للشاه ونظام حكمه ومنحازة للمعارضة السياسية الايرانية. هذه العوامل مجتمعة أدت الى فتور في العلاقات الايرانية البريطانية مما جعل السفارة البريطانية في ايران في حالة من الركود. ولما كان السفير بارسنز قد أمضى ما يزيد على أربع سنوات في ايران فإنه أخبر من قبل حكومته بأنه سينقل قريباً إلى مركز جديد.

لقاءاتي مع الشاه في تلك الفترة رغم استمرارها باتت على العموم غير مجدية وحديثنا دون نتيجة. فالشاه لا ينفكّ يسأل المرة تلو الأخرى ما إذا كنتُ

استلمت تعليمات جديدة وجوابي بالنفي لا يتغير هـو الآخر. ولقـد تطرق الشـاه لاجتماعاتنا تلك في كتابه Answer To History الذي نشر عـام 1980 وكتب ما يلي:

«في كل اجتماع لي مع ساليفان كنت أسأله إذا كان قد استلم خطيـاً ما يؤكـد تصريحات التأييد الرسمية فيهز رأسه علامة النفي قائلاً انه لم يستلم أية تعليمات من واشنـطن ولذلـك لا يستطيـع ابداء تعليق أو مـلاحظة. كـان ساليفـان دائماً كيِّساً ورزيناً ومعنيـاً. كان يـأتي لرؤيتي عـدة مرات في الأسبـوع. ومع أنـه كان يبدي اهتماماً كبيراً بكل ما كنت أقوله له إلا أن جوابه الذي لم يتغير طوال المـدة كان. . . «لم أسلم تعليمات»».

في نفس الوقت الذي كـان فيه الشـاه مشغولاً بمنـاوراته السيـاسية ظهـر على مسرح الأحـداث شخص آخر عـائد من واشنـطن هو «اردشـير زاهدي» سفـير ايران لدى الولايات المتحدة وانهمك هو الآخر في مناورات سياسية من نوع آخر كانت تستهدف حشد كل الفئـات المؤيدة للشـاه في ايران وخـارجها عـلى نطاق دولي مع تركيز خاص على الولايات المتحدة. ونظراً لعلاقات الصداقـة الحميمة التي تـربطه بـالعائلة المـالكة كـان زاهدي يقضي جـزءاً كبيـراً من وقتـه في قصر ينافران ويتناول وجبات الطعام مـع الشاه وأفـراد عائلتـه. أما مـا تبقى من وقته فإنه كان يقضيه مع فريق عمل صغير من أصـدقائـه القدمـاء في الدارة الفخمـة التي يمتلكهـا فوق مـرتفع من الأرض الـذي يـطل من عليـائـه عـلى العـاصمـة طهران. كان زاهدي يعمل بحماس وهمة لتوحيد صفوف القوى والفئات المؤيدة للشاه وخاصة التي دعمت والده الجنرال زاهدي في الانقلاب الذي قام به ضـد حكومة الدكتور مصدق عام 1953 وأعاد الشاه إلى عرشه. عـلى الصعيد الـدولي كان يركز اهتمامـه بالـدرجة الأولى عـلى وسائـل الاعلام الامـريكية من صحـافة ومرئية وعلاقات عامة ويوجه الدعوات لمجموعة بعـد أخرى من هؤلاء وغـيرهم للقـدوم إلى ايران ضيـوفاً عليـه. في تلك الأيام كنتُ عـلى صلة وثيقة بـزاهدي الذي كان يدعوني لمسكنـه الفخم مرة في الأسبـوع على الأقـل حيث كنت ألتقي بمجموعة غريبة من الناس الذين لا يجمع بينهم غير مـا يقال عن تـأييدهم لنـظام الشـاه من طبقة التجـار ورجال الـدين وضباط الجيش. كـان من جملة الضبـاط

الجنرال «مانوشير خسروداد» قـائد قـوة الطائـرات السمتية والمـظليين وهـو رجل يتدفق بالنشاط والحيوية شديد الاندفاع في تأييـده للشاه ومبـالغ في ازدرائـه لقوة المعارضة السياسية.

كان غرض زاهدي من مساعيـه المحمومـة في الداخـل اقامـة تكتل عـريض القاعدة يتألف من رجال الدين المرتبـطين بالنـظام والموالـين له وعـدد من رجال الأعمال والتجار الذين يعتقدون أن مصـالحهم المزدهـرة يتوقف استمـرارها عـلى استمرار نظام الشاه الذين سوف يقفون وراء القوات المسلحة إذا ما قام يوماً مـا بحـركة ممـاثلة للحركـة الانقلابيـة التي قادهـا والده. كـان زاهدي يقـدم هـذه المجموعة لضيوفه الأمريكيين ويصفهم بأنهم الأغلبية الصـامتة التي سـوف تخرج عن صمتها في اللحظة المناسبة للقضـاء على أيـة محاولـة للقيام بشـورة ضد نـظام الشاه. غير أن الشاه نفسه لم يكن متحمساً لنشاط زاهـدي أو متفائـلاً بنتائجـه السياسية وعلق في احدى اجتماعاتنا على ما يقـوم به زاهـدي بالقـول أن لا أحد يخدع نفسه ويصدق أن تحركات زاهدي يمكن أن تؤدي الى أي نتيجة ايجابية كما أرادني أن أعلم واشنطن برأيه هذا والتأكيد على أن اطلاع زاهـدي على أوضـاع ايران الداخلية ضعيف وسطحي وأنه رغم اخلاصه ونواياه الطيبة فإنـه بعيد عن الواقع منذ زمن طويل.

من ناحية أخرى كان زاهدي يقول انه على اتصال وثيق بواشنطن وأنه يبعث تقاريره بصورة منتظمة عن نشاطه السياسي الى بريجنسكي وأن الجميع يشجعونه على مواصلة تحركه السيـاسي ثم أنه في رأيـه أن ما يقـوم به يتفق ورغبـة الادارة الامريكية ويقوي عزيمة الشاه ويشجعه على الصمـود والنضال من أجـل الدفـاع عن نفسه.

كل حديث مع الشاه أو مع زاهدي كنتُ أقدم عنه تقريراً إلى واشنـطن دون أمل باستلام توجيه واضح وصريح حول موقف الحكومة وبالتـالي الموقف الـذي علي اتخاذه على ضوء الموقف الرسمي لحكومتي. وعلى العكس من ذلـك، بدأت الرسائل التي تصلني تبدو أكثر ارباكاً وتشويشاً.

في تلك الفترة أيضاً أخذ رسل الادارة الى ايـران يصلون تباعـاً البعض منهم

بصفة رسمية والبعض الآخر نصف رسمية وكلهم يحملون رسائل لتبليغها للشاه. كان أول الموفدين مدير احدى الشركات الامريكية الكبيرة ومسؤول وكالة المخابرات المركزية CIA الاقليمي في ايران سابقاً. كانت الشركة في تلك الأثناء تتفاوض مع الحكومة الايرانية لعقد صفقة مهمة تبلغ قيمتها عدة مليارات دولار. ولم يجد السيد بريجنسكي غضاضة بايفاد مدير الشركة للقيام بمهمة دبلوماسية في ايران. قال المدير انه يريد لقاءً خاصاً مع الشاه ليقيّم حالته الفكرية ويبلغه بتأييد حكومة الولايات المتحدة لنظام حكمه وتشجيعه على اتخاذ اجراءات حازمة وحاسمة ضد قوى المعارضة. في الوقت نفسه سلمني رسالة من بريجنسكي يطلب الي فيها تقديم كل التسهلات اللازمة لتسهيل مهمة رسوله بما فيها الاستفادة من وسائل الاتصالات الخاصة بالسفارة.

قدمت السفارة التسهيلات التي أبدى احتياجه إليها رغم ملاحظاتي أن تصرفاته يكتنفها شيء من الغموض والتكتم. بعد انتهاء مهمته بعثت الى السيد بريجنسكي رسالة أعربت فيها عن استغرابي وتحفظاتي على استخدام موظف في شركة خاصة تسعى للحصول على عقد دسم من الشاه كرسول دبلوماسي لحكومة الولايات المتحدة! جاء رد بريجنسكي سريعاً ولاذعاً يقول فيه ان الطريقة التي تعمل بها الادارة هو أمر لا شأن لي به! بعد هذا كان من الطبيعي أن تصبح آرائي بالنسبة للبيت الأبيض عديمة الأهمية.

الرسول رقم 2 كان السيد «مايك بلومنتال» وزير المالية الذي سبق له زيارة ايران في العام الفائت. كان الغرض من زيارته الحالية نفس غرض الزيارة السابقة أي استطلاع رأي الشاه وموقفه من مسألة أسعار النفط. ومع أنه كان يعلم أن الشاه كان في المدة الأخيرة حريصاً على تحقيق استقرار في أسعار النفط في الأسواق العالمية ويعلم أيضاً انشغال الشاه كلياً في مشكلاته السياسية الداخلية الا أنه أصر على طلب موعدٍ ليبحث معه نفس الموضوع.

في اليوم التالي لوصوله ذهبنا معاً لرؤية وزير المالية الجديد في حكومة أزهري وهو شاب تلقى تعليمه الجامعي في الولايات المتحدة ومتزوج من سيدة أمريكية ويعتبر من أصدقاء أمريكا. كان الاجتماع ناجحاً وأظهر الوزير تفهماً طيباً لما

يساور حكومة الولايات المتحدة من قلق بسبب عدم استقرار أسعار النفط.

في اليوم التالي ذهبنا إلى القصر في الموعد المحدد لرؤية الشاه. ومع أن الاجتماع كان مفيداً فيما يتعلق بغرض زيارة بلومنتال إلا أن حالة الشاه النفسية كانت في أدنى مستوياتها بسبب فشل جميع الجهود التي بذلها من أجل تحقيق تسوية للمشكلة السياسية ولم يعد أمامه من فرص عديدة أخرى ولذلك كان اهتمامه بأسعار النفط أو أية قضية اقتصادية أخرى معدوماً. كان جالساً أثناء الحديث وعلامات اللامبالاة ظاهرة على وجهه ولم يشترك في الحديث إلا بجمل عابرة. أثناء تناول طعام الغداء على مائدته لم يكن وضعه بأحسن مما كان في الاجتماع فأخذت الشاهبانو على عاتقها واجب ادارة الأحاديث بأسلوبها الكيّس واللبق.

شعر بلومنتال كغيره من رسل واشنطن الذين طلب اليهم محاولة شحذ همة الشاه وتصليب عوده بصدمة شديدة من حالة الشاه النفسية وقال بعد خروجنا من القصر أنه لا يرى أملاً كبيراً أن يقدم الشاه وهو في هذه الحالة من اليأس والاستسلام على اتخاذ أي اجراء قوي وفعال من أجل المحافظة على مركزه.

مع ذلك تواصل قدوم مبعوثي واشنطن.

المبعوث الجديد الذي وصل بعد مغادرة بلومنتال طهران هو «بوب بودي» الرجل الثالث في وكالة المخابرات المركزية ليقدم للشاه تقرير الاستخبارات العسكرية وهو تقرير سنوي تقدمه الولايات المتحدة لايران في نهاية كل سنة ويبحث في التطورات العسكرية التي حدثت خلال عام كامل لدى الدول التي يمكن اعتبارها عدواً محتملاً لإيران وتتضمن عادة معلومات سرية عن القوات العسكرية وتسليحها وأماكن القواعد العسكرية والصناعة الحربية وأنواع الأسلحة الجديدة وخواصها وغير ذلك من المعلومات العسكرية للأعداء المحتملين الذين يمكن أن يشكلوا خطراً على الأمن القومي لإيران.

هذا التقرير السنوي كان يستقبله الشاه دائماً بمزيد من الاهتمام والانتباه ويطيل مناقشته ويوجه الأسئلة العديدة حوله بمزيد من الحماس والحيوية. في هذه المرة قابله بفتور وعدم اكتراث وكأن الأمر لا يعنيه مطلقاً وانتهى الاجتماع بعد

وقت قصير. وخرج «بودي» من الاجتماع ولديه نفس الانطباع الذي خرج به «بلومنتال» قبله عن حالة الشاه.

كان موفد واشنطن الأخير والأرفع مكانة بينهم هو «روبرت بايرد» زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ الأمريكي آنذاك. لم يكن بايرد سياسياً بارزاً فحسب بل كان أيضاً يتمتع بقوة الفراسة والخبرة في تقييم الأشخاص. كان صهر أمريكي ايراني الأصل كما أنه كان من المهتمين بشؤون ايران منذ سنوات طويلة.

وصل بايرد بطائرة رئاسية يرافقه عدد غير قليل من المعاونين. في مساء يوم وصوله عقدنا اجتماعاً في مسكني حضره بايرد ومعاونوه مع بعض كبار موظفي السفارة. طلب بايرد رأي السفارة في الأوضاع الراهنة والاحتمالات التي يمكن حدوثها وموقف الشاه من المشكلة التي تواجهه. شرحت بشيء من الاسهاب ظروف البلاد السياسية وما لدى سفارتنا من معلومات عن القوى المعارضة للشاه واتجاهاتها السياسية ومدى نفوذها في الأوساط الشعبية ثم تطرقت لموقف القوات المسلحة ومدى تأييدها للشاه واختتمت كلامي بتقديم صورة عامة لم تكن يقيناً كثيرة التفاؤل. علق بايرد بعد أن انتهيت من حديثي بالقول ان الصورة التي قدمتها ليست هي الصورة الموجودة في أذهان المسؤولين في واشنطن ثم تحدث بايجاز عن المعلومات التي سمعها من بريجنسكي قبل مجيئه والتي فهم منها أن الشاه لديه الاستعداد والقدرة أيضاً للدفاع عن عرشه ومركزه ولكنه متردد في اختيار الأسلوب المناسب بسبب الاشارات المتباينة والمربكة التي تصله من وزارة الخارجية وسفارتنا. ثم تابع حديثه قائلاً انهم طلبوا منه أن يبلغ الشاه ويؤكد له استمرار تأييد حكومة الولايات المتحدة له ولحكومته وأن يحثه على اتخاذ كل اجراء يراه ضرورياً للدفاع عن عرشه! سألت الشيخ بايرد إذا كانت هذه الرسالة التي كلف بنقلها إلى الشاه تستتبع بالتالي كنتيجة لا بد منها تشجيعه وحثه على استعمال القوة من أجل قتل المعارضين في الشوارع؟ انتفض الشيخ بايرد لهذا الكلام وأنكر وجود تفكير من هذا النوع في أذهان المسؤولين في واشنطن وأنه شخصياً لن يقول شيئاً قد يوحي الى الشاه بموافقة حكومة

الولايات المتحدة على مثل هذا الاجـراء. قلتُ انه إذا كـان يريـد أن يبلغ الشاه هذه الرسالة التي كلف بنقلها عليه إذاً أن يتوقع سؤالاً قد يلقيه عليه الشاه حول ما إذا كانت حكومة الولايات المتحدة تريـده أن يطلق الـرصاص عـلى خصومـه السياسيين! التزم بايرد بالصمت ولعله كان يفكر بما قد ينجم عن نقـل الرسـالة من تعقيد والتباس.

من أجل تبديد الحيرة التي انتـابت الشيخ بـايرد بعـد ذلك الحـديث الطويـل والمتشعب وهو يقارن بين ما قيل له في واشنـطن وما سمعـه في طهران اقـترحت عليه أن يقوم صباح اليوم التالي بزيارة لعائلة صهره ويتناول معهم طعام الافطار ويستمع في الوقت نفسه لما يقوله الايـرانيون أنفسهم عن الأوضـاع في بلادهم. وافق محبذاً الاقتراح ولكنه اقترح أن يصطحب معه بعض أفـراد حاشيتـه حتى لا يكون الاجتماع عائلياً بحتاً.

الكلام والآراء التي استمع إليها بايرد في مسكن عائلة صهره كانت كـما كنت أتـوقع، فـالمتقدمـون في السن كانـوا من المؤيدين للشـاه ويشعـرون بقلق حـول مستقبله وجيـل الشبـاب كـان من المتحمسـين في معـارضتهم لحكمـه ويتمنـون سقوطه وتغيير نظام الحكم وخرج بايرد من بيت أقاربه ولديه فكرة أكثر وضوحـاً عن حقيقة الوضع السياسي في ايران. وقال لي ونحن في طريقنا الى قصر ينافران لمقابلة الشاه ان الأوضاع أخذت تبدو له الآن أشد تعقيداً ومدعاةً للكآبة مما كان يتصورها في واشنطن.

الاجتماع مع الشاه لم يستطع أن يحسن ذلك الانطباع الكئيب وإنما زاده كـآبة ويـأساً. ومـع أن الشاه بـذل جهـداً كبيـراً للظهـور طبيعيـاً فتحـدث قليـلاً عن الأحداث الأخيرة واحتمالات التوصل إلى تسوية سياسية مع قوى المعارضة ولكن الذي لاحظناه هو أن طـريقة تفكـيره عن كيفية انهاء الأزمـة الحادة التي تـواجهه كانت سلبية. استمع الشاه بفتور وقلة اكتراث لعبارات التأييد التي حملها الشيخ بايرد اليه باسم حكومة الولايات المتحدة دون أن يعلق بشيء.

مـأدبة الغـداء التي أقيمت على شرف الشيـخ بايـرد كانت كـارثة بكـل معنى الكلمة رغم كل ما بذلته الشاهبانو من جهد لتلطيف الجو وجعله مـريحاً. فلقـد

ظل الشاه طوال تلك المأدبة المحنة مثبتاً أنظاره نحو سقف الغرفة لا ينبس ببنت شفة ولم يتناول من الطعام إلا أقله وبدا وجهه شاحباً ومنهوك القوى.

بعد مغادرتنا القصر لم تكن لدي مع الأسف فرصة للتحدث مع بايرد غير دقائق معدودة حيث كان علي أن أعود إلى السفارة لحضور اجتماع تحدد موعده في وقت سابق وكان الشيخ مزمعاً على السفر بعد وقت قصير. ولكن الكلمات القليلة التي تبادلناها قبل أن يستقل الطائرة المروحية التي ستقله إلى المطار دلت على أن تقييمه للموقف بات أقرب إلى تقييم السفارة من آراء وتقييم واشنطن.

20

تصور ما لا يتصور

قرار رئيس الوزراء شريف امامي بالطلب من الحكومة العراقية طرد آية الله خميني من الأراضي العراقية كان عملاً من النوع الذي يرتد أذاه على صاحبه. فالخميني بعد أن أمرته الحكومة العراقية بمغادرة البلاد توجه إلى فرنسا مستفيداً من سماح الحكومة الفرنسية للمواطنين الايرانيين بدخول الأراضي الفرنسية بدون تأشيرة دخول. بعد وصوله إلى باريس أقام في دارة صغيرة في احدى الضواحي القريبة من العاصمة ومعه عدد من المستشارين والمساعدين الذين التحقوا به قادمين من ايران والولايات المتحدة وبقية أنحاء العالم. هذه الدارة الصغيرة تحولت إلى نقطة تركزت عليها أنظار واهتمام الصحافة العالمية ومصوري المرئية وأصبح باستطاعة آية الله الظهور على شاشات المرئية في مختلف أقطار العالم كلما شاء ذلك. هذا الشخص الغريب الذي يفضل الجلوس على الأرض تحت ظل شجرة في حديقة دارة فرنسية والذي يقذف بحمم غضبه وحقده على عدوه اللدود شاه ايران ويقود ثورة اسلامية ضده رغم عدة آلاف من الكيلومترات التي تفصل بينهما أثار اهتمام العالم كله. وسائل الاتصالات الهاتفية واللاسلكية المتطورة التي قمنا نحن الأمريكيين باقامتها في ايران مكنت الخميني وأعوانه من الاتصال المباشر والفوري مع أتباعهم ومريديهم في طهران وبقية أنحاء ايران في كل وقت يختارونه. أما في داخل ايران فإن مخططاتهم كانت تنفذ عبر شبكة واسعة من كبار رجال الدين بقيادة اثنين من آيات الله هما «بهشتي

وطالقاني» اللذان كانا يعتبران من أكثر القادة الروحيين ثقافة وكفاءة ونباهة. بعد دراسة الفقه الاسلامي في قم سافر بهشتي إلى المانيا الغربية وحصل على درجة علمية من جامعة «توبنغن» ثم عاش في هامبرغ حوالي ثماني سنوات يدير شؤون المركز الإسلامي الشيعي فيها. وقد وفرت له اقامته الطويلة في أوروبا فرصة فريدة للاهتمام بالنواحي العلمانية للثورة الاسلامية وهو أمر لم يتوفر مثله لآية الله الخميني.

بالإضافة إلى الشخصيات الدينية التي كانت شديدة الولاء لآية الله الخميني كان هناك أيضاً مجموعة من المدنيين الذين كانوا يعطفون على ثورة الخميني ويؤيدونها ومن جملتهم مهدي بزركان وأمير انتظام وناصر منتاشي وثلاثتهم من قياديي ما كان يسمى بجبهة التحرير وكانوا على صلة وثيقة بحاشية الخميني عن طريق ابراهيم يازدي الذي كان مهاجراً في الولايات المتحدة وأقام سنوات عديدة في «هيوستن» وحصل على الجنسية الأمريكية.

عندما اكتشفت بعد فترة من وصولي الى ايران المجالات الضيقة والمحدودة لاتصالات سفارتنا بفئات المعارضة طلبت من وزارة خارجيتنا اعادة موظف دبلوماسي يتقن اللغة الفارسية مرة أخرى الى طهران لمساعدة السفارة في توسيع نطاق صلاتها بمختلف الفئات السياسية الموالية منها للنظام والمعارضة أيضاً. وقد استطاع هذا الدبلوماسي عن طريق صداقاته القديمة من التعرف على آية الله بهشتي أثناء وليمة أقامها صديق مشترك للطرفين. الانطباع الذي خرج به الدبلوماسي عن بهشتي هو أنه لا يضمر نحو الولايات المتحدة شعوراً عدائياً بل يعتبر أنها كانت على الدوام عاملاً مشجعاً لتحقيق تطور اجتماعي واقتصادي وسياسي لمصلحة الشعب الايراني. مع ذلك، لست أدري إذا كانت العناصر الشابة «الراديكالية» التي تقود المظاهرات وتحرق المصارف والمباني والتي تتحرك كما يقال حسب ارشاداته وتوجيهاته تشارك بهشتي في رأيه الودي بالولايات المتحدة.

مع تزايد حدة الصراع وسرعة تطور الأحداث وغموض المستقبل رأيتُ من الضروري اجراء تقييم موضوعي للموقف العام والاحتمالات التي يمكن أن

تحدث فجأة لئلا تأخذنا الأحداث على حين غرة ونجد أنفسنا في موقف لم نحسب حسابه ولم نستعد لمعالجته حفاظاً على مصالح بلادنا الحيوية في ايران.

منذ أن قرر الشاه المجيء بحكومة عسكرية برئاسة الجنرال أزهري كنتُ أشعرُ أنها ستكون فرصته الأخيرة من أجل البقاء وأن مصيره ونظام حكمه سيتوقف على مدى نجاح أو فشل الحكومة العسكرية في تحقيق المهمة التي جاءت إلى الحكم من أجلها. فإذا فشلت في اعادة الأمن والاستقرار وفشلت في اعادة عجلة الصناعة الوطنية الى الحركة والانتاج فإن هذا سيجعل نجاح الثورة أمراً مؤكداً. ولذلك كان من رأيي أن نتهيأ منذ الآن للتعامل مع واقع جديد سيظهر إلى الوجود بعد سقوط الشاه ونظامه.

في يوم 9 تشرين الثاني بعثت تقريراً برقياً إلى واشنطن ضمنته تحليلي لأوضاع البلاد واستنتاجاتي وما أتصوره من خطوات وسياسة جديدة لضمان مصالحنا الحيوية في ايران. كان العنوان الذي اخترته لذلك التقرير البرقية «تصور ما لا يتصور» ومن جملة ما قلت فيه هو أن الرأي السائد في واشنطن عن الاستقرار في ايران انه يقوم على دعامتين الدعامة الملكية ودعامة المذهب الشيعي. وقلت ان دعامة المذهب الشيعي التي وقعت تحت هيمنة الدعامة الملكية منذ فشل ثورة 1953 طرأت عليها تطورات جذرية واسعة منذ ذلك الوقت فباتت الآن أكثر حيوية وأوسع نفوذاً في أوساط الشعب وأقوى ثقة بنفسها. وفي نفس الوقت ازدادت الدعامة الملكية انعزالاً عن الشعب وابتعاداً عن آماله وأمانيه. هذا التحول الكبير في ميزان القوى يعرفه المراقبون الأجانب جيداً ولذلك فإنهم عند ذكر النظام يقولون عنه... «الذي يؤيده ويدعمه الجيش». حتى هذه العلاقة بين النظام والجيش طرأ عليها بعض التغيير بعد تشكيل الحكومة العسكرية فصارت توصف الآن... «الجيش الذي يؤيد الشاه حالياً». والعلاقة بين القوتين العسكرية والدينية سوف تتقرر بشكل أوضح إذا استطاعت حكومة أزهري انتزاع الاقتصاد الوطني من قبضة رجال الدين الذين أصابوه بالعجز والشلل عن طريق الاضرابات والعصيان المدني. وإذا فشلت الحكومة في محاولاتها لتهدئة الفئات الدينية والسيطرة عليها فمن المحتمل قيام تفاهم بين

الجيش والقيادات الدينية. في رأيي ان مثل هذا الوفاق يكون ملائماً لنا وخاصة إذا تم بالطرق السلمية بواسطتنا وفق الخطة التي عرضتها على واشنطن والتي تصورت فيها قيام وضع جديد في البلاد يضطر معه ليس الشاه فحسب وإنما معظم كبار القادة العسكريين على مغادرة البلاد ومن ثم يصبح من الممكن تفاهم القيادة العسكرية الجديدة التي سوف تتألف من ضباط أصغر سناً ورتبة والقيادة الدينية على شكل النظام الذي سيخلف نظامَ الشاه. في مثل هذه الحالة ينتخب آية الله الخميني حكومة جديدة برئاسة شخصية سياسية معتدلة مثل بزركان أو ميناتشي وتجري انتخابات مجلس تأسيسي لوضع دستور جديد يعقبها بعد فترة انتخابات «برلمانية». توقعت في هذا التصور أن يقبل الخميني وأعوانه على مثل هذه الاجراءات لأنها تحقق لهم هدفاً من أهدافهم السياسية الأساسية وهي التخلص من حكم عائلة بهلوي كما أنها تجنب البلاد مخاطر حرب أهلية وتحفظ القوات المسلحة من خطر الانهيار والتصدع. وقلت أيضاً انه يجب علينا اعتبار هذا الحل مناسباً لنا لأنه يحول دون قيام حالة من الفوضى ويضمن سلامة ايران ووحدة أراضيها كما يحول أيضاً دون قيام زعامة راديكالية بالاضافة إلى أنه يسد كل المنافذ والثغرات التي يحاول الاتحاد السوفييتي التسلل عبرها إلى منطقة الخليج. قلتُ أيضاً أن الخسارة المهمة التي ستلحق بنا في هذا الوضع الجديد هو تراجع في علاقاتنا العسكرية والأمنية الحالية مع ايران، كما أنه من المتوقع أن يطرأ تحول جذري على موقف ايران المؤيد والمتعاون حالياً مع اسرائيل الى موقف عدائي. ومن المتوقع أيضاً أن النظام الجديد سيكون أكثر تحفظاً وحذراً بصورة عامة في تعامله معنا. اختتمت برقيتي بالقول إن هذا الوضع رغم سلبياته التي أشرتُ إليها يبقى على كل حال أفضل من اشتعال نار ثورة دموية تقلب الوضع رأساً على عقب وتؤدي إلى تفكك الجيش وانحلاله. لهذا كله اقترحت أن نتصور الآن ما لا يتصور ونتهيأ لكل احتمال طارىء.

هذه البرقية التي أرسلتها بتاريخ 9 تشرين الثاني أحدثت شيئاً من الذعر في واشنطن. ولم يكن سبب ذعرهم نتيجة تفكيرهم العميق فيما تضمنته البرقية من أخبار متعلقة وإنما بسبب رد الفعل الشديد للرئيس كارتر بعد أن قرأها. فالمعلومات التي لدي الآن تؤكد أنها كانت المرة الأولى التي يطلع فيها الرئيس

كارتر على تدهور الأوضاع في ايـران والخطر الـذي يهدد مـركز الشـاه. إذا كان الرئيس اطلع على هذه الحقيقة لأول مرة فعلاً فإن ذلك يعني أحـد أمرين: فـإما أنـه كان طـوال أشهر عـديدة مشغـولاً بمفـاوضـات كـامب ديفيـد بحيث أهمـل الاطلاع على تقـاريري وبـرقياتي أو أن المسؤول في لجنـة الأمن القومي في البيت الأبيض اختار عدم ازعاج الرئيس بمشـاكل ايـران. ومهما يكن من أمـر يقال ان الرئيس كارتـر بعد أن قـرأ برقيتي كتب مـذكرة مستعجلة بخط يـده إلى كل من وزير الخارجية فانس وبريجنسكي وبراون ومدير وكالة المخابرات المركزية يسألهم عن سبب عـدم اطلاعـه عـلى حقيقـة الأوضـاع في ايـران! ولأسبـاب غـامضـة وظروف مبهمة لها علاقة بمفاهيم بيروقراطية البيت الأبيض للمسؤولية السيـاسية فان خبر المذكرة التي حررها الرئيس بخط يده تسرب بسرعـة للصحافـة. ونظراً للطبيعـة الفـريـدة وانسجـام الأضـداد في واشنـطن فقـد أحـدث تسريب الخـبر للصحافة ردود فعل عجيبة لدى الأشخاص الذين وجهت المذكـرة اليهم. فبدلاً من العودة الى صلب الموضوع والاهتمام بما جاء في الـبرقية واتخـاذ قرارات تخـدم مصلحة البلاد فإن اهتمامهم جميعاً تركز على السؤال الـذي وجهه اليهم الـرئيس وأخذ كل منهم يعمل جاهداً وبطريقته الخاصة للتنصل من مسؤوليـة بقاء رئيس الجمهورية في ظلام دامس حول أحـداث ايران. والـظاهر أن مـا تضمنه سؤال الرئيس من معانٍ قد لامس وتراً شديد الحسـاسية في المجمـوعة العصبيـة للسيد بريجنسكي فاختار طريقة للدفاع عن نفسـه والقاء المسؤوليـة عن عاتقـه بمهاجمـة أفكاري وآرائي والتصريح هنـا وهناك بـأن «التشخيص الكئيب والمنذر بـالخطر» لأوضاع ايران بعيد كل البعد عن الحقيقة والـواقع ويؤكـد لكل من يستمـع اليه أن ما توقعته من احتمال سقوط الشاه هي توقعات باطلة وأن الشاه باقٍ في مكانه وقادر على التغلب على مشاكله الآنية. وهكذا اعتقد بريجنسكي أنه يستطيع بمثل هذه المكابرة العجيبة تبرئة نفسه من مسؤولية ابقاء رئيس الجمهورية في غفلة عن أحداث ايران وأزمة الشاه الخانقة حتى جاء اليوم الـذي وقع فيـه ما كـان يعتبره مستحيل الوقوع فذهبت ايران وذهب الشاه.

بصرف النظر عن عدم الانسجام الذي تعيشه بيروقـراطية واشنـطن وممارسـة شـد الحبل بـين الأطـراف المتعـددة فـإن بـرقيتي التي أزعجت البعض وأيقـظت

البعض الآخر من أحلام اليقظة لم تستطع أن تلزم المسؤولين بايلاء موضوعها ما يستحق من تفكير واهتمام وبالتالي اتخاذ قرار وموقف إذ أن واشنطن لم ترد على البرقية نهائياً.

وصل شهر تشرين الثاني الى نهايته ودخلنا في كانون الأول دون أن يصلني أي شيء من وزارة الخارجية أو البيت الأبيض. وكل ما حققته البرقية من نتائج هو صدور تصريح رسمي عن وزارة الخارجية أعاد فيها إلى الاذهان موقف التأييد الثابت والراسخ لحكومتنا للشاه وحكومته. وبعد أيام قليلة صدر عن الرئيس كارتر تصريح مشابه في مؤتمره الصحفي الأسبوعي. تصريحات التأييد هذه التي صدرت عشرات المرات في كل مناسبة وأحياناً بدون مناسبة أصبحت في الواقع مصدر ازعاج وإحراج للشاه شخصياً. وقد قال لي مرة إنه بات يشعر بحرج كبير من ترديد واشنطن المتواصل لتأييدها له بحيث جعلته يبدو أمام شعبه وكأنه دميةً بيد أمريكا أو عميلاً لها وبات الناس يشكون في مصداقية استقلاله.

الصحافيون الذين أخذوا يفدون الى ايران بالعشرات لمتابعة الأحداث كانوا على العموم قليلي الخبرة بمنطقة الخليج وشؤونها، كما أنهم لم يكونوا يبقون فيها أكثر من أسبوع أو أسبوعين بصورة متواصلة. من ناحية أخرى كانت غالبية المؤسسات الصحافية والاعلامية الامريكية قد أغلقت مكاتبها الدائمة في ايران قبل بدء الاضطرابات السياسية بسبب الغلاء الفاحش في الايجارات والمعيشة وأجور الاتصالات البرقية والهاتفية والمرئية التي وصلت إلى مستويات باتت معها غير مقبولة من وجهة نظر المقرات الرئيسية في أمريكا ولذلك لم يكن من المراسلين الأمريكيين في ايران غير واحد أو اثنين فقط. المراسل الصحافي الوحيد الذي لم يقطع صلته بايران طوال المدة حيث كان يقوم بزيارات قصيرة ولكنها متواصلة والذي كان لديه اطلاع وافٍ بأوضاع ايران والمنطقة هو «جو الكس موريس» مراسل صحيفة «لوس انجلس تايمس» وهو نجل صحافي أمريكي قديم الصلة بمنطقة الشرق الأوسط. كان موريس الابن قد اتخذ أثينا مقراً دائماً وينتقل منها الى أقطار منطقة الخليج والشرق الأوسط بين حين وآخر.

كما كان مثل أبيه واسع الاطلاع والثقافة وملماً إلماماً جيداً بتاريخ ايران وحضارتها القديمة ولديه عدد كبير من الأصدقاء والمعارف في ايران.

كان معظم الصحافيين الذين قدموا لتغطية أحداث تشرين الثاني وأوائل كانون الأول من الصحافيين الذين تمرسوا على العمل الصحافي في الهند الصينية واعتادوا على العيش والعمل الصحفي في أماكن وظروف شديدة القسوة والأخطار حيث كانت القذائف والرصاص المتطاير جزءاً من حياتهم اليومية. بعد انتهاء التورط الأمريكي في فيتنام تبعثروا في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة والعالم. عندما تفاقمت الاضطرابات السياسية في ايران أوفدوا اليها من قبل مؤسسات اعلامية أخرى للبقاء فترة قصيرة يجري بعد ذلك استبدالهم بآخرين ممن لديهم نفس الخلفية المهنية. بسبب هذا النوع من التغطية الصحافية غير الثابتة والمقيمة والعميقة كانت غالبية المقالات التي يقرأها الأمريكيون في صحافتهم ذات قيمة انطباعية كتبت من قبل صحافيين عثروا على قصة وحكاية لأول مرة.

كان عدد كبير منهم يلجأ للسفارة للاستعانة ببعض المعلومات الأساسية عن البلاد وأوضاعها ليمسكوا أطراف الخيوط التي يحتاجونها لنسج المقالات المشوقة للقراء في الولايات المتحدة. ولما كان بعضهم يصر على رؤية السفير لإلقاء بعض الأسئلة عليه وطلب رأيه رأيتُ من الأفضل أن أجتمع بهم مرة في الأسبوع كمجموعة وليس كأفراد شريطة أن لا ينقل عن لساني في الصحافة ما يدور أثناء الاجتماع من حديث وآراء وأفكار. هذا التفاهم نفذه الصحافيون بأمانة يشكرون عليها إلا في حالة واحدة خالف فيها أحدهم ما اتفقنا عليه وأقحم اسمي في تقريره لصحيفته.

هذه الاجتماعات الأسبوعية لم تكن مريحة كثيراً بالنسبة لي بسبب الأسئلة التي تنهال علي بالعشرات والتي كانت في غالبيتها محرجة. فمن جهة كنت أتمنى أن تكون أجوبتي صريحة وأمينة تتفق مع وجهة نظري الحقيقية ولكنني كنت من جهة أخرى تحت ضغط شديد ومتواصل من واشنطن لتجنب أي اشارة أو تلميح يتعارض مع سياسة الحكومة الرسمية المؤيدة للشاه أو يوحي بحدوث

تعديل على هذه السياسة. غير أن رجال الصحافة ما كانوا بحاجة لايحاء أو انطباع يصدر عني ليلمسوا بأنفسهم مدى تدهور الأوضاع في ايران، إذ كان بامكانهم التجول هنا وهناك والاتصال بطريقة أو أخرى باحدى الفئات المعارضة وبالتالي الاعتماد على تقديراتهم الذاتية والحكم على الأوضاع نتيجة لما يرون ويسمعون. ولهذا السبب كانت تغطية الصحافة الأمريكية للاحداث والأوضاع في ايران تتناقض تناقضاً واضحاً مع العبارات المتفائلة وتصريحات الثقة والتأييد التي تتردد على ألسنة المتحدثين الرسميين في واشنطن.

في مطلع كانون الأول 1978 جاء لمقابلتي مجموعة مواطنين أمريكيين قدموا الى ايران لمعرفة حقيقة الوضع على أرضية الأحداث بعد أن تشوشت أفكارهم بسبب التناقض الواضح والجلي بين المعلومات الحكومية الرسمية في واشنطن وما تنشره وسائل الاعلام الامريكية. قالوا انهم لا علاقة لهم بالصحافة وكل ما يريدونه هو التوصل لمعرفة الحقيقة. وقد أكد «رامزي كلارك» الذي تربطني به معرفة قديمة أنه مع الآخرين ومن جملتهم أحد أساتذة جامعة «برنستون» سوف يحترمون سرية كل ما يدور بيني وبينهم من حديث مهما كانت درجة صراحته.

بناءً على هذا التأكيد تحدثت أمامهم بايجاز عن تاريخ إيران الحديث بعد الحرب العالمية الثانية وتطرقت الى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ثم اعطيتهم فكرة عن الفئات المعارضة للشاه والاضطرابات السياسية الحالية وختمت كلامي بابداء رأيي الخاص غير المتفائل وقلت انني لا أستبعد نجاح الثورة وانهيار نظام الشاه.

الغريب ان هذه الصورة المتشائمة التي عرضتها عن أوضاع ايران الحالية لأولئك المواطنين لم تثر لديهم شعوراً بالانزعاج أو القلق فلقد كانت مشاعرهم أقرب الى الثوار منها إلى الشاه ونظامه، ولكن الأمر المؤسف الذي كدرني هو أن أحدهم (الاستاذ في برنستون) حنث بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم أمامي وصرح علناً ونقلاً عني في باريس التي جاءوا اليها من طهران بأمل الاجتماع بآية الله الخميني هذا الاستاذ لم يستطع مقاومة رغبة جامحة في نفسه فأعلن أمام بعض الصحفيين الأمريكيين هناك ما سمعه وزملاؤه مني في طهران. ما ان نشر

ذلك في الصحافة الأمريكية الا وثارت ثـائرة واشنـطن فاستلمت بـرقية تضمنت احتجاجاً شديداً على تصريحي مذكرة إياي بمـوقف الحكومـة الرسمي ومستفسرة في الوقت نفسه ما إذا كان تصريـح البرفسـور مقتبساً حـرفياً عن كلماتي. أجبت على هذا الاستفسار بالقول ان مضمون التصريح صحيح ولكني صرحت به بعد أن قطعوا وعداً بعدم الاعلان عنه ونقله عن لساني.

هذا الحادث الجديد أدى بطبيعة الحـال الى مزيـد من تدهـور العلاقـات بيني وبين البيت الأبيض في واشنطن.

في تلك الآونة أيضاً اكتشفت أن تقاريري السرية بدأت تظهر عـلى صفحات «واشنطن بوست». ان طـريقة تسريب معلومـات حكوميـة سرية الى الصحـافة هي احدى الوسائل التي يلجأ إليها أصحـاب وجهات النـظر السياسيـة المختلفة والمتضاربة في أوساط بيروقراطية واشنطن. لهذا أخبرتُ واشنطن بأني سأستعمـل في المستقبـل أجهزة الاتصـال السرية التي تـربط السفـارة بعـدد معـين من كبـار المسؤولين بوزارة الخارجية لإبلاغ الوزارة بما يطرأ من أحـداث هامـة ومعلومات سرية طارئة. ومع ان هذه الطريق قد وضعت حداً لتسرب المعلومات الى خارج الوزارة إلا أنها أصبحت مشكلة متعبة. ان فرق الوقت ما بين طهران وواشنطن (وهـو تسع سـاعات) كـان يتطلب مني الانتقـال دائـماً بعـد منتصف الليـل من المسكن الى مبنى السفـارة (ولم تكن مسـافـة قصـيرة) في كـل مـرة يحتـاج الأمـر الاتصال بوزارة الخارجية في واشنـطن وكذلـك الأمر أيضـاً كلما أرادت واشنطن الاتصال بي حول موضوع هام ومستعجل.

ان اختلال أوضاع الأمن وتزايده وخـاصة خـلال شهر تشرين الثـاني وأوائل كـانون الأول وضعت عـلى عاتق السفـارة مسؤولية كبـيرة لحمايـة أرواح وأمـوال الجـالية الأمـريكية في ايـران التي بلغ عـددهـا في بـدايـة 1978 حـوالي 35 ألف شخص. بعـد فترة من بـدء الاضطرابـات وازديادهـا عنفاً واتسـاعـاً والتي أدت بطبيعة الحال إلى توقف الكثير من مختلف المشاريع والاعمال في القطاعين الخاص والعام فضّل الكثيرون ممن تأثرت أعمالهم على مغادرة البلاد مع عـائلاتهم. بعـد حريق طهران يوم 4 تشرين الثاني تحولت حركة سفر الأمـريكيين الـرتيبة الى مـا

يشبه النزوح الجماعي. الاحصائية التي أعدتها السفارة في أوائل كانون الأول 1978 أظهرت أن عدد الجالية هبط إلى حوالي 20 ألف شخص. خلال كانون الأول اندلعت الاضطرابات وأعمال العنف مرة أخرى، ونظراً لاقتراب حلول شهر محرم وهو شهر مواكب العزاء والمسيرات الجماهيرية الكبرى فإن القلق بدأ يساور نفوس عدد كبير من أبناء الجالية. ان شهر محرم له قدسية خاصة لدى المسلمين الشيعة لأنه شهر الحزن والحداد على استشهاد الحسين بن علي حفيد النبي محمد في معركة دارت بين قواته وجيش الخليفة الأموي في دمشق. مشاعر الحزن تبلغ أوجها يومي التاسع (تاسوعاء) والعاشر (عاشوراء) من ذلك الشهر وتسير مواكب العزاء الجماهيرية وغالباً ما يحدث اصطدام بينها وبين قوى الأمن وتقع اصابات عديدة من كلا الجانبين. في تلك السنة كان يوم عاشوراء سيصادف حلوله في اليوم الحادي عشر من كانون الأول. ولما كانت المدارس الامريكية في ايران قررت البدء بعطلة عيد الميلاد ورأس السنة في وقت مبكر قرر عدد كبير من العائلات تمضية تلك العطلة الطويلة خارج ايران وفضّل معظمهم السفر إلى أوروبا على الرجوع الى الولايات المتحدة. وبناءً على الحاح أسر الأمريكيين الذين يعملون في مراكز حكومية رسمية سمحت وزارة الخارجية الأمريكية على تسفيرهم أيضاً إلى أوروبا وهكذا بدأت حركة نزوح جديدة قيل أنها ستكون مؤقتة بانتظار عودة الهدوء خلال فترة الاجازة الطويلة ليعودوا بعدها إلى أماكنهم في ايران. ولما كنت شخصياً غير متفائل بتحسن الأوضاع بل كنت أتوقع أن تزداد سوءاً واضطراباً، شعرتُ أن من واجبي تنبيه الذين يقررون مغادرة ايران الآن بأن من المحتمل أنهم لن يتمكنوا من العودة إليها مرة أخرى. من المؤسف ان بعض الموظفين الرسميين أساء فهم قصدي ودوافعي لتقديم نصيحتي زاعمين بأني أحاول أن أؤثر عليهم لأثنيهم عن فكرة مغادرة ايران خوفاً من أن يسيء ذلك الى موقف الحكومة الايرانية. صرفت جهداً غير قليل لاقناعهم بحسن نيتي وان ليس لدي من دافع آخر غير مصلحة أولئك الذين يرغبون في السفر الآن بأمل العودة بعد فترة موضحاً لهم أن قناعتي بأن الأوضاع تسير الى الأسوأ وليس العكس هي التي دفعتني الى نصيحتهم باحتمال عدم إمكان العودة مرة أخرى. التوضيح الذي قدمته كان مفاجأة لم يكونوا يتوقعونها

نظراً لما يعرفونه عن موقف واشنطن الشديد التفاؤل حيال الوضع في ايران.

بعد مغادرة الأفواج الجديدة من الأمريكيين النازحين انخفض عدد الجالية المتبقية الى حوالي 12 ألف شخص. ومع أن الاهتمام بهذا العدد الباقي بات أسهل مما كان سابقاً إلا أن مشاكل رعاية شؤونهم في بلد تجتاحه أعاصير ثورة هوجاء لم تكن بأي حال من الأحوال سهلة وبسيطة.

وأخيراً حل اليومان الخطيران (التاسع والعاشر من محرم) اللذان تَخوَّف من قدومها الكثير من المراقبين وتوقعوا ـ وأنا واحد منهم ـ أن يكونا من أسوأ الأيام. ولكن يومي تاسوعاء وعاشوراء جاءا ومضيا لدهشة الجميع دون أن يقع ما يُخِلّ بالأمن والنظام نتيجة تفاهم بين حكومة أزهري والقيادات الدينية تعهدت الحكومة بموجبه بسحب قوات الجيش والشرطة من الشوارع مقابل تعهد القيادات الدينية بالمحافظة على الأمن والقانون والنظام.

الجماهير التي اشتركت في تلك المواكب والمسيرات كانت هائلة، أردشير زاهدي الذي كان يحلق بطائرة مروحية فوق العاصمة خلال ذينك اليومين قدر عددهم بحوالي 400 ألف شخص بينما كان تقدير مراسل هيئة الاذاعة البريطانية بحوالي مليوني نسمة. المراقبون الذين أوفدتهم سفارتنا الى الشوارع التي تسلكها المواكب كان تقديرهم مليون نسمة على الأقل في كل يوم من اليومين المذكورين. مرة أخرى أثار حسن تنظيم المواكب الضخمة ومحافظتها على النظام وما اتسمت به من انضباط وترتيب اعجاب المراقبين الأجانب. وهكذا تفادت حكومة أزهري وقوع مجابهة دموية خطيرة كان من المحتمل أن تقرر مصير نظام الشاه عن طريق تسوية الحل الوسط التي يمارسها الفرس ببراعة. وكل شخص كان يعيش في ايران آنذاك تنفس الصعداء مرتين في يومين متتاليين. ولكن المشاكل المهمة التي تواجه الحكومة بقيت على حالها. فالاضرابات مستمرة في حقول النفط والانتاج يكاد يكون متوقفاً كلياً. واضراب في الخطوط الجوية الايرانية ودوائر الطيران المدني ومعامل انتاج الطاقة تعمل بتعثر كبير وفي أدنى حدود الانتاج والقطاع الصناعي العام والخاص انخفض انتاجها الى الحد الأدنى. النقص في البنزين ومشتقاته وبقية المحروقات يزداد سوءاً يوماً بعد يوم

وصفوف طويلة من الناس تقف في محطات التعبئة عدة ساعات للحصول على حصة مقننة والكثير منهم يعودون دون الحصول على شيء.

بعد مرور أقل من أسبوع على يوم عاشوراء اضطربت الأوضاع مجدداً وخاصة في جامعة بيروت وما لبثت أن انتقلت الى عدة مدن أخرى غير طهران وأخذ القتلى والجرحى يتساقطون أثناء الاصطدامات اليومية التي تقع بين المتظاهرين وقوات الجيش. في الليالي بدأنا نسمع مرة أخرى نداء «الله أكبر» الصادر من حناجر عشرات الألوف من الناس المتجمعين فوق سطوح المنازل والبنايات والمآذن مصحوبة بأصوات الطلقات النارية وصرخات الاستغاثة وتستمر من وقت انتهاء صلاة العشاء وحتى منتصف الليل. الآمال المعقودة على احتمال نجاح حكومة أزهري في اعادة الأمن والنظام أخذت تنحسر يوماً بعد يوم.

مساء يوم 20 كانون الأول وبينما كنت مشغولاً بقراءة بعض الأوراق الرسمية في المنزل استلمت مكالمة هاتفية من رئيس الوزراء الجنرال أزهري وسأل إذا كان باستطاعتي المجيء لرؤيته في الوقت الذي يناسبني. أجبت بأني مستعد للقدوم حالاً إذا كان هناك أمراً طارئاً يستدعي ذلك. قال ليس هناك عجلة في الأمر وأن الأفضل أن نلتقي يوم غد. اتفقنا أن أزوره في مقره الرسمي بعد ظهر اليوم التالي. ومع أني لاحظت أنه يتكلم بصوت خافت ولكني لم أستطع التكهن بالسبب الذي يود رؤيتي من أجله.

في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي وصلت بسيارتي الى مقر رئاسة الوزارة فاقتادني المرافق العسكري الذي كان بانتظاري أمام مدخل البناية نحو السلالم المألوفة لدي ثم اتجهنا في الطابق الأول نحو غرفة الاستقبال الصغيرة الملحقة بمكتب رئيس الوزراء ولكن المرافق اجتاز تلك الغرفة حتى وقف أمام باب غرفة أخرى وفتح الباب وتنحى جانباً ليفسح لي مجال الدخول. هذه الغرفة التي وجدت نفسي فيها كانت أوسع من الغرفة الصغيرة التي اعتاد رئيس الوزراء استقبال زائريه فيها واتجه نظري فوراً نحو نور باهت في أحد أركان الغرفة. تقدمت بضع خطوات باتجاه ذلك النور وشاهدت لدهشتي الجنرال أزهري ممدداً

فوق سرير عسكري وفوقه بطانية عسكرية وأسطوانة لغاز الأوكسجين بجانب السرير. الكلمات الأولى التي نطقت بها وأنا ما أزال تحت تأثير المفاجأة سؤاله فيما إذا وافق أطباؤه على مجيئي رغم حالته الصحية. قال انهم وافقوا على ذلك وأنهم موجودون في الغرفة المجاورة. وتابع قائلاً ان لقاءنا أهم بكثير من نصائح الأطباء وانهم على كل حال لا يستطيعون أن يفعلوا الآن بشأن حالته الصحية أكثر مما فعلوه. جلب المرافق كرسياً وضعه بالقرب من الفراش لأجلس عليه بينما كان رئيس الوزراء يحاول اتخاذ وضع مريح لنفسه. بعد أن شعر بشيء من الراحة بدأ يتكلم بصوت يدل على الألم والاجهاد. قال انه أصيب بنوبة قلبية في الليلة الفائتة ولكنه لا يعتقد أن حالته خطيرة وأن الأطباء يعتقدون أنه سيكون باستطاعته مزاولة مسؤولياته بعد فترة قصيرة من الراحة. بعد ذلك استعرض مشاكل البلاد والعقبات التي تقف في طريقه وهو يحاول العثور على حلول مناسبة ومعقولة للمشاكل السياسية التي تمزق البلاد وفرض حكم القانون والنظام. ثم تطرق إلى الأحكام العسكرية المفروضة في البلاد رسمياً والتي لا يمكن تطبيقها عملياً بسبب الأوامر المتناقضة الصادرة عن الشاه حول كيفية تطبيقها. قال بعد لحظات من الصمت أن قوات الجيش المرابطة في الشوارع العامة منذ أربعة أشهر والأوامر المشددة بعدم اطلاق النار مهما أسيء إليهم ومهما اشتد الضغط عليهم كان لها أثر سيىء على أعصابهم ومعنوياتهم.

بعد أن سرد عليَّ رئيس الوزراء المصاب في قلبه همومه ومشاكله وأحزانه رفع رأسه عن المخدة وأسند جسمه على مرفقيه وقال بصوت متهدج... (كان من الضروري أن تطلع على هذه الأمور لتخبر حكومتك أن البلاد قد ضاعت بسبب عدم قدرة الملك على اتخاذ قرارات حاسمة!) بعد هذا ألقى بنفسه على الفراش وهو يبدو متعباً حزيناً يائساً فصافحته وانصرفت.

نظراً لأهمية اللقاء والمعلومات التي أفضى بها إلي رئيس الوزراء أرسلت خلاصة كل ما حصل في برقية مستعجلة الى واشنطن. اختتمت هذه البرقية الجديدة بالقول ان ما توقعته في برقية 9 تشرين الثاني جاء الوقت الآن ليصبح حقيقة واقعة فالحكومة العسكرية لم تتمكن من انجاز ما جاءت لانجازه وسقوط

الشاه بات أمراً لا يمكن تفاديه. وأخيراً قلتُ أني سأعمل بالاقتراح الذي عرضته في برقيتي بتاريخ 9 تشرين الثاني وأفتح باب الحوار مع الجهتين الرئيسيتين أي الجيش والمعارضة من أجل تحقيق تفاهم بينهما للحيلولة دون تفكك الجيش وانهياره.

لم أستلم أي رأي أو اقتراح أو توجيه من واشنطن حول برقيتي الأخيرة. كل ما حدث هو أني سمعت بعد مرور يومين تصريحاً رسمياً جديداً عن تأييد حكومة الولايات المتحدة للشاه وحكومته. عندما قابلت الشاه في اليوم التالي تطرقت لموضوع مرض الجنرال أزهري دون الاشارة طبعاً لما قاله عن ضياع البلاد. قال الشاه ان مرض الجنرال يستدعي الآن البحث عن رئيس حكومة جديد، غير أني شخصياً لم أكن أعتقد أن العثور على شخص يقبل أن يتحمل مسؤولية رئاسة حكومة جديدة في مثل الأوضاع الحالية أمر سهل المنال. استعرض الشاه أسماء عديدة للذين كان يعتقد انهم سيقبلون المنصب وذكر في آخر القائمة اسم «شهبور بختيار» الذي يعتبر أحد زعماء قبيلة «بختيار» المتنفذة والوزير في حكومة مصدق ورئيس تكتل صغير للديمقراطيين الاشتراكيين وهو تكتل ينتمي مع أحزاب أخرى للجبهة الوطنية. كانت علاقاتي مع بختيار بسيطة ونلتقي أحياناً في بعض المناسبات.

كان بختيار من الايرانيين القلائل الذين أتموا دراستهم الجامعية في فرنسا ويعتبر لدى الأوساط السياسية بأنه أحد العناصر المقربة من فرنسا. ومع أنه شخصية جذابة ورجل واضح في آرائه إلا أنه في اعتقادي لم يكن زعيماً سياسياً نافذ الكلمة. والغريب في الأمر أن الشاه الذي ألمح في حديثه بأن بختيار أحد المرشحين في ذهنه لرئاسة الوزارة فإن رأيه في بختيار لم يكن مختلفاً عن رأيي حول كفاءته وقدراته بل أن رأيه كان في الواقع أسوأ بكثير من رأيي. وقال وهو يعدد نقاط الضعف في بختيار أنه «أحد تلك الديدان التي تدب خارجة من لوح خشبي في أوقات الضيق» بعد هذا الوصف المهين لبختيار استغربت عندما أخبرني الشاه في مقابلتي التالية له أن بختيار قبل بتكليفه تشكيل حكومة جديدة وأنه ـ أي الشاه ـ عازم ومستعد لتنصيبه رئيساً للوزارة.

21

بعثة إيليوت

نظراً لعدم اعـتراض واشنطن أو ممـانعتها عـلى اقتراحي حـول ضرورة اجراء حوار مع الطرفين الرئيسيين، المعارضة والجيش، وهما الطرفـان اللذان يمكن أن يقع صدام دموي بينهما بعد سقوط الشاه فقد بـاشرتُ فعـلاً باجـراء الاتصالات التمهيـدية مـع بعض قادة الجيش وزعـماء المعارضـة بعـد أن أخـبرت واشنـطن مقـترحاً أن تبـدأ وزارة خارجيتنـا باجـراء مماثـل في باريس مـع جماعـة آيـة الله الخميني.

لما كنت متيقناً أن اتصالاتي لن تبقى خافية على أجهزة الاستخبارات الايرانية رأيتُ أن أحتاط للأمر وأبلغ الشاه مـا أنا عـازم أن أفعله بواسـطة شخص ثالث هو مسؤول ايراني كبير ويعتبر أكثر المقربين التصاقـاً به وحـائز عـلى ثقته التـامة. المسؤول الايراني الذي وقع اختياري عليـه ليحمل رسـالتي إلى الشاه هـو مديـر شركة النفط الوطنية الايرانية «هوننغ انصاري». قلت لأنصاري إن الغرض من الاتصالات التي أقوم بها هو استـطلاع أفكار وتـوجهات مختلف الأطـراف المعنية بالمشكلة القائمة ولذلك أرجو أن تنظر السلطات الايرانية اليه كتصرف اعتيـادي يهدف الى صيانة المصالح القومية الأمريكيـة. هذا الخـبر أجفل أنصـاري بشكل ظاهر وكأنه أمسك بيده قطعة بطاطس شديدة الحرارة ولكنه مع ذلـك وافق على نقل رسالتي الى الشاه.

في صباح اليوم التالي اتصل بي هاتفياً وقال بصوت منفعـل ان الشاه اذ يتفهم

غرضي إلا أنه يحذرني من التورط مثلما تـورط الانكليز سنـة 1906 عندمـا جعلوا من أنفسهم حمـاة لرجـال الدين واتخـذوا موقف المؤيـد والمـدافـع عن العصيـان المسلح من أجل دستور ذلك العام. قلت لأنصاري إنني تبلغت الرسالة وأنهيت الموضوع.

لم يتطرق الشاه مرة أخرى لهذا الموضوع في لقاءاتي التالية معـه كما لم يشعـرني بتاتاً بـأن الأمر يقلقـه أو يضايقـه. كل مـا هنالـك سألني في احـدى المرات مـع ابتسامة خفيفة على وجهه قائلاً... (ما الذي يتحدث بـه أصحابـك من رجال الدين في هذه الأيام؟).

المحـادثات الأوليـة مع قيـادات الجيش والمعارضـة أثبتت أن كلاً منهـما لديـه الرغبة في التفاهم مع الطرف الآخر تفـادياً للصراعـات في المستقبل. أقـر بعض قـادة الجيش بحدوث تخلخـل في صفوف الجنـود والضباط نتيجـة تـوزع الميـول والاتجاهات قد يؤدي الى انقسام حقيقي في أيـة مجابهـة بين الجيش والشعب أي بين الآباء والأبناء والإخوة والأقارب.

عمـلاً باقـتراحي لبدء الاتصـال بجماعـة آية الله الخميني في بـاريس أوعزت وزارة الخارجية لسفارتنا في باريس بانتداب أحد موظفيها الدبلوماسيين للاتصال بـابراهيم يـزدي. وقع اختيـار السفارة عـلى «وارن تسمـرمـان» رئيس الـدائـرة السياسية في السفارة للقيام بالمهمة المـطلوبة. كـان تسمرمـان دبلوماسي مسلكي يتمسـك بحرفيـة التعليمات وينفـذها بـدقة. ويبـدو أن تسمرمـان ويزدي كـانـا يتناولان الطعام بين مدة وأخرى في نفس المطعم الصغير الكـائن على مقـربة من الدارة التي يقيم فيها الخميني حيث التقيا مرتـين أو ثلاثـة قبل تكليف تسمـرمان بمهمة الاتصال به. ولما كانت التعليمات التي تلقـاها تسمـرمان محـددة وبما أنـه لم يكن على اطلاع واسع بأحداث ايران وأوضاعها الداخلية فـإن اتصالاتـه بيزدي لم تأت بجديد يضاف الى معلومـاتنا في طهـران. ويفهم مما سمعـه من يزدي أن جماعة الخميني تشعر بنفس القلق الذي لمسناه ممن تحدثنـا معهم في طهران حـول احتمال وقوع صدام بين الجيش والشعب ويتمنون لو كان ممكناً عمل شيء يجنب البلاد كارثة كبيرة. ولما كانت المعـارضة لا تملك السـلاح وليست لديهـا رغبة في

تملكه لذلك باتوا يشعرون بالحاجة الملحة للتوصل الى اتفاق وتفاهم مع الجيش قبل رجوع آية الله إلى ايران.

أما في ايران فإن مسألة رجوع الخميني أصبحت بنظر الكثيرين مسألة وقت فقط. فقد أعلن الشاه رسمياً عزمه على تقليد شهبور بختيار منصب رئاسة الوزارة ثم تعيين مجلس وصاية ومن ثم مغادرة البلاد في اجازة طويلة. كان تفسير المراقبين لإجراءات الشاه الأخيرة أنها عملية يقصد بها الظهور بمظهر من لا يزال ممسكاً بزمام السلطة والتقليل من أهمية وقوة خصومه السياسيين.

في تلك الأثناء قامت مظاهرة كبيرة بالقرب من مقر شركة النفط الوطنية ومبنى بلدية العاصمة شارك فيها عدة آلاف من عمال ومستخدمي الشركة مطالبين بزيادة الأجور وتحسين ظروف العمل. ولما كان مكان المظاهرة لا يبعد كثيراً عن سفارتنا اتصلت بنا الشرطة لإخبارنا بأنها مظاهرة سلمية وأنها ستتفرق بعد وقت قليل. بعد قليل تفرق المتظاهرون فعلاً ولكن مجموعة تتكون من عدة مئات اتجهت ناحية سفارتنا، فلما شاهد ضابط الأمن انهم متجهون إلى ناحيتنا أمر بإغلاق بوابة السفارة الرئيسية وأصدر أوامره لفصيل الحراسة الايرانيين بعدم السماح لأي شخص أو سيارة بالدخول الى السفارة أو الخروج منها. وتشاء الصدف أن تغلق البوابة قبل وصول إحدى السيارات الرسمية التي كانت في مهمة في الخارج بدقائق قليلة وحاول سائقها عبثاً إقناع الشرطة الإيرانيين الواقفين خلف القضبان الحديدية للبوابة للسماح له بادخال سيارته ودخل معهم في مشادة كلامية استغرقت من الوقت ما يكفي لوصول تلك المجموعة من الغوغاء إلى حيث كان واقفاً بجانب سيارته فأسرع أحدهم ورمى زجاجة حارقة على المقعد الخلفي للسيارة فاشتعلت فيها النيران وامتدت الى بقية أجزائها ثم انفجر خزان البنزين محدثاً دوياً هائلاً. ويبدو ان احتراق السيارة وانفجارها القوي شجع تلك المجموعة على الاستزادة من أعمال التخريب فهجم عدد منهم نحو البوابة الحديدية يحاولون فتحها عنوة والدخول الى السفارة فأصدر ضابط الأمن الأمريكي الأمر لجنود مشاة البحرية الذين كانوا خلال ذلك قد هيأوا أنفسهم لصد أي هجوم قد تتعرض له السفارة باطلاق عدة قنابل مسيلة

للدموع باتجاه المهاجمين أدت الى تفرق عدد كبير منهم ولكن عدداً من الذين لديهم القدرة على الاحتمال والصمود واصلوا محاولاتهم من أجل تحطيم البوابة أو اقتلاعها من الأرض كما بدا البعض الآخر يقذف الحجارة وكل شيء آخر يعثرون عليه في الشوارع ـ وما أكثر الحطام في الشوارع في تلك الأيام ـ من فوق السياج الى داخل السفارة. في تلك الأثناء وصل عدد من سيارات الجيش المحملة بالجنود الذين أخذوا يطلقون العيارات النارية في الهواء وبذلك انتهت تلك التجربة الأولى بعد أن لاذ الجميع بالفرار. بعد حوالي ساعة من عودة الهدوء فتحت بوابة السفارة مرة أخرى وسحب حطام السيارة المحترقة إلى الداخل.

مع اقتراب العام 1978 من أواخره أخذت الأوضاع في ايران تزداد سوءاً وتدهوراً يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد آخر. ومع أن الشاه كان اتخذ قراراً نهائياً بمغادرة البلاد إلا أنه كان مصراً على أن يسبق ذلك عدد من الاجراءات الدستورية وفقاً للتقاليد والأعراف الديمقراطية بدءاً بتعيين بختيار رئيساً للحكومة الجديدة ثم تقديم بختيار حكومته أمام «البرلمان» وطرح الثقة بها للتصويت وأخيراً تعيين مجلس وصاية على العرش تعهد اليه سلطات وصلاحيات رئيس الدولة بعد رحيله.

بما أن اليمين الذي يؤديه العسكريون الايرانيون عادة بالولاء والاخلاص والطاعة هو حسب الأولويات التالية: للشاه ثم للوطن ثم لله، لهذا فإن غياب الشاه عن مسرح حياتهم فجأة أدخل في صفوف هيئة الضباط وخاصة الشبان منهم نوعاً من الارتباك والحيرة والشعور بالضياع. والمعلومات التي كنا نستشفها من بعض المستشارين العسكريين الأمريكيين الملحقين بالوحدات الايرانية كانت تشير بجلاء الى حدوث تخلخل كبير في القوات المسلحة بصورة عامة.

المعلومات التي كانت تصلنا من واشنطن كانت هي الأخرى تدل على وجود ارتباك وقلق وتناقضات حول ما يجب عمله. وقرر الرئيس كارتر الاستعانة بخبرة جورج بول وكيل وزارة الخارجية الأسبق وتعيينه بصفة مستشار في الشؤون الايرانية بوزارة الخارجية. كان جورج بول يتمتع فعلاً بخبرة طويلة

وجيدة بشؤون ايران كموظف حكومي ومن ثم كمحام أيضاً. وكان قبل فترة قصيرة في زيارة لطهران بصفته عضواً في مؤسسة «اخوان ليمان» للاستشارات ودار بيننا حديث طويل ومتشعب تناولنا فيه مختلف القضايا الإيرانية وأعجبني فيه آراؤه الصائبة ومعلوماته الواسعة ولذلك سرني نبأ استقدامه لوزارة الخارجية آملاً أن يساعد وجوده على تغيير الأمور من حالة التناقضات الى حالة أفضل واقرار سياسة مدروسة وموحدة وواضحة.

عندما استدعي جورج بول مجدداً لوزارة الخارجية كانت أوضاع ايران قد تجاوزت نقطة التماسك بالنسبة للنظام القائم رغم ما كان يجريه الشاه من التجارب ويستعمل من الصيغ والوصفات من أجل البقاء في السلطة أو، على الأقل، ديمومة الحكم البهلوي. ومع أن جورج بول كان يشعر بنوع من العطف عليه إلا أنه كان واقعياً بما فيه الكفاية ليدرك أن انهيار النظام بات وشيكاً وأن المصلحة تقضي بالسعي من أجل قيام حكومة انتقالية في ايران تسمح للعناصر والفئات السياسية المعتدلة بالاستيلاء على السلطة قبل أن ينجح الثوار بالوصول إلى هدفهم.

في طهران كان باستطاعتي قراءة أفكار جورج بول وما يريد عمله من خلال البرقيات التي كانت ترد من واشنطن تستفسر عن بعض الشخصيات السياسية التي يمكن التعاون معها من أجل المرحلة الانتقالية. ومع أني كنتُ أقدم كل ما لدى سفارتنا من معلومات حول الموضوع غير أني كنتُ ألتزم جانب الحذر بابداء رأي شخصي حول صلاح أي من الأسماء للمهمة المطلوبة بعد أن وصلت الأمور في ايران الى مرحلة جد متأخرة. في النهاية لم تؤد كل تلك المساعي والمحاولات الى نتيجة مجدية بسبب رفض البيت الأبيض للتوصيات والاقتراحات التي قدمها جورج بول في تقرير مفصل لم تزودني واشنطن بنسخة منه وإنما اطلعت على محتوياته من جورج بول مباشرة أثناء حديث شخصي معه بعد احالتي على التقاعد.

النتائج التي خرجنا بها من المحادثات التي أجرتها السفارة مع المعارضة في طهران كانت كبيرة الفائدة. فمحادثاتنا مع قادة حركة التحرير أكدت لنا وجود

رغبة صادقة للمحافظة على القوات المسلحة سليمة وبعيدة عن كل ما قد يؤدي إلى تصدعها وانحلالها. ولكننا اكتشفنا أيضاً وجود حقد عميق وكراهية شديدة نحو بعض كبار الضباط. أما الحوار الذي أجريناه مع عدد من الضباط الذين يشغلون مراكز مهمة في القوات المسلحة فقد كشف لنا أن بعضهم لم يكن متعاطفاً مع أهداف حركة التحرير فحسب وإنما كانوا على اتصال ببعض قادة الحركة وهو ما فسر لنا مصدر المعلومات الواسعة الموجودة بحوزة حركة التحرير عن مواقف وميول واتجاهات وأعمال كبار القادة العسكريين. فقد اطلعنا على قائمة بأسماء ما لا يقل عن مئة ضابط من ذوي الرتب العالية الذين سوف يطلب منهم تقديم استقالاتهم ومغادرة البلاد بعد رحيل الشاه ولكنهم رغم مشاعر الكراهية الشديدة التي يضمرها قادة الحركة نحوهم فإنهم سوف يسمح لهم باخراج أموالهم معهم دون أن يتعرضوا لأي عمل انتقامي شريطة أن يغادروا البلاد بهدوء ومن دون مشاكل. ومع أن أحداً لم يذكر لنا من هم الذين سيحلون محلهم في مراكزهم غير أنه من المؤكد أن هناك قائمة أخرى بأسماء ورتب الذين رشحوا مسبقاً لإشغال المراكز الشاغرة.

ومع أن هذه المعلومات التي توصلنا إليها كانت مفيدة ومشجعة وجاءت مؤكدة للاقتراحات التي قدمتها لوزارة خارجيتنا حول أهمية بقاء القوات المسلحة سليمة وموحدة بالنسبة لمصلحتنا القومية غير أني لم أكن أعرف مدى توافقها مع آراء وخطط آية الله خميني وجماعته في باريس إذ كنت أخشى معارضته للحل الذي تبنته حركة التحرير في طهران فيوجه نحو الحركة حملة شعواء ويرسل جماهير الشعب الى الشارع في مظاهرات صاخبة لافشال الجهود المبذولة من أجل الحفاظ على وحدة الجيش. لذلك اقترحت على واشنطن ايفاد شخصية مهمة الى باريس لبحث الموضوع مع الخميني مباشرة ولكنني استبعدت نفسي من القيام بالمهمة لكوني سفيراً معتمداً لدى الشاه ولأنه من غير المناسب أن أتغيب عن طهران في مثل الظروف الحاضرة. ثم أتبعت برقيتي بمكالمة هاتفية مع وزير الخارجية «فانس» ونائبه «ديفيد نيوسم».

بعد عدة ساعات اتصلت بي وزارة الخارجية وأبلغتني بموافقة المسؤولين على

اقتراحي مع الطلب أن أقوم باعداد مقترحاتي حول الخطوط العريضة للمباحثات التي سيجريها الموفد إلى باريس.

الخطوط العريضة التي اقترحتها بشأن المباحثات المرتقبة في باريس لم تكن تختلف عن الأفكار والمبادىء التي كانت محور مباحثاتي التي أجريها في طهران مع التركيز على بعض القضايا المهمة والتأكيد بأن حرصنا على أمن ايران ووحدة ترابه هو السبب والدافع لنا للحرص والاهتمام لبقاء القوات المسلحة الايرانية سلاحاً قوياً وفعالاً للدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية واقترحت أيضاً التأكيد لآية الله الخميني عن استعداد حكومة الولايات المتحدة للاستمرار ومواصلة تقديم المساعدات العسكرية وتنفيذ برامج التسليح المعمول بها حالياً. والنقطة الأخيرة التي اقترحت بحثها هي أننا نعتقد أن أية مجابهة مسلحة قد تحدث بين الجيش والقوى الاسلامية لن يستفيد منها غير الاتحاد السوفييتي وعملاؤه في ايران.

بعد تعديل جملة هنا وتغيير كلمة هناك عن طريق جهاز التلكس بيننا وبين وزارة الخارجية باتت اقتراحاتي الواضحة والمحددة أشبه بالعقار المسكن ولكنه مع ذلك احتفظ بالأفكار العامة. ولكن شعوري بالاستياء من التعديلات التي أجريت على مقترحاتي ما لبث أن تراجع وحل محله الرضا والسرور عندما أبلغني الوزير فانس أن الرجل الذي اختير للمهمة هو «ثيودور ايليوت» المفتش العام في وزارة الخارجية وسفيرنا السابق في أفغانستان والذي عاد منها قبل فترة قصيرة بعد أن أمضى فيها أربع سنوات، وأمضى قبل ذلك عدة سنوات في ايران عندما كان يشغل منصب مستشار في الشؤون الاقتصادية. ايليوت دبلوماسي قديم يتكلم اللغة الفارسية بطلاقة ويتمتع بشخصية قوية وفكر متوقد. كان اختياراً موفقاً لمهمة صعبة وأفضل من يستطيع التعامل مع آية الله الخميني.

بناءً على تعليمات واشنطن طلبت مقابلة مع الشاه لأطلعه على ما نحن بصدد القيام به. أصغى الشاه لحديثي بهدوء دون أن يظهر عليه الاهتمام بالخبر الذي سمعه مني ولكنه لم يبد اعتراضاً على الفكرة وكل ما أراده هو إخباره بنتائج مهمة المبعوث الأمريكي في باريس. أبرقت رد فعل الشاه الى واشنطن وعلمت في

الوقت نفسه أن ايليوت سيسافر يوم 6 كانون الثاني 1979 الى باريس.

بعد الجمود والحيرة في موقف واشنطن من أحداث ايران طيلة أشهر عديدة ورغم بقاء برقيتي الأساسية يوم 9 تشرين الثاني 1978 دون جواب أو تعليق إلا أني وجدت في التطورات الأخيرة دلالة مشجعة على أن الأمور بدأت تتحرك في الاتجاه الصحيح. عزوت هذه التطورات الجديدة لرجوع وزير الخارجية فانس الى مكتبه في وزارة الخارجية بعد غياب عنه خلال الجزء الأكبر من تشرين الثاني وكانون الأول 1978 في كامب ديفيد بجوار الرئيس كارتر لإدارة مفاوضات الصلح بين مصر واسرائيل وبذلك ظل بعيداً عن أخبار ومشاكل ايران. لكن بعض زملائي من كبار المسؤولين في سفارتنا كان من رأيهم أن هذه النظرة الواقعية الجديدة لمشكلة ايران هي من نتائج مؤتمر القمة للدول الحليفة الذي عقد مؤخراً في «غواديلوب» وأن الرئيس كارتر بعد أن استمع لوجهات نظر الرئيس الفرنسي «جيسكار ديستان» ومستشار المانيا الغربية «هيلموت شمدت» ورئيس وزراء اليابان «أوهيرا» اقتنع معهم بحتمية سقوط حكم الشاه ورأى من الحكمة التكيف بما يفرضه الأمر الواقع والعمل في سبيل المحافظة على مصالحنا القومية في هذا الجزء الحيوي من العالم. وبما أن الرئيس كارتر ومستشاره للأمن القومي «بريجنسكي» أرادا تمضية عطلة قصيرة في منطقة البحر الكاريبي بعد الانتهاء من مؤتمر القمة فقد عهد الرئيس للوزير فانس بمعالجة المشكلة الايرانية.

مساء يوم 5 كانون الثاني 1979 أويت الى الفراش في وقت متأخر بعد أن أمضيت وزملائي ساعات طويلة ونحن نحاول التغلب على المشاكل الكثيرة والمعقدة التي نواجهها في عملية اجلاء الرعايا الأمريكيين. لم أكد أخلد للنوم حتى أيقظني جرس الهاتف لابلاغي أن برقية مستعجلة وصلت من واشنطن وأن الساعي في طريقه الى المسكن لايصالها إلي.

لم أشعر في حياتي بمثل الغضب الذي شعرت به بعد قراءة تلك البرقية القصيرة. جاء في البرقية ان الرئيس قرر الغاء بعثة ايليوت الى باريس وعليّ أن أخبر الشاه بأن حكومة الولايات المتحدة لا رغبة لديها للتحاور مع آية الله خميني.

في تلك اللحظات القليلة التي تلت اطلاعي على البرقية شعرت أن كيل صبري قد طفح فعلاً بما تراكم في قلبي وذهني خلال الشهور الماضية من مشاعر الاحباط والمرارة وخيبة الأمل فتناولت القلم والورقة ودونت ردي في برقية قصيرة ولكنها شديدة اللهجة اذ قلت أني أعتقد أن الرئيس قد ارتكب خطأ فادحاً بالغاء بعثة ايليوت وأخشى أن يكون ذلك من نوع الأخطاء التي لا يمكن اصلاحها وختمت برقيتي طالباً اعادة النظر في القرار والعمل بما تقرر سابقاً. سلمت البرقية للساعي لارسالها فوراً وعدت الى فراشي لأسترجع ما فاتني من راحة في تلك الليلة المؤرقة.

في صباح اليوم التالي وجدت رد واشنطن على برقيتي بانتظاري في مكتبي وكانت البرقية الجديدة مصقولة وجامعة جاء فيها أن قرار الغاء البعثة لم يتخذه الرئيس وحده وإنما بالتداول وموافقة كل من وزير الخارجية ووزير الدفاع ووزير المالية ومدير وكالة المخابرات المركزية ومستشار الرئيس للأمن القومي ثم تذكرني في النهاية بضرورة العمل بالتعليمات الواردة في البرقية السابقة. ولما لم يبق هناك ما يمكنني عمله غير تنفيذ التعليمات اتصلت بالقصر لمقابلة الشاه. بعد مرور عدة دقائق اتصل بي رئيس المرافقين وسأل إذا كان باستطاعتي الحضور حالاً فأجبت بالإيجاب. في السيارة التي أخذت تجتاز شوارع طهران في طريقنا الى قصر ينافران بدأت أفكر في المشكلة الايرانية وما يخبئه المستقبل في صفحاته من أحداث ومفاجآت ثم عاد الى ذهني سؤال ما برح يفرض نفسه بين حين وآخر خلال الأشهر الماضية وهو هل لدى الإدارة الأمريكية سياسة ايرانية واضحة وأهداف محددة؟ استعرضتُ في ذهني مواقف واشنطن الغامضة والمرتبكة من أحداث ايران منذ صولي عام 1977، فالآراء متضاربة والمواقف متناقضة والقرارات عرضة للتغيير أو النقض وليس هناك من دليل على وجود سياسة ثابتة واضحة المعالم محددة الأهداف. ثم تحول تفكيري فجأة ناحية الأزمة الايرانية المعقدة وموضوع المواطنين الأمريكيين الذين ما زالوا يعيشون في ايران. بالنسبة للأزمة لم يبق لدي أي أمل بامكان بقاء الشاه ونظامه أمام القوى المعارضة العاتية المصممة على تقويض حكمه. لذلك انصبّ اهتمامي منذ فترة على تحقيق نوع من التفاهم والوفاق بين الجيش والقوى الاسلامية لتجنيب البلاد مخاطر

حرب أهلية ماحقة ستؤدي بالنهاية الى تشرذم الجيش وتفتيته. والأمل الكبير الذي كان يراودني بنجاح هذه المحاولة هو الذي جعلني أتردد في تقديم النصح للجزء الباقي من الجالية الأمريكية لمغادرة البلاد نظراً لما كنتُ أتوقعه من تفاهم هذين الطرفين الرئيسيين والذي يؤدي الى قيام فترة انتقالية بعد رحيل الشاه وبالتالي عودة النظام والأمن ولو تدريجياً الى البلاد ومن ثم قد يصبح وجود الأمريكيين عاملاً مساعداً ومشجعاً على عودة الحياة الطبيعية. ولكن المحاولة قد باءت بالفشل بعد أن رفضت واشنطن فكرة اجراء حوار مع آية الله الخميني من خلال بعثة ايليوت وهكذا رأيت أننا بتنا الآن أمام حقيقة جديدة تستدعي العمل بسرعة لاجلاء العدد الباقي من الأمريكيين الذين يقدر عددهم بعشرة آلاف نسمة لإبعادهم عن طريق العنف الثوري. وهكذا كان تفكيري ونحن نقطع المسافة الطويلة ما بين السفارة وقصر نيافران موزعاً بين الاستعداد لما سأقول للشاه وكيف أفسر الانقلاب المفاجىء في قرار واشنطن من ناحية والمشاكل المعقدة لإجلاء الأمريكيين من الناحية الأخرى.

وجدت الشاه في ذلك الصباح شاحب الوجه يبدو عليه الإرهاق الشديد بعد ليلة استنتجت أنه أمضاها ساهراً وقد استعصى عليه النوم وهو يفكر في المرحلة القادمة التي ستقرر مصيره ومصير بلاده. ولكنه رغم اعيائه استقبلني ببشاشته المعروفة وجلسنا في غرفة مكتبه التي تطل على حدائق القصر الرائعة في جمالها وحسن تنظيمها. بعد أن تناولت الشاي الايراني اللذيذ النكهة من فناجين صغيرة حدثت الشاه عن الأنباء الأخيرة التي وصلت من واشنطن فذهل عند سماعه الخبر ثم سأل عن الأسباب التي دعت الى الغاء البعثة الى باريس ولكني لم أكن أملك الجواب لسؤاله. بعد مرور عدة لحظات قال وكأنه يخاطب نفسه «كيف يمكنكم التأثير على هؤلاء الناس والتفاهم معهم إذا كنتم ترفضون التحدث اليهم!» ثم أتبع ذلك سائلاً عما نعتزم عمله الآن! ولكني مرة أخرى لم أكن أملك جواباً لسؤاله.

في قصة حياته التي كتبها في المنفى عام 1981 يبدو للقارىء أن الشاه كان يتصور أن الولايات المتحدة لديها خطة ما لإنقاذ بلاده، ولربما أيضاً، الابقاء على

النظام الملكي في ايران ولذلك وبناءً على هذا الافتراض فانه كان مستعداً لتقديم تضحية شخصية في سبيل تحقيق هدف أكبر. ولكن الشاه اكتشف فجأة أننا لا نملك أية خطة أو مشروع أو فكرة وأن النزوات والأهواء هي التي تقود وتوجه سياستنا.

بعد انتهاء مقابلتي مع الشاه عدتُ الى السفارة وبعثتُ برقية الى واشنطن بكل ما دار من حديث بيني وبين الشاه ثم عقدتُ اجتماعاً مع الموظفين المسؤولين عن خطة اجلاء الأمريكيين وأمضينا معظم ذلك النهار وقسماً من الليل ونحن نناقش في كل صغيرة وكبيرة من الأمور المتعلقة بخطة الاجلاء وبأسرع وقت ممكن.

22

بعثة الجنرال هوزر

أبلغتني واشنطن أن وزير الطاقة «شليزنغر» سيقوم قريباً بزيارة طهران لبحث بعض الشؤون النفطية مع الجهات الحكومية المختصة. رغم معرفتي بأن الحكومة الايرانية ليست في الظروف الراهنة، في وضع يسمح لها ببحث قضايا النفط أو أي قضية أخرى غير أوضاع البلاد وهمومها ولكني سررت لرؤية صديق قديم كنت دائماً أحترم فيه الرأي السديد والحكم الصائب بالاضافة إلى أن الزيارة سوف تتيح له فرصة لرؤية الأوضاع على أرض الواقع فيعود إلى واشنطن حاملاً معه رأياً واقعياً حول ما نواجهه هنا. بعد مرور عدة أيام أبلغتني واشنطن بنبأ إلغاء الزيارة.

في مساء يوم 2 كانون الثاني اتصل بي هاتفياً الجنرال «الكسندر هيغ» وقال ان المعلومات التي وصلته من واشنطن، ولو أنها غير رسمية بعد، تؤكد أن نائبه الجنرال «هوزر» في القيادة العليا لقوات حلف شمالي الأطلسي سيكلف من قبل الادارة الأمريكية للقيام بمهمة في ايران لتهدئة حالة القلق والانقسام داخل صفوف القوات المسلحة الايرانية والعمل على بقائها موحدة ومتماسكة. وقال أيضاً ان تقارير سفارتنا عن حالة الارتباك والقلق في هذه القوات بسبب احتمال رحيل الشاه عن ايران هي التي دفعت واشنطن لاتخاذ قرار بإيفاد هوزر ليحمل كبار القادة على تحويل ولائهم من شخص الشاه الى رئيس الحكومة المرشح شهبور بختيار. قال هيغ انه يعارض الفكرة من أساسها ولا يعتقد أنه من

المناسب للجنرال هـوزر القيام بمثـل هذه المهمـة ولذلـك فإنـه سيعلم واشنطن بمعـارضته ويـأمل أن أفعـل نفس الشيء ثم أضاف قـائلاً انـه في حـالـة اصرار واشنطن على تنفيذ مشروعها فـإنه سـوف يثير مشكلة كبـيرة ويقدم استقـالته من منصبه. قلت لهيغ أني لا أعلم شيئاً عن الموضوع ولم أستلم أية معلومات بشأنـه وأضفت قائلاً أني رغم اعتقادي بأن المهمة التي سيكلف بها هـوزر لن يُكتب لها نجـاح كبير ولكنني أعلم في الـوقت نفسه أن كبـار الضباط الايـرانيين، أو عـلى الأقل قسماً كبيراً منهم يثق فيه ويحـترم رأيه. في النهـاية تمنيت عـلى هيغ أن يبقى على اتصال معي لاطلاعي على ما يجدّ من معلومات.

في الـواقع، رغم عـدم قناعتي بجـدوى ايفاد ضـابط كبـير من قيـادة الحلف الاطلسي الى ايـران في هذا الـوقت بالـذات، لكنني لم أكن ضـد الفكـرة بنفس الشدة الظاهرة على موقف هيغ ولذلك فضلت الانتـظار إلى أن أستلم معلومات رسمية عن طبيعة مهمة هوزر.

في اليوم التالي اتصل الجنرال هيـغ مرة أخـرى وقال ان بعثـة هوزر أصبحت رسميـة بعد أن تلقى من واشنـطن تعليمات بـالسفر الى ايـران ولـذلـك سيعلن استقالته من قيادة قوات الحلف الأطلسي خلال الساعات القليلة القادمة.

بعد ظهر ذلـك اليوم اتصـل بي وكيل وزارة الخـارجية «نيـوسم» ليخبرني عن قرار ايفاد هـوزر ثم أضاف بلهجـة ودية قـائلاً اني سـأكون مسؤولاً عن تنقيص حياة وزير الخارجية فانس إذا قررت أنـا الآخر الاحتجـاج على المـوضوع الـذي نشأ بسببه جو من التوتر في البيت الأبيض لا سيما بعد استقالة الجنرال هيـغ من مركز القائد الأعلى لقوات حلف الأطلسي. قلتُ لنيوسم مع أن مهمـة هوزر في ايران وما ينتظر منها أمور ما تزال غامضـة بالنسبـة لي إلا أني أكنّ احترامـاً كبيراً للجنرال هوزر ولن أسجل اعتراضاً على فكرة زيارتـه الى طهران غـير أني أقترح أن يأتي متخفياً وتحت اسم مستعار. وافق نيوسم على الاقتراح ووعد الأخذ به.

ووصل الجنرال هوزو في اليوم التـالي على متن طـائرة عسكـرية للنقـل تحمل بعض المواد والأدوات للبعثة العسكرية الاستشارية الامـريكية في ايـران يرتـدي حلة مدنية في غرفة القيادة.

اسر إليّ هوزر ان استقالة هيغ من منصبه ليست لها علاقة مباشرة بموضوع ايفاده الى ايران ولكنها أصبحت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، فهناك أسباب أخرى أكثر أهمية كانت تتراكم طوال أشهر عديدة بسبب ما اتسمت به سياسة إدارة كارتر الأطلسية من تناقض وتنافر لم يعد بإمكانه تحملها.

أطلعني هوزر على التعليمات التي استلمها عن مهمته في ايران كان من جملتها التأكيد للمسؤولين في القيادة العسكرية أن حكومة الولايات المتحدة ستواصل تقديم الدعم السوقي (اللوجستي) للجيش الإيراني بمختلف صنوفه وأسلحته أثناء الفترة الدقيقة والحرجة بعد رحيل الشاه واستلام بختيار زمام السلطة. والأمر الآخر المطلوب منه عمله تقوية المعنويات ورفع الهمم لدى الضباط والتغلب على مشاعر الاحباط والقلق ونقل يمين الولاء الذي أدوه للشاه الى السلطة المدنية الجديدة برئاسة بختيار وهي السلطة التي ستصبح القوات المسلحة تحت سلطتها وخاضعة لها. ورغم ما كان يساور هوزر من شكوك حول مهمته وحظه من النجاح إلا أنه كان عازماً بشجاعة على تنفيذها.

حلّ هوزر أثناء اقامته في طهران ضيفاً مكرماً في مسكننا واتفقت معه على برنامج لحياتنا اليومية. في أثناء النهار يظل هوزر متابعاً اتصالاته مع الجنرالات الايرانيين أو في مقر البعثة العسكرية الأمريكية حيث أكون أنا مشغولاً بادارة أعمالي الرسمية بالسفارة أو الاجتماعات التي كنتُ أعقدها خارج السفارة مع بعض الشخصيات الايرانية. مساءً نجتمع في مسكننا لتناول طعام العشاء وتبادل الأخبار والمعلومات. بعد ذلك ننتقل الى مكاتب السفارة للاتصال بواشنطن كل بوزارته لابلاغ المسؤولين ما لدينا من مستجدات من ناحية وتلقي ما لديهم من تعليمات وتوجيهات من ناحية أخرى. بعد الانتهاء من هذه العملية نقضي بعض الوقت ونحن نحاول التكهن بما تريد واشنطن أن تقوله لنا. في أحيان كثيرة كنا نشعر كما لو كنا تحدثنا مع مدينتين مختلفتين وليس مع واشنطن واحدة.

في غضون ذلك كانت التطورات السياسية في طهران تسير بسرعة. فلقد أكمل الشاه الاجراءات والشكليات الدستورية التي أصر على اتخاذها قبل رحيله

عن البلاد وتمهيداً له. تقلد شهبور بختيار منصب رئاسة الوزارة الجديدة بصورة دستورية بعد اجراء مناقشة خاطفة وسطحية في مجلسي «البرلمان»، النواب والشيوخ. وتم تعيين مجلس الوصاية على العرش وأقسم أعضاؤه اليمين الدستورية وبذلك بات الشاه مستعداً لمغادرة ايران.

في تلك الأثناء استلمت تعليمات من واشنطن تدعوني لمقابلة الشاه وإخباره بأن حكومة الولايات المتحدة تعتقد أن مصلحته الشخصية ومصلحة ايران أيضاً أصبحت تقضي أن يغادر البلاد. الرسالة لم تكن طبعاً من نوع الرسائل التي ينقلها عادة أي سفير آخر من رئيس دولته الى رئيس الدولة المعتمد لديها. مهمة دقيقة وموقف حساس تتجاذب فيها عوامل العاطفة الانسانية والشعور بمسؤولية الواجب. ولكن ما جعل مهمتي أقل احراجاً هو أن علاقتي بالشاه كانت خلال الشهور القليلة الماضية قد تطورت بصورة استثنائية إلى علاقة انسانية تتسم بالثقة والصراحة.

استمع الشاه لرسالتي الشفوية التي حاولت قدر استطاعتي أن تكون خالصة ورقيقة بمزيد من الهدوء والانتباه ثم استدار نحوي وقال بصوت ينم عن الحيرة... «نعم! ولكن إلى أين؟» لم يكن في رسالة واشنطن إجابة عن مثل هذا السؤال ولكني قلت... «ماذا عن قصركم في سويسرا؟» أزاح الشاه الفكرة بيده جانباً قائلاً ان متطلبات الأمن والحماية في سويسرا غير جيدة. ثم تابع الكلام بسرعة وكأنه كان يخشى أن أتقدم باقتراح آخر... «نملك بيتاً في انكلترا أيضاً ولكن جو انكلترا رديء جداً!» بعد هذا جلس صامتاً وهو يحدق في وجهي بنظرة مفعمة بالرجاء فسألته إذا كان يريدني أن آتي له بدعوة رسمية للذهاب الى الولايات المتحدة؟ مال الشاه بجسمه الى الأمام وقال... «آه... هل تفعل ذلك؟».

أبرقت هذا الحديث الى واشنطن واستفسرت عن امكانية توجيه دعوة للشاه فجاء الرد خلال أربع وعشرين ساعة بالموافقة والترحيب الحار بقدوم الشاه الى الولايات المتحدة مع تخويلي توجيه الدعوة باسم الرئيس كارتر. واقترحت الحكومة بنفس البرقية مزرعة السفير السابق «والتر انبرغ» القريبة من «بالم

سبرنغر» بولاية كاليفورنيا مكاناً مؤقتاً لاقامته وحيث يمكن توفير حماية ممتازة. يمكن انتقال الشاه وحاشيته المرافقة له من مطار هبوط طائرته الى المزرعة بواسطة طائرات مروحية عسكرية. في النهاية طلبت واشنطن تزويدها بخطة مسار الرحلة مع عدد الأشخاص المنتظر قدومهم معه.

أخبار رحيل الشاه المزمع لم تكن خافية عن الخميني وجماعته في باريس ولذلك بغية التعجيل برحيله وتشجيع بعض الدول على قبوله في أراضيها أصدروا عن مقر الخميني بياناً نشرته وسائل الاعلام العالمية جاء فيه ان قادة الثورة يرحبون بكل اجراء تتخذه أية دولة من أجل استقبال الشاه في أراضيها وتوفير الملجأ والأمن له كما أنهم لن يتخذوا أي إجراء ضد مصالح الدولة التي توافق على لجوئه إليها. وقد فهمت من هذا البيان أن مصالح الولايات المتحدة لن ينالها ضرر بسبب منح الشاه حق اللجوء السياسي في أراضيها بل على العكس من ذلك فإن الولايات المتحدة بتسهيلها رحيل الشاه عن ايران بهدوء ونظام قد جنبت البلاد خطر مجابهة دموية بين الجيش والقوى المعارضة وهو ما كانت تخشاه جميع الأطراف وبذلك تكون قد حققت نقطة لصالحها في حسابات آية الله الخميني.

في اليوم التالي طلبتُ مقابلة مع الشاه لأنقل اليه دعوة الرئيس كارتر واستفسرتُ إذا كان بالامكان أن أصطحب معي الجنرال هوزر فأخذت الموافقة حالاً.

في الكتاب الذي ألّفه الشاه عن سيرة حياته تطرق الى ذكر ذلك الاجتماع في صباح يوم 2 كانون الثاني 1979 وقال ان المسألة الوحيدة التي شعر أنها تشغل بالنا هي مسألة رحيله عن ايران. ولكن الحقيقة لم تكن كذلك. إذ أن الشاه الذي تلقى دعوة الرئيس كارتر ببالغ الارتياح كان هو الذي أبدى رغبته الشديدة لبحث تفاصيل رحلته الى الولايات المتحدة معنا بينما كنا نرغب أن نبحث معه الموضوع الذي يقلق بالنا بصورة رئيسية وأعني موضوع القوات المسلحة الايرانية والمشاكل التي ستواجهها بعد رحيله ووجهة نظره في مسألة انتقال سلطاته كقائد أعلى للقوات المسلحة الى رئيس الوزراء شاهبور بختيار.

في كل مرة كنا نفتح معه حديث الجيش وضرورة المحافظة على وحدتـه وتماسكـه كان يعلق بصورة مختصرة وعدم اهتمام ليعود من جديد لموضوع سفرته المرتقبـة. في النهاية وضعنا ثلاثتنا خطة مفصلة لرحلته بعد أن وافق على بعض التعديلات التي اقترحناها بشأن القواعد العسكرية التي ستهبط فيها طائرته قبل وصولـه الى المحطة الأخيرة وطلب الشاه أن يبحث هوزر الخـطة مع الجنـرال «ربيعي» قائـد القوة الجوية الايرانيـة الذي قـال إنه سيـزودنا بـالعدد النهـائي للمجموعـة التي سترافقه وكذلك الوقت المحدد للسفر.

في مساء ذلك اليـوم قمتُ بمحاولـة أخيرة لاقنـاع واشنطن لـوضع ثقلهـا من أجل تحقيق نوع من التفـاهم بين القـوات المسلحة الايـرانية والمعـارضة الـدينية لاعتقادي أنه يصون مصالحنا القومية ويمنحنا السبق على حزب تـودة الشيوعي. وقلت أيضاً ان الرئيس كارتر قـد يلتقي بالشـاه بعد وصـوله الى مكـان لجوئـه، ولكن الآثـار الناجمـة عن مثل هـذا الاجتـماع ستكـون كبـيرة الخـطورة بـالنسبـة لعلاقاتنا مع ايران وقد تصبح بمثابة الكارثة اذا أعطت انطباعاً لدى الـرأي العام بأننا ما نزال نؤيد الشاه ونتوقع مساعدته بطريقـة أو أخرى وارجـاعه الى السلطة في ايـران. وأشرتُ الى حـرصنا عـلى وحـدة ايـران الاقليميـة وان إبعـاد خـطر الشيـوعية عنـه يتطلب منـا الآن العمـل الجـاد والحثيث في سبيـل تحقيق تفـاهم واتفاق بين الطرفين اللذين يجمع بينهما بغضهما للشيوعية وهما الجيش والقيـادات الدينية. اختتمت برقيتي بالقول ان حكومة الولايات المتحدة والرئيس شخصياً لم يتوقفا طيلة السنـين الطويلة المـاضية عن الـتزامهما بكـل أمانـة وإخلاص بتـأييد الشاه ولكن الاستمرار في منحه تأييدنا الآن لن يفيـده شيئاً ولن يحقق لـه شيئاً لم يستطع أو لم يرغب في تحقيقه لنفسه ولهذا علينا الآن أن ندع الشاه وراءنا ونركـز اهتمامنا بالدرجة الأولى على مصالحنا القومية(*) في ايران.

كالعادة فضلت واشنطن السكوت ولم يصـدر ما يـدل على أن البيت الأبيض

(*) كيف لا. وقـد صار «ملك الملوك» في الـطريق الى الهاويـة. وقـد استنفـذت الادارة الامـريكيـة المتعاقبة خلال حكمها كـل ما يمكن أن تحصـل عليه. أمـا وقد صـار منتهياً. فـالى الجحيم، في سبيل المثـل القومية الامريكية. الناشر.

بات واعياً ومستوعباً طبيعة الوضع في ايران. ولكن التعليمات استمرت تنهال على الجنرال هوزر وكلها ترمي الى المحافظة على تماسك الجيش وقوته لتهيئته لمجابهة مع قوى الثورة.

قبل يومين من موعد سفر الشاه استلمتُ برقية من سفيرنا في القاهرة «هرمان ايلتس» تحمل دعوة للشاه من الرئيس المصري أنور السادات للمرور على مدينة أسوان وتمضية فترة من الراحة قبل مواصلة السفر الى أمريكا. لم يظهر الشاه تحمساً للفكرة وطلب إلي ارسال برقية الى سفيرنا للاعراب عن شكره العميق لدعوة الرئيس السادات ولكنه يحتاج قليلاً من الوقت للتفكير.

في اليوم التالي اتصل بي رئيس تشريفات القصر الملكي وأخبرني بقبول الشاه لدعوة الرئيس السادات على أن يبقى في أسوان مدة أربع وعشرين ساعة فقط ولذلك تمنى الشاه أن أبعث برقية الى واشنطن لتأخير جميع المواعيد المحددة في خطة الرحلة يوماً واحداً.

أرسلتُ هذه المعلومات الى القاهرة وعلمت من «ايلتس» أن الرئيس الامريكي السابق جيرالد فورد سيصادف وصوله مع عدد قليل من أصدقائه إلى أسوان في نفس موعد وصول الشاه.

في اليوم المحدد غادر الشاه وحاشيته طهران بهدوء بعد أن أجريت له المراسم المعتادة في صالة الشرف في مطار «مهراباد» وعرضتها المرئية على أبناء الشعب الذين ما كادوا يشاهدون ذلك حتى خرجوا عن بكرة أبيهم الى الشوارع والساحات العامة وهم يرقصون ويصفقون ابتهاجاً برحيله واستمرت مظاهر الفرح عدة ساعات طويلة.

وهكذا تسلم شاهبور بختيار مقاليد السلطة في ايران.

23

قبل دوي الانفجار

قمت بزيارتي الأولى لرئيس الوزراء الجديد «شاهبور بختيار» في اليوم التالي لتسلمه مقاليد السلطة رسمياً. في ذلك اللقاء وكل لقاء بعد ذلك كنتُ أحتاج لمن يذكرني ويؤكد لي أن بختيار مواطن ايراني وليس فرنسي. في الواقع، كان بختيار أكثر من قابلتهم في حياتي من غير الفرنسيين تفرنساً. لا يتحدث بغير اللغة الفرنسية ولا يرتدي غير الألبسة الفرنسية ولا يعجبه من أنواع الأطعمة غير الطعام الفرنسي. ايراني يقلد الفرنسيين في عاداتهم وسلوكهم وأذواقهم وكأنه أحد وجهاء الريف الفرنسي.

لم يكتم الشاه أثناء احدى اجتماعاتي معه قبل رحيله عن ايران أن غرضه الحقيقي من ترشيح بختيار لرئاسة الحكومة هو الاستفادة من وجوده كواجهة دستورية بكل ما سيرافق قيام حكومته من اجراءات نيابية وقانونية وكأنه يغادر البلاد في ظروف اعتيادية. ولكن بختيار الذي رأيته في ذلك اللقاء الأول كان يعتبر نفسه شيئاً آخر. فلقد تحدث بحماس كبير عن حكومته ومستقبلها وعن خططه لانتزاع الثورة من يد الخميني. كان كبير الثقة بنفسه وبقدرته على قيادة الأمة الايرانية وأكثر معرفة بميولها وأمانيها ورغباتها من رجال الدين الذين تلاعبوا بمشاعرهم وعواطفهم وأفسدوا عقول بعض الفئات منها بخطبهم ومواعظهم وحكاياتهم المضللة. وقال أيضاً انه قد يقوم بزيارة قصيرة لباريس لمقابلة الخميني والتفاهم معه وليعرض عليه مركزاً دينياً مرموقاً ومحترماً ولكن

بدون حق التدخل بالشؤون الحكومية لأنه وحده (أي بختيار) المسؤول عن ادارة شؤون الدولة!

أصغيتُ لحديث بختيار بـآمانيـه وآمالـه وأوهامـه وبعد رجـوعي إلى السفارة أرسلت الحديث بتفاصيله الى واشنطن وختمته برأيي الشخصي قائلاً إن بختيار يشبـه شخصية «دونكيشـوتية» اذ لا يـريد أن يتصـور أن تيـار الثـورة سيجـرفـه وحكومته حالما يعود الخميني وأتباعـه الى طهران. بعـد مرور يـومين عـلى ارسال البرقية علمت من أحد كبار المسؤولين بوزارة خارجيتنا ان ما جاء في بـرقيتي أثار استياءً في البيت الأبيض لأنه يتناقض مع موقف حكومة الولايات المتحدة المؤيـد رسمياً لحكومة بختيار! موقف غريب جعلني أتساءل الى متى يظل البيت الأبيض عائشاً في عالم الأحلام؟

جلستُ في مكتبي أفكر ملياً في موقفنا وأستعرض في ذهني تعليمات واشنـطن فانتبهت فجأت الى حقيقة أن جميع تلك التعليـمات لم يرد فيهـا ما يشـير صراحة الى معـارضة الادارة الأمـريكية عـلى مواصلة سفـارتنا للجهـود التي بدأتهـا منذ بعض الـوقت من أجل تحقيق نـوع من التفاهم بـين القوات المسلحـة وقيـادات الفئات الثورية ولهذا قررت المساهمة شخصياً في تلك الجهـود دون أن أكون قـد تصرفت بمـا يخالف تعليـمات حكومتي. ولمـا كان لـدي دعوة قـديمة طـال عليها الزمن من مهدي بزركان رئيس حركة التحرير طلبتُ من أحد الموظفين الاتصال به وابلاغـه بقبولي للدعـوة في المكان والـوقت اللذين يناسبـانه. جـاءت موافقـة بزركان حالاً واقترح أن نجتمع في مساء اليوم نفسه في منزل أحـد مساعـديه في المنـظمة. وصلتُ إلى ذلـك المنزل في المـوعد المحـدد بصحبـة أحـد مسـاعـدي الدبلوماسيين وقوة الحماية الإيرانية من الشرطـة التي اعتادت أن تـرافقني في جميع الزيارات التي أقوم بها. ولأن الـزيارة لهـذا المنزل الـواقع في الضـاحية الشـمالية كانت الأولى من نوعها فقد أثارت استغراب وفضول أفراد الشرطة.

كان بزركان في استقبالنـا في الفناء الـداخلي للمنـزل ومعه آيـة الله موسـوي الذي بدا بعمامته السـوداء واللحية التي خـالطهـا المشيب شديـد الشبه بـآية الله خميني. أخـذنا مقـاعدنـا نحن الأربعة في غـرفة استقبـال الضيوف وكـان المقعد

الذي جلست عليه مقابلاً لنافذة تشرف على مدخل البيت. كان حديثي مع بزركان باللغة الفرنسية التي يتقنها مع وقفة بين حين وآخر ليترجم حديثنا لآية الله موسوي باللغة الفارسية. كرر بزركان في حديثه نفس ما كان يقوله أعوانه في أحاديثهم مع دبلوماسيينا منذ بعض الوقت. فالحركة حريصة على وحدة القوات المسلحة وتماسكها لتنسجم مع الأوضاع المستجدة وتضع نفسها تحت سلطة حكومة الثورة. وقال ان لدى الحركة قائمة بأسماء عدد من كبار القادة العسكريين الذين أساءوا للشعب ولذلك سيطلب اليهم مغادرة البلاد مع السماح لهم بنقل كل ما يمتلكون الى الخارج شريطة أن يفعلوا ذلك بهدوء وتعقل. فيما يتعلق بالروابط القائمة بين ايران والولايات المتحدة ترى الحركة ضرورة استمرار التعاون العسكري بين البلدين وأية ترتيبات أمنية بينهما. أخيراً قال بزركان انه يتحدث باسم جبهة التحرير وان آية الله موسوي يمثل القيادات الروحية المعارضة. غير أن آية الله موسوي رغم أنه كان يتابع الحديث بكل يقظة وانتباه إلا أنه لم يصدر عنه طوال الوقت ما يدل على أنه يؤيد أقوال وآراء بزركان. مع ذلك كان الاجتماع بالنسبة لي بداية جيدة لما كنت أسعى اليه من تحقيق التفاهم والوفاق. عند اقتراب الاجتماع من نهايته رأيتُ من النافذة المقابلة لمكان جلوسي «أمير انتظام» الذي أعرف أنه من قادة المعارضة يدخل إلى المنزل ثم فتح الباب مرة أخرى بعد عدة دقائق ودخل شخص آخر لم أكن أعرفه فاستنتجت أن وزارة الظل برئاسة بزركان على وشك أن تعقد جلسة طارئة لمناقشة ما دار خلال اجتماعنا من مباحثات. وفتح باب المنزل مرة ثالثة ورأيت أحد رجال الشرطة يدخل بحذر وهدوء شديدين ويتقدم بضعة خطوات باتجاه النافذة ويقف محاولاً رؤية ما في داخل الغرفة التي كنا فيها. ارتاب آية الله موسوي الذي لم يكن يعلم بوجود قوة من الشرطة الايرانية في أمر الشرطي فأسرع الى النافذة وأطل برأسه وكتفيه وهو يتابع بنظراته حركات الشرطي الفضولي الذي ما كاد نظره يقع على موسوي الشديد الشبه بالخميني حتى تولاه الذعر وأسرع مهرولاً باتجاه الباب يريد الخروج. كان الحادث مسلياً ومنظر الشرطي المذعور غريباً أثار ضحكنا جميعاً.

بعثت تفاصيل حديثي مع بزركان بحضور آية الله موسوي الى واشنطن

وقلت إن الاجتماع والآراء التي تم تبادلها تشجعني على مواصلة محاولتي وأن خطوتي التالية ستكون الاجتماع برئيس أركان القوات المسلحة الجديد واقناعه لبدء حوار مع مهدي بزركان وأعضاء جبهته.

رئيس الأركان الجديد الجنرال «قره باغي» الذي خلف الجنرال «أوفيسي» كان يشغل قبل ذلك مركز قائد قوات الدرك اثر طلب اوفيسي احالته على التقاعد بعد رحيل الشاه ثم غادر ايران للاقامة في الخارج. علمت من بزركان خلال اجتماعي الأخير به أن علاقة صداقة قديمة تربطه بالجنرال قره باغي وأنه يعتزم مقابلته قريباً للتباحث معه حول الأوضاع الراهنة في البلاد.

مرة أخرى، ورغم أن تقريري الى واشنطن تضمن رأيي في الأوضاع وخطواتي المقبلة بكل صراحة ووضوح التزمت واشنطن سياسة الصمت فلا رأياً أبدت ولا تعليقاً أعطت ولا ملاحظة قدمت. هذا بينما كانت تعليمات وزارة الدفاع التي تصل تباعاً الى الجنرال هوزر تستهدف العكس تماماً لما كنت أسعى لتحقيقه. فالمساعي والجهود التي كنت أبذلها كانت تستهدف تحقيق تفاهم واتفاق بين قوى المعارضة والقوات المسلحة للمحافظة على وحدة الصف والهدف داخل القوات المسلحة وتجنيب البلاد مخاطر حرب أهلية وصراع دموي. أما التعليمات التي كان يتلقاها الجنرال هوزر فإنها كانت تريده اعداد القوات المسلحة وتهيئتها للانقضاض على قوى المعارضة وسحق أية ثورة شعبية قد تقوم ضد حكومة بختيار. وتشدد التعليمات أيضاً على وجوب حمل القوات المسلحة على السيطرة على حقول النفط وضمان مواصلة الانتاج في المنشآت النفطية من قبل أجهزة عسكرية فنية.

الاجتماعات المتوالية التي كان يعقدها الجنرال هوزر مع كبار ضباط القوات المسلحة يبدو أنها أعطته انطباعاً بأن الشعور العام بدأ يتحول تدريجياً لصالح بختيار الذي كان يكثر من زياراته لمختلف المقرات والوحدات العسكرية والوعود الكثيرة التي يقطعها هنا وهناك وخاصة الوعد الذي التزم به وأخذ يكرره أمام الجميع بمنحهم قدراً غير قليل من الاستقلال الذاتي في كل ما يتعلق بواجباتهم ومسؤولياتهم العسكرية. ويتوقع هوزر أيضاً أن يوافق معظم كبار

المسؤولين العسكريين على نقل يمين الولاء والاخلاص من شخص الشاه الغائب عن البلاد الى الحكومة المدنية التي يرأسها بختيار. ولكن الى جانب هذه الأخبار التي اعتبرها هوزر مشجعة اكتشف أشياء أخرى أثارت استغرابه واستياءه، فقد اكتشف مثلاً أن القيادة العليا للقوات المسلحة لم تهتم بتاتاً بتخزين كميات احتياطية من المحروقات والزيوت التي تحتاجها القوات المدرعة. كعلاج سريع لهذا الإهمال الخطير أصدرت البحرية الأمريكية أوامرها لاحدى ناقلات النفط المستأجرة من قبلها لنقل حمولتها الكاملة من مختلف أنواع المحروقات من مستودعات البحرين الى ميناء بندر عباس ووضعها تحت تصرف القوات المسلحة الايرانية ولكن عندما وصلت الناقلة للمياه الاقليمية الايرانية أوقفت من قبل البحرية الايرانية ومنعت من الوصول الى بندر عباس وتفريغ حمولتها. ومع أن هذا التصرف أثار غضب الجنرال هوزر غير أن اعتقاده بتوفر الارادة والقدرة أيضاً لدى القوات المسلحة الايرانية لتأدية المهمة المطلوبة منها عند اللزوم لم يتزعزع. هذا بينما كنت شخصياً أزداد اقتناعاً بعدم قدرة الجيش على الصمود أمام ثورة شعبية واسعة وعارمة حيث يواجه الجنود ببنادقهم ورشاشاتهم أولادهم واخوانهم وأقرباءهم.

في إحدى الامسيات ونحن نتجاذب أطراف الحديث قلت للجنرال هوزر بأني لا أعتقد بأن القوات المسلحة يمكن الاعتماد عليها لإخماد ثورة شعبية. ومع أن الجنرال تحاشى الدخول في جدل حول رأيي هذا إلا أني كنتُ أشعر بعدم اتفاقه معي في الرأي. ولكن من الانصاف أن أقول هنا أنه كان يبلغ وزارته في واشنطن برأيي الخاص في التقارير التي يبعثها من طهران وأني أتوقع انهيار الجيش وانحلاله إذا ما طلب منه ضرب الثورة.

في الحقيقة، هذا الرأي الذي كنت أحمله وأصرح به لم يكن من قبيل استقراء الغيب أو التنبؤ بالمستقبل وانما كان نتيجة لقناعة شخصية اثر تجربة مرت علي عام 1968 أثناء الاضطرابات الطلابية العنيفة في باريس حيث أقمت فترة من الوقت في مهمة رسمية لدى وزارة الخارجية الفرنسية بشأن بعض القضايا السياسية المتعلقة ببلدان جنوب شرقي آسيا. كنت أقيم في فندق «كريلون» الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر السين والقريب من مقر وزارة الخارجية

الفـرنسيـة وحيث كـانت السلطات قـد وضعت حـوالي خمسـين ألف شرطي مدججين بالسلاح على أهبة الاستعداد بانتـظار صدور الأوامـر للانقضـاض على الـطلاب المتمردين في الضفـة المقابلة الـذين أقامـوا المتـاريس في الحي الـلاتيني والـطرق المؤدية الى السـوربون. عـدد كبير من المـوظفين في الخـارجية الفـرنسية الـذين كنت أتفاوض معهم كـان أبنـاؤهم واخـوانهم وأقـربـاؤهم من الـطلاب المتمردين الذين يقفـون وراء متاريسهم في الجهـة المقابلة وأتـذكر جيـداً كم كان الخوف على حياة أولئك الـطلاب مسيطراً عـلى قلوبهم وأذهانهم إذا مـا صدرت الأوامر للشرطة لشن الهجوم عليهم. كانت النتيجة أن أوامر الهجـوم المرتقب لم تصـدر بتاتـاً بسبب ضجة الاعـتراضات والاحتجـاجات المنهـالة من كـل حدب وصوب على الحكومة. الأوضاع التي كنا نعيشها في طهران في تلك الأيام لم تكن تختلف كثيراً عن الوضع الذي شـاهدتـه بنفسي في باريس إلا في نـاحية واحـدة هي أن المجابهة في باريس كانت ستقوم بين الشرطة والطلاب والمتعاطفين معهم بينما ستكون المواجهة في طهران بين الجيش والطلاب والمتعاطفين معهم. لذلـك أخالف رأي الذين وضعوا آمالهم في امكانية القضاء على الثـوار من قبل الجيش الـذي يريـدون من أفراده تـوجيه أسلحتهم النـارية الفتـاكة الى صـدور أبنائهم واخوانهم وأقربائهم المتمردين على النظام وكنت أتوقع انهيار الجيش بدل القضاء على الثورة. هذا الرأي كـان الجنرال هـوزر يبلغه لـواشنطن في كـل مناسبـة كما كنت أفعل نفس الشيء في تقاريري ومكالماتي الهاتفية مع المسؤولين في واشنطن. ولكن في مقـابل هـذا كان بـريجنسكي في البيت الأبيض من ناحيـة وبختيـار في طهران من الناحية الأخرى يعمـلان حثيثاً ودون كلل لخلق الـظروف والوسـائل لقيام مجابهة دموية بين قوى المعارضة والجيش بأمـل القضاء عـلى الثورة وهي مـا تزال في المهد.

في تلك الأثناء بت مواظباً على زيارة رئيس الوزراء بختيار في فترات متقـاربة فيحـدثني عن خططه الـرامية للقضـاء على الفئـات الثوريـة وتخليص البـلاد من شرورهم وعن ثقته التامـة بالسيـطرة على الأمـور بيد حـديديـة بواسـطة القوات المسلحـة التي يؤكد ولاءهـا لحكومتـه. ولم تكن ثقـة بـريجنسكي بـولاء القـوات المسلحة وقدرتها على سحق الثـورة أقل من ثقـة بختيار فلقـد دأب ومعه الـذين

يحملون آراءه ويرددون كلامه في اتصالاتهم ومراسلاتهم مع الجنرال هوزر على تذكير طهران بوجود 400 ألف ضابط وجندي، وهو العدد التقريبي الذي كانت تتكون منه القوات المسلحة الايرانية في ذلك الوقت، ولن يكون صعباً على هذه القوة أن تقصم ظهر الثورة والثوار الذين لا يملكون سلاحاً لمواجهة القوة العسكرية والسيطرة على البلاد بسرعة.

يبدو أن الشاه الذي كان في مصر منذ عدة أيام قد استعاد الأمل متأثراً بحجج بريجنسكي ووعوده وتشجيع ازدشير زاهدي وأخذ يسير معهم في نفس هذا الخط من التفكير فقرر تأجيل رحلته الى الولايات المتحدة وتحديد اقامته في مصر ضيفاً على حكومتها لمدة غير محددة بعد أن تمكنوا من اقناعه بأن المجابهة بين القوات المسلحة وأعدائه باتت وشيكة الوقوع وأنها ستنتهي حتماً بانتصار الجيش وبالتالي يعود الى عرشه في طهران تماماً كما حدث عام 1953.

مع أني لم أكن أشارك هؤلاء المتفائلين أفكارهم البعيدة كل البعد عن حقائق الأمور بعثت رسالة الى واشنطن أقول فيها ان الافكار المتداولة حالياً باتت أقرب الى الأماني منها الى الواقع الذي تعيشه ايران ولهذا أرى أن من واجبنا بدلاً من الجري وراء الأوهام أن نهيىء أنفسنا لمواجهة الواقع والحقيقة والتصرف على أساس نجاح الثورة ومحاولة التعايش معها بأسلوب ملائم لتأمين المحافظة على المصالح القومية الأمريكية.

ردت واشنطن على رسالتي بأسلوب فظ ولهجة بغيضة وأسلوب كاد يصل درجة التشكيك في اخلاصي. بين جميع العوامل والظروف المثبطة للهمم والمخيبة للآمال التي واجهتني خلال الأشهر القليلة الماضية كانت رسالة واشنطن الأخيرة أسوأ مما يمكن أن يتحمله صبري الطويل. فرغم اختلافي في الرأي مع واشنطن حول أحداث ايران ووسائل معالجتها فإني في كل الأحوال موظف دبلوماسي رفيع الدرجة أقوم بمسؤولياتي الرسمية في ايران ومن حقي أن تعامل آرائي ووجهات نظري حول قضايا سياسية هي من صلب واجباتي الرسمية بما يجب أن تعامل به من اهتمام واحترام من قبل صانعي القرار السياسي في واشنطن. وعندما علمت من وزارة الخارجية أن ذلك الرد المهين صدر من

البيت الأبيض وليس من وزارة الخارجية أيقنت حينئذٍ أنه لم يعد بامكاني تأدية خدمة نافعة في طهران بالنيابة عن رئيس الولايات المتحدة الذي أمثله هنا، وعليه قررت الاستقالة من منصبي والابتعاد عن هذه الأجواء الخانقة في البيت الأبيض. لكن بعد أن تغلبت على مشاعر الغضب وناقشت الموضوع مع زوجتي بأعصاب هادئة رأيت أن رحيلي المفاجىء في هذه الأوقات العصيبة يعتبر عملاً أنانياً لا يقره الضمير والشعور بالمسؤولية تجاه ثمانية آلاف مواطن أمريكي كانوا ما يزالون في ايران. فالسياسة التي تتبعها حكومة الولايات المتحدة سوف تؤدي حتماً إلى وقوع مواجهة دموية بين الجيش والقوى الثورية وسيؤدي بالنتيجة الى حالة من الفوضى والاضطرابات وفقدان سيطرة القانون الأمر الذي سيعرض المواطنين الأمريكيين لأخطار جمة في الأرواح والممتلكات. وهكذا أقنعتُ نفسي بضرورة العدول عن فكرة الاستقالة والبقاء صامداً في موقعي ومسؤولياتي حتى تمر الأزمة. ولكني في نفس الوقت استطعت أن أقنع زوجتي بضرورة مغادرتها ايران والعودة الى الولايات المتحدة.

منذ هذه الحادثة باتت علاقاتي مع الادارة الامريكية تتسم بالبرودة والجفاء. فمراسلاتي مع واشنطن خلال الفترة التالية أصبحت تفتقر للمجاملات الدبلوماسية والأسلوب الذي يحرر بها السفراء رسائلهم إلى رؤسائهم. فبعد أن تبين لي أني لم أعد أحظى بثقة رئيس الجمهورية ومعاونيه المقربين منه، وبعد أن فقدت شخصياً احترامي لهم أصبح من غير المناسب والضروري استعمال لغة المجاملات معهم فباتت مراسلاتي تتسم بالجفاء والتحدي ولدرجة الاثارة أحياناً.

رغبة في معالجة ما تراه واشنطن في أفكاري من سموم وتمرد أسرعتْ بالاتصال المباشر برئيس الوزراء بختيار مؤكدة له دعم وتأييد حكومة الولايات المتحدة لحكومته وله شخصياً مع إبلاغه أن جميع التعليمات الصادرة الى السفير الأمريكي في طهران صريحة وقاطعة لتقديم مثل هذا الدعم والتأييد في جميع الظروف والأحوال.

بصفتي سفيراً وممثلاً لرئيس الجمهورية الذي تخوله سلطاته الدستورية حق

وضـع وتوجيـه السياسـة الخارجيـة كنت ملزماً بـطبيعة الحـال بتنفيـذ السيـاسـة الموضوعة من قبل رئيس الجمهـورية وعـلى ذلك أكـدتُ لرئيس الـوزراء بختيار بأنني سألتزم بتعليمات واشنطن والعمل بموجبها.

في كتابه عن أحداث ايران خلال تلك الفترة أشار بختيار إلى أن تعاملي معـه كان يتسم بالبرودة والفتور، ولكن كان من الانصاف أن يقول أيضاً بأني لم أتردد بتاتاً في تأييده ودعمه التزاماً بموقف رئيس الولايات المتحـدة. هذا المـوقف الشاذ بين قناعاتي الشخصية وتعليمات واشنطن الرسمية اجتاز امتحانـاً صعباً يـوم قرر رئيس الأركان والقائد العام للقـوات المسلحة الجنـرال قره بـاغي الاستقالـة من مركزه بعد أن أدرك حقيقة سياسة بختيار والدعم المـطلق من حكومـة الولايـات المتحـدة ترميـان الى تحقيق هدف واحـد هو اصـطدام دموي بـين الجيش وقوى الثورة الشعبية فجمع كبار القادة العسكريين في مقر قيادته وشرح أمامهم الموقف العام في البلاد ثم أعلن عن قرار استقالتـه من منصبه. لم يكـد الخبر يصـل الى الجنـرال هوزر حتى أسرع لـلاجتماع بـه وبذل جهـداً كبيراً وهـو يحاول اقنـاعـه بالعدول عن فكرة الاستقالة دون أن يوفق في ذلك فرجع مساءً إلى مسكننـا وهو في حالة شديدة من الحيرة والارتباك نـظراً لما قـد تؤدي اليه هـذه الاستقالـة من انهيار في المعنويات وتشجيع ضباط آخرين على الاستقالة أيضاً.

بعد استماعي لهذه الأخبار من الجنـرال هوزر بحـوالي عشرة دقائق اتصـل بي رئيس الوزراء هاتفياً راجياً لقاءه على جناح السرعة. بعد وصولي الى مقر رئاسـة الوزارة في الموعد الذي كنا اتفقنا عليه قادني المرافق الى مكتبه وبعد أن اتخذ كل منا مكانه أشار بختيـار باصبعـه نحو المقعـد الخالي بيني وبينـه وقال مبتسـماً. . . «سنكون ثلاثة».

تحدثنا في أمور شتى مدة تقرب من عشرين دقيقة ثم طرق أحدهم على الباب ولما أذن رئيس الوزراء للطارق بالدخول دخل الجنرال قره باغي ولم تكن دهشته بـرؤيتي بأقـل من دهشتي شخصياً إذ لم يخـبرني بختيـار بهـويـة الشخص الـذي سيشغل المقعد الخالي بيننا والذي جلس فيه الآن.

افتتح بختيار الحديث باللغة الفرنسية موجهاً كلامه الى الجنرال وكـان حديثـه

هادئاً ورقيقاً يتسم بالاحترام والتقدير. حاول قره باغي تحويل لغة التخاطب الى الفارسية أكثر من مرة ولكن اصرار بختيار على التحدث بالفرنسية وبالفرنسية فقط اضطره في آخر الأمر النزول عند رغبة رئيس الوزراء وادارة المناقشة بالفرنسية التي كان يجيدها اجادة تامة. بذل رئيس الوزراء كل ما لديه من بلاغة وقوة الحجة وطرق الاقناع ليسحب الجنرال استقالته وكان هو يوجه كلامه لقره باغي يلتفت نحوي بين الفينة والأخرى وكأنه يستحثني على مساعدته وتأييد أقواله. ومع أني كنت شخصياً أؤيد موقف الجنرال قره باغي وأقر دوافع قراره بالاستقالة غير أني كنتُ ملزماً بتنفيذ تعليمات واشنطن القاضية بدعم وتأييد رئيس الحكومة بختيار وهكذا دخلت طرفاً في المناقشة الى جانب رئيس الوزراء وبذلتُ بدوري ما لديّ من قوة الحجة والاقناع لحمل القائد العام للقوات المسلحة على اعادة النظر في أمر الاستقالة والرجوع عنها. استمرت المناقشة حوالي ثلاثة أرباع الساعة وتكللت جهودنا بالنجاح فرضخ الجنرال أخيراً للضغط المعنوي الذي مارسناه عليه فسحب استقالته وغادر الغرفة. بعد أن أصبحنا وحدنا أعرب بختيار عن شكره للمساعدة التي قدمتها والتأييد الذي أبديته ثم عاود حديثه عن توقعاته لما سيحصل بعد عودة آية الله الخميني الى طهران والمجابهة المتوقعة بين الجيش وقوى المعارضة وهو يؤكد أنها ستكون قصيرة وحاسمة لصالح الجيش والحكومة. في تلك اللحظة دق جرس الهاتف وتكلم بختيار مع محدثه بالفارسية وعلامات السرور بادية على وجهه. بعد انتهاء المكالمة عاد لمكانه وقال مبتسماً ان المتحدث كان مهدي بزركان وأنهما اتفقا على الاجتماع في اليوم التالي في منزل رئيس مجلس النواب السابق ويقع قريباً من سفارتنا. وأخبرني أن اجتماعاً جماهيرياً كبيراً سيعقد بعد ظهر اليوم التالي في الملعب الرياضي وأنه سيفتتح الاجتماع بخطاب سياسي مهم سيكون أول خطاب يلقيه بعد تسلمه زمام السلطة في البلاد. بطبيعة الحال، ليس من الصعب أن يستنتج الانسان الغرض من الاجتماع الجماهيري إذ أنها مظاهرة يريد بختيار من خلالها الايحاء للناس بشعبيته وافهام قوى الثورة في الوقت نفسه أن حكومته قوية تحظى بتأييد قطاعات كبيرة من الشعب ولن تقدر على الاطاحة بها.

في غضون ذلك علمت أن عدة لقاءات تمت بين بعض كبار الضباط

وشخصيات مهمة في المعارضة وأن اجتماعاً طويلاً عقد بين أشخاص يمثلون مهدي بزركان ورئيس جهاز مخابرات «السافاك» الجنرال «مقدم» وكذلك اجتماعاً آخر بين القائد العام للقوات المسلحة الجنرال «قره باغي» ورئيس السافاك مقدم. والظاهر أن رئيس الوزراء كان على علم واطلاع بكل تلك الاجتماعات كلياً أو جزئياً ولكني لم أستطع معرفة رأيه فيها أو علاقتها بالمواجهة الكبرى التي كان يهيىء ظروفها ووسائلها. ولكن الأمر الذي كنت متأكداً منه هو أن بختيار يقوم بلعبة مزدوجة في سياسته التي ترمي ظاهرياً الى السلام والوئام بينما يخطط في الخفاء لمذبحة كبيرة في البلاد. وقصة سفره العتيد الى باريس والتفاهم مع آية الله الخميني كانت واحدة من وسائل تضليل الرأي العام عن هدفه الحقيقي. غير أن الشرط الذي وضعه الخميني للموافقة على استقباله والذي يتطلب استقالته من رئاسة الحكومة الايرانية قبل مجيئه الى باريس أفسد خطة بختيار ولم يعد يتطرق مرة أخرى لقضية السفر.

تكهرب الجو السياسي والغموض الذي يكتنف المستقبل في ايران خلال الأيام القليلة التي سبقت عودة آية الله الخميني الى طهران زادت في مخاوفي مما قد تأتي به الايام والأسابيع المقبلة فبدأت أعمل كالمحموم لتسريع رحيل المواطنين الأمريكيين وتخفيض عدد موظفي السفارة فبدأت حركة هجرة واسعة بواسطة طائرات النقل العسكرية التي كان عليها العمل ذهاباً واياباً بين طهران وأثينا. ونظراً لاضراب موظفي المراقبة الايرانيين في مطار مهراباد قدمت القوة الجوية الايرانية عدداً كافياً من الفنيين العسكريين لإبقاء حركة طائراتنا مستمرة.

الأوضاع السيئة والأجواء المربكة التي كانت تعيشها ايران خلال تلك الفترة كان لها أثر سيىء على الجنرال هوزر فبدت عليه آثار الملل والضجر من المهمة التي ألقيت على عاتقه فطلب أن يؤذن له بمغادرة ايران والعودة الى مقر وظيفته الرسمية بعد أن بذل كل ما لديه من جهد وطاقة لتأدية مهمته على أحسن وجه في ظروف شاذة وأجواء صعبة. مع تفهمي لموقف الجنرال هوزر وتعاطفي معه إلا أنني لم أرغب في تقديم تأييدي لطلبه خشية أن يكون تأييدي في غير صالحه بالنسبة لواشنطن ومن ثم تمدد اقامته في ايران.

القضية الأخرى التي كانت تحظى بجانب كبير من اهتمامي وتفكيري خلال تلك الأيام الحاسمة في تاريخ ايران الحديث هي مسألة المبيعات العسكرية الأمريكية لايران. فلقد كانت هناك بيننا وبين ايران عدة عقود تبلغ قيمتها ما يزيد على ستة مليارات دولار. ومع أن العقود أبرمت على المستوى الحكومي بين الدولتين غير أنه لها علاقة مباشرة بالشركات الأمريكية الخاصة المنتجة للأسلحة والمعدات والتي تعمل عادة بصفة مقاولين للحكومة الأمريكية. فإذا قررت حكومة الثورة الغاء العقود (وهو ما كنت أتوقعه) فإن حكومة الولايات المتحدة سوف تكون ملزمة قانونياً بتسديد جميع الأموال المستحقة للشركات المنتجة الخاصة والتي قد تبلغ عدة مليارات دولار. لهذا اقترحت على واشنطن ارسال لجنة من رجال المال والقانون والتفاوض مع حكومة بختيار من أجل عقد اتفاقية تحدد التزامات الحكومة الأمريكية وتحررها من أية مسؤولية قانونية في المستقبل. رفضت واشنطن الأخذ بالاقتراح بدعوى أن خطوة مثل هذه قد تفسر بعدم ثقة حكومة الولايات المتحدة في حكومة بختيار، كما أنها قد تسيء للعلاقات الودية القائمة بين القوات المسلحة الايرانية والولايات المتحدة. ولكن رغم ذلك استطعت بالاستفادة من علاقاتي الشخصية بعدد من كبار المسؤولين في وزارة الدفاع «البنتاغون» الاتفاق معهم على ايفاد «اريك فون ماربور» أحد أذكى رجال البيروقراطية الأمريكية الذي استمر محتفظاً بمركزه الحكومي المرموق خلال عدة عهود وحكومات مرت عليه في واشنطن.

وصل أريك إلى طهران بعد وقت قصير وأمضى الأيام الأولى في اجراء مباحثات تمهيدية مع عدة جهات ايرانية مختصة كوزارتي الحرب والمالية وللاطلاع شخصياً على أوضاع البلاد. عندما تأكد من خطورة الوضع شرع يعمل بهمة وأناة وصبر لإكمال المهمة التي جاء من أجلها في أسرع وقت. أخيراً، وقبل انهيار نظام الشاه وحكومة بختيار بفترة وجيزة نجح فعلاً في عقد اتفاقية مع الجهات الحكومية المختصة فأسرعنا بارسال النص الى واشنطن لمنحنا تفويضاً للتوقيع على الاتفاقية بصورة رسمية ولكن الجهات الحقوقية في وزارتي الخارجية والدفاع أجابت بسلسلة من التعديلات والتنقيحات والاضافات التي لو عملنا بموجبها لاحتاج الأمر لعدة أشهر من المفاوضات العقيمة بينما كنا في طهران نعلم

أننا في سباق مع الزمن قبل دوي الانفجار الكبير.

تحت تأثير هذه الصدمة الجديدة من واشنطن ومشاعر الغضب والاستياء التي استبدت بنا معاً أوعزت الى اريك التوقيع رسمياً على الاتفاقية التي توصل اليها مع الإيرانيين وبصيغتها الراهنة على أن أكون مسؤولاً شخصياً عن أية مشاكل أو مضاعفات قد تثيرها البيروقراطية في واشنطن. وهكذا فعل أريك وتم التوقيع على الاتفاق الذي أصبح بعد ذلك وثيقة رسمية تحمل ختم حكومة الولايات المتحدة. ومما لا شك فيه أن هذه الوثيقة وفرت على دافع الضرائب الأمريكي حوالي أربعة مليار دولار دون أن تصدر عن حكومة الولايات المتحدة كلمة تقدير واحدة تدل على أن البيت الأبيض قد فهم وأدرك ما الذي حققه ذلك الاجراء الشخصي.

24

الهجوم على السفارة

بعد أيام قليلة وبينما أخذت الأحداث تتوالى بسرعة كبيرة أذنت واشنطن أخيراً للجنرال هوزر وأريك فون ماربور بمغادرة ايران فاستقل كل منهما طائرة متجهة الى جهة مختلفة.

في الأول من شهر تشرين الثاني 1979 حطت في مطار مهراباد طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية وعلى متنها آية الله خميني ومعه حشد كبير من معاونيه فاستُقبلوا من قبل الحشد الهائل من البشر الذين تجمعوا في المطار منذ الصباح الباكر استقبال الفاتحين وبكل مظاهر الابتهاج والانجذاب الصوفي لهذه الشخصية الدينية السياسية. من المطار توجه آية الله وجماعته يرافقهم جمهور غفير من المستقبلين الى مقبرة الشهداء حيث أدى الجميع الصلاة على أرواح الذين استشهدوا في مختلف المراحل التي مرت بها الثورة. بعد ذلك توجه يرافقه جمهور كبير الى مدرسة دينية صغيرة في الطرف الجنوبي من طهران أعدت لتكون مسكناً له ولعائلته. نقلت شاشات المرئية مشاهد وصول آية الله الى ملايين الايرانيين منذ أن لامست عجلات طائرته أرض المطار وحتى دخوله الى مسكنه المتواضع الصغير خطوة بعد خطوة. بعد وصول آية الله الخميني الى طهران هرب عدد من وزراء بختيار تحت جنح الظلام ولم يعد الناس يأبهون أو يهتمون بحكومة أصبحت من الناحية العملية في حكم الملغاة.

صدر أول تصريح رسمي عن مكتب آية الله حول تـأليف حكومـة جديـدة برئاسة مهدي بزركان.

رغم بقائي على صلة بكل من بختيار وبزركان إلا أن اهتمامي الأول في تلك الأيام كان منصباً على إكـمال اجلاء العـدد الباقي من المـواطنين الأمـريكيين من ايران بأقصى سرعة ممكنة.

في مثل هذه الأوقات العصيبة والحرجة لم أستلم من واشنطن أية توجيهات أو تعليمات ذات معنى وأهمية.

الجو السياسي في العاصمة أخذ يزداد تـوتراً يـوماً بعـد يوم فتكـررت حوادث الصدام الدمـوي بين قـوى الجيش والقوى الثـورية المؤيـدة لآية الله الخميني في مناطق متعددة في طهران. في سكون الليل كانت أصوات نيران البنادق الرشاشة تسمح من اتجاهـات مختلفة. ووصلت الأمـور الى الذروة في التـاسع من تشرين الثاني حينما تمرد عدد من طلاب كلية الطيران العسكرية وانضم اليهم عدد آخـر من جنود الخدمات الأرضية من الفنيـين في قاعـدة «دوشن تبه» الجـوية وهـاجموا مقر قيادة القوة الجوية داخل القاعدة.

استنجـدت القيادة الجـوية بـالقيادة العـامـة للقـوات المسلحـة التي سـارعت بارسال وحدة مدرعة تابعـة لقوات الحـرس الامبراطـوري لإخماد حـركة التمـرد والقبض عـلى المتمردين. في هـذه القاعـدة الجويـة كان يعمـل عدد من الخـبراء العسكريين الأمـريكيين فـوجدوا أنفسهم وسط النـيران المتقاطعـة فبذل الجنـرال «ربيعي» قائد القوات الجوية جهداً كبيـراً لضمان سـلامتهم وتمكن من اخراجهم جميعـاً سالمـين بعضهم بالـطائرات المـروحية التي كـانت في متناول يـده والبعض الآخر في حافلات عسكرية.

في تلك الليلة، وبعـد أن خفّت حدة القتـال انضم عـدد كبـير من المـدنيـين المسلحـين بأسلحـة سوفييتيـة الى المتمردين وأغلقـوا الطرق المؤديـة الى القاعـدة الجوية بتكديس مختلف أنواع السيارات والحافـلات والجرارات وكـل ما وصلت إليه أيديهم. في الصباح الباكر تجدد اطلاق النار من مختلف الجهات عدا الناحية التي توقفت فيها الوحدة المدرعة إذ أحجم أفرادها من استعـمال أسلحة دبـاباتهم

الثقيلة ضد المتمردين والـذين انضموا إليهم في الليلة السـابقة. مـا حدث بعـد ذلـك لا نعرف شيئـاً كثيراً عنـه بعد أن تمكن الخـبراء الأمـريكيـون من مغـادرة القاعدة. ولكن علمنا بعد ذلـك أن عدداً من المـراسلين الأمريكيـين اتخذوا من أسطح البنايات العالية القريبة من القاعدة الجوية مكاناً ملائماً لمتابعة ما يحدث في القاعدة وهنـاك لقي المراسـل الصحفي المعروف «جـو الكس موريس» مصرعـه برصاصة طائشة اخترقت قلبه. كان جو شخصية محبوبة وصحافياً لامعاً ومراسلاً بارزاً ومن أوسع الصحافيين معرفة بشؤون ايران ومنطقة الخليج.

مع غروب شمس ذلك النهار سقطت القاعدة الجويـة بيد الـطلاب المتمردين ومن التحق بهم من نـاحية وانضم الى الثـوار عدد غـير قليل من أفـراد الوحـدة المـدرعة من نـاحية أخـرى. ومع أنـه لم يصل الى علمي مـا إذا كان التحـاقهم بالثورة بـأنفسهم فقط أو مع دبـاباتهم وأسلحتهم غـير أني أفترض الـرأي الأخير لسبب بسيط هـو استحالـة استفادة المتمـردين من دبابـات «شيفتن» المعقدة دون وجـود طواقمهـا المـدربـين عـلى تشغيلهـا واستعـمال أسلحتهـا المتـطورة. فهـذه الدبابات نفسها توجهت وخلفها عدد كبير من الثوار وهم يحملون الأسلحة التي استولوا عليها من مخازن القاعدة الجـوية الى مقـر القيادة العسكـرية الايـرانية في شمالي طهران. عند وصولهم الى نقطة تقاطع عدة طرق مع شارع «تختي جمشيد» وبالقرب من موقع الشرطـة العسكريـة اصطدمـوا بقوة من الشرطـة العسكريـة ووقع بينهما قتـال عنيف. ونظراً لقـرب المسافـة بين سفـارتنا وذلـك المكان فـإن الطلقات النارية الطائشة كانت تتساقط في مختلف الأنحاء طوال احتدام المعركـة التي استمرت النهار كله وجزءاً من الليل.

بعد عودة آية الله خميني وازدياد أعـمال العنف وتكرر حـدوثها اتصـل النقيب آمر السرية العسكرية الايرانية المكلفة بواجب حماية السفارة بالملحق العسكـري وطلب الموافقة على انتقال جنوده المرابطين خارج سور الحديقة الى الداخـل لعدة أسبـاب من جملتها أن وجـود السرية في الخـارج يلفت الانـظار والانتبـاه لمـوقـع السفارة وأن وجودهم في الداخل يبعد عن جنوده ازعـاج أولئك الصبيـان الذين يلاحقون الجنود في كل مكان لوضع زهرة في فوهات بنادقهم ورشاشـاتهم ثم انه يحميهم من الرياح العاصفة والليالـي الباردة المعـروفة عن شهـر شباط/ فـبراير.

منذ أن ازدادت حوادث العنف والصدامات اليومية قرر الملحق العسكري البقاء في السفارة بصورة مستديمة ليلاً ونهاراً فوضع سريره العسكري في ركن من أركان غرفة مكتبه ليأخذ قسطه من النوم والراحة في الليل. ولما كان يعمل كضابط ارتباط بين السفارة والمفرزة الايرانية فإنه كان دائم الاتصال بضباطها وأفرادها. حدثني الملحق مساء يوم المعركة بين الثوار والشرطة العسكرية بالقرب من سفارتنا ان أفراد المفرزة يتابعون أخبار الاذاعة الايرانية بصورة دائمة وأن أخبار الثورة وحوادث التمرد في الجيش وفرار الجنود من وحداتهم وثكناتهم تثير لديهم حماساً شديداً وانفعالاً عاطفياً فيشتد النقاش الحاد فيما بينهم بين موافق ومعارض.

استمر القتال بين الثوار والشرطة العسكرية أثناء الليل ثم أخذ يضعف تدريجياً حتى ساد الهدوء في صباح يوم 11 شباط/ فبراير، وفي ذلك الصباح حضر أعضاء بعثة المساعدات العسكرية الأمريكية في مكاتبهم الرسمية الكائنة في نفس البناية التي تضم مكاتب هيئة القيادة العسكرية العليا للقوات المسلحة الايرانية. في حوالي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم اتصل بي هاتفياً رئيس البعثة ـ وهو جنرال امريكي ـ ليخبرني أن جمهوراً كبيراً يتجمع منذ فترة خارج البناية ولذلك يقترح اخلاء الأمريكيين من أعضاء البعثة فوافقته على اقتراحه ودعوته أن ينتقل هو إلى مكاتب السفارة وتمضية الليلة في مسكننا. بعد مرور أقل من نصف ساعة اتصل الجنرال مرة أخرى وأبلغني أن الجمهور بدأ يطلق نيران أسلحته على الحراس المنتشرين حول البناية وان النيران تقابل بالمثل من الداخل ولذلك لم يعد ممكناً الخروج من البناية. بعد فترة وجيزة اتصل بين مساعده وأخبرني أن عدداً من الدبابات تمركزت أمام مدخل البناية وأن احداها أطلقت قذيفة من مدفع الدبابة عيار 105 ملم على البناية وان الأمريكيين الستة والعشرين من أعضاء البعثة سيخلون منطقة المكاتب لينضموا للضباط الايرانيين من هيئة الاركان العامة في الملجأ ضد الغارات الجوية. طلبت منه أن يتصل بي الجنرال رئيس البعثة فور وصولهم الى الملجأ بسلام وأن يزودني برقم الهاتف الذي أستطيع الاتصال به.

كان علي أن أعمل بسرعة وأبذل كل جهد ممكن لإنقاذ حياة ستة وعشرين

مواطناً أمريكياً باتت حياتهم مهددة بخطر كبير ولذلك جندت جميع الموظفين الدبلوماسيين والعسكريين في السفارة للتعاون معي ومحاولة العثور على بعض الشخصيات القيادية في حركة الثورة للتدخل حالاً ووقف مذبحة فظيعة وطلبت منهم الاتصال بي حالاً عند نجاح أي منهم في العثور على الأشخاص الذين نبحث عنهم أو أي اقتراح عملي يعنّ لأحدهم لانقاذ الموقف. وبدأت أجهزة الهاتف في مكتبي تعمل بصورة متواصلة وأخذ يصلني ما يجدّ من الأخبار تباعاً.

ونحن في هذه الحالة من القلق الشديد والعمل المتواصل إذ بجرس الهاتف الخاص الموصول بواشنطن مباشرة يدق بقوة. أخذت السماعة وسمعت صوت نائب وزير الخارجية «نيوسم» على الطرف الآخر. قال نيوسم أنه يكلمني من غرفة العمليات في البيت الأبيض حيث عقد اجتماع برئاسة بريجنسكي لدراسة آخر التطورات والموقف العام في ايران ولذلك يريدون الاستماع إلى رأيي وتقييمي للموقف الحالي. أوجزت له رأيي في جمل قصيرة متقطعة وأخبرته أن ما يشغل السفارة برمتها في هذه الدقائق هو مصير أعضاء البعثة العسكرية الأمريكية المحاصرين في ملجأ بناية القيادة العامة للقوات المسلحة الإيرانية ورويت له ما حدث باختصار. أبدى نيوسم تفهمه لما يساورنا من قلق كبير وبعد أن أعرب عن أمله بنجاح مساعينا أنهى الحديث ولم يطلب المزيد.

بعد حوالي خمس عشرة دقيقة على المكالمة السابقة وفي وقت كنت أتحدث فيه هاتفياً مع أحد الدبلوماسيين الذين كلفتهم بالعثور على ابراهيم يزدي دق جرس الهاتف الخاص بالاتصالات المباشرة مع واشنطن مرة أخرى. كان على الخط كل من نيوسم ومعه أيضاً وكيل الوزارة كريستوفر. قالا انهما يتحدثان من غرفة العمليات أيضاً وأنهما بحاجة الى رأيي عما أتوقعه من تطورات جديدة بعد عودة آية الله خميني الى طهران وزاد كريستوفر أن لديهم بعض الأسئلة يود المجتمعون معرفة ردودي عليها!

هذه المكالمة الجديدة قطعت حديثي مع الموظف الذي أخبرني بأنه تمكن من العثور على مكان يزدي وحالت دون استماعي لبقية ما لديه من معلومات أخرى من ناحية وقلقي على مصير الضباط المحاصرين في الملجأ يزداد مع مرور كل

دقيقة من الوقت القصير المتاح لنا من الناحية الأخرى، الأمر الذي جعلني في حالة نفسية لا تسمح بالخوض في حديث طويل مع أولئك السادة المجتمعين في البيت الأبيض بينما نعمل المستحيل هنا لإيجاد مخرج من المأزق الخطير الذي وقع فيه معظم أعضاء البعثة العسكرية الأمريكية. لذلك كانت اجاباتي على الأسئلة التي وجهت الي تتسم بشيء من الضجر والسآمة والجفاء. لكن السؤال الذي استفزني وأثار غضبي هو قول نيوسم أن بريجنسكي يريد معرفة وجهة نظري حول امكانية القيام بانقلاب عسكري ضد حكومة بختيار والاستيلاء على السلطة في البلاد! هذا الاستفسار كان بنظري يدل على منتهى السذاجة من ناحية وعلى عدم فهم المسؤولين في واشنطن لحقيقة الوضع في ايران فلم أتمالك نفسي من استعمال كلمة بذيئة بحق بريجنسكي الذي يبدو أنه أذهل نيوسم المهذب وأربكه فقال ما معناه أن كلامي لا يعتبر رداً مساعداً ومناسباً فسألته بدوري ان كان يريدني أن أترجم ما قلت الى اللغة البولونية ليكون أكثر وضوحاً لبريجنسكي وانتهت المكالمة عند هذا الحد.

بعد عدة دقائق وبينما كنت أحاول اعادة الاتصال بالموظف الذي قطعت مكالمة واشنطن حديثي معه عاد هاتف واشنطن يدق للمرة الثالثة. كان نيوسم مرة أخرى على الخط فبادرني بقوله بسرعة أنه تلقى تعليمات ليستفسر مني فيما إذا كنت على اتصال هاتفي مع رئيس البعثة العسكرية المحاصر، وفي حالة امكانية ذلك يطلب الي الاتصال به مباشرة وأخذ رأيه حول امكانية القيام بانقلاب عسكري وارسال رأيه الى واشنطن فوراً! سألت نيوسم وأنا أكاد لا أصدق ما أسمع فيما إذا كانوا يعلمون بأن الجنرال حبيس في ملجأ وأني أحاول مع زملائي في السفارة عمل المستحيل لانقاذه من خطر مؤكد! أجاب نيوسم بالايجاب وأضاف قائلاً ولكن التعليمات الصادرة إليه تلزمه بالحصول على رأي الجنرال!

بعد أن أعدت السماعة الى مكانها ببضع دقائق وصلتني مكالمة هاتفية من الجنرال رئيس بعثتنا العسكرية قال انه يكلمني من هاتف الملجأ وأنه يعتقد أن هناك مساع تبذل من أجل التوصل الى وقف اطلاق النار بين الثوار المهاجمين والعسكريين المحاصرين في الملجأ وان عدداً من الضباط الايرانيين قد غادروا الملجأ للعودة الى الطوابق العليا من البناية. أخبرته بشيء من الاستحياء والتردد

بالمحادثة مع واشنطن وطلب البيت الأبيض معرفة رأيه حول امكانية حدوث انقلاب عسكري! رغم ما كان يبدو على لهجة الجنرال من تعب وقلق على مصير زملائه فإنه بعد تفكير قصير وكجندي منضبط وملتزم ألقى جانباً همومه الأخرى وعرض رأيه بكل تؤدة وهدوء وأنهى تقييمه القصير قائلاً ان احتمالات النجاح للانقلاب لا تزيد على خمسة بالمئة فقط. أرسلنا رأي الجنرال دون أن نتأكد من وصوله الى مبتغاه بسبب ما استجد من أحداث بعد ذلك.

بعد مرور حوالي الساعة أو أكثر قليلاً علمنا بوجود كل من ابراهيم يزدي وآية الله بهشتي في مكان القتال بين الثوار المهاجمين والمحاصرين في بناية القيادة العسكرية الايرانية وأنهما يبذلان كل ما لديهما من جهد ووسائل الاقناع لتحقيق وقف لاطلاق النار لتمكين الأمريكيين المحاصرين من مغادرة البناية بسلام ومن ثم ايصالهم إلى السفارة. ونظراً لقرب حلول المساء رأينا أنه من الأفضل أن يبيتوا هذه الليلة في السفارة بدل ذهاب كل منهم الى منزله بعد حلول الظلام وأشرف نائبي شارلي على الترتيبات اللازمة لتهيئة كل ما يلزم لذلك.

خلال الساعات الأولى من تلك الليلة تعرضت السفارة لرشقات من العيارات النارية أطلقها مجهولون من سيارات كانت تمر بسرعة كبيرة في الشارع. لذلك قام حرس مشاة بحريتنا باغلاق جميع مداخل السفارة والسماح لقافلة السيارات التي ستنقل العسكريين الأمريكيين المحاصرين في بناية القيادة العامة للقوات المسلحة الايرانية بعد وصولهم الى السفارة بالدخول من البوابة الخلفية بدل دخولها من البوابة النظامية الامامية المكشوفة للأنظار. تأخر وصول القافلة المنتظرة حتى الخامسة من صباح اليوم التالي وكانت تتألف من عدة سيارات عسكرية يقودها ضباط ايرانيون وفي المقدمة سيارة تحمل ابراهيم يزدي وآية الله بهشتي. كان في استقبال القافلة نائبي شارلي فرحب بالجميع وقدم الشكر والثناء ليزدي وبهشتي لما بذلاه من جهد لانقاذ حياة مواطنينا من أعضاء البعثة العسكرية فأعربا بدورهما عن بالغ أسفهما واعتذارهما عن الحادث المؤسف.

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، أي 12 شباط/ فبراير تلقى الضابط الايراني

الشاب آمر مفرزة الحماية في سفارتنا أمراً من رؤسائه للالتحاق مع سريته بوحدته فأخبر الملحق العسكري بسفارتنا بالأمر. خلال أقل من نصف ساعة تجمعت السرية في صفين منتظمين وألقى النقيب كلمة وداعية أمام الملحق العسكري وبعد تأدية التحية العسكرية استدار نحو جنوده وأصدر أمره بركوب السيارات واستقل بنفسه سيارة الجيب الواقفة أمام رتل السيارات وتحرك الرتل عائداً الى وحدته والى مصير مجهول. وقد بلغنا بعد ذلك أوامر مماثلة كانت صدرت الى جميع الوحدات الموزعة على السفارات المختلفة في طهران.

هكذا تبخرت تدريجياً كل سلطة لحكومة بختيار الذي أخفى نفسه عن الأنظار حتى ظهر مرة أخرى في باريس بعد عدة أسابيع، وانتقل رئيس حكومة الثورة مهدي بزركان الى مقر رئاسة الحكومة الرسمي وبذلك اكتمل نجاح الثورة.

بعد أن سحبت مفرزة الحماية من السفارة عقدت اجتماعاً في مكتبي حضره المسؤولون عن أمن السفارة بالاضافة الى نائبي شارلي ناس والموظف الاداري والملحق العسكري وممثل وكالة المخابرات المركزية C.I.A والضابط المسؤول عن حرس مشاة البحرية. قلت للحاضرين أنه بعد قرار سحب مفرزة الحماية الايرانية أتوقع أن تتعرض سفارتنا للهجوم. ومع أني لا أستطيع الجزم بهوية المهاجمين وقوتهم، ولكني أتصور أن يكونوا جمهوراً من الغوغاء مثلما حدث عشية ليلة عيد الميلاد. وختمت كلمتي القصيرة بالقول اني لا أستبعد بتاتاً أن يحمل المهاجمون في هذه المرة أسلحة مختلفة ولذلك يجب علينا جميعاً أن نكون في حالة استنفار قصوى ويقظة تامة. وطلبت من المسؤولين عن رسائل الشيفرة أن تكون جميع الوثائق الخاصة بالشيفرة وكذلك الأجهزة بالإضافة الى أجهزة الاتصالات معدة ومهيأة للتدمير الفوري عند اللزوم. وأخيراً طلبت إلى الحاضرين التفكير معي في الاحتمالات التي قد نواجهها والاجراءات التي يجب اتخاذها في حالة وقوع هجوم علينا.

في الواقع، كنا خلال الأسبوعين الماضيين، ومن باب الاحتراس والاحتياط، قد أرسلنا معظم الوثائق البالغة السرية الى الولايات المتحدة ولم يبق في السفارة

غير الوثائق الرسمية المتعلقة بالأعمال اليومية الروتينية للسفارة. ومع ذلك قمنا الآن بخفض عدد السجلات الباقية بحيث أصبح من الممكن حفظها في غرفة الشيفرة المصفحة وقدرنا الوقت اللازم لاتلافها حرقاً أو بواسطة جهاز تمزيق الأوراق مدة لا تزيد على الساعتين.

توصلنا في الاجتماع لاتخاذ بعض القرارات التي حازت على موافقة جميع الحاضرين. كان من جملة القرارات قرار يقضي بسحب البنادق ام ـ 16 من جنود مشاة البحرية والاستعاضة عنها ببنادق صيد لا تقتل أكثر من عصفور صغير على أن يحتفظوا بمسدساتهم للدفاع عن النفس. كانت الغاية من هذا الاجراء إفهام الجنود بأنه غير مطلوب منهم الدخول في قتال مع المهاجمين دفاعاً عن السفارة حتى لو احتلوا السفارة فعلاً. فلقد كان من رأينا جميعاً أن أية اصابة قاتلة تقع في صفوف المهاجمين ستزيد من اهتياجهم وتفقدهم رشدهم وبالتالي سوف يمزقون كل أمريكي يقع في أيديهم إرباً إرباً. لهذا كان واجباً صعباً اقناع هؤلاء الشبان المتحمسين أن مصلحتهم ومصلحة الجميع تقضي بأن يسلموا أنفسهم للمهاجمين دون قتال وكذلك اقناعهم بأن الدفاع عن السفارة وحياتنا جميعاً من مسؤولية جهات أخرى! ولكن المشكلة هي العثور على هذه الجهات الأخرى.

القرار الآخر الذي اتخذناه في الاجتماع هو اخلاء السفارة في حالة تعرضها للهجوم الى موقع عسكري يقع قريباً من السفارة. كان الموقع الذي اتجه اليه تفكيرنا عبارة عن مستودع عسكري للتموين وحاميته الصغيرة داخل جدران عالية. وقد أبدى الضابط آمر الموقع ـ وهو برتبة مقدم ـ للدبلوماسي الذي اتصل به استعداده لاستقبالنا عند اللزوم مؤكداً أن الحامية الصغيرة التي تحت امرته مستعدة لمقاومة أي هجوم قد يقع على الموقع كما قال أنه لديه أجهزة اتصالات تمكنه من الاتصال الفوري مع عدة وحدات آلية مسؤولة عن حماية العاصمة للتدخل الفوري ودحر المعتدين.

بعد مرور يومين على توكيدات آمر المستودع العسكري وتطميناته حول مناعة موقعه وقدرته على ابداء المساعدة لنا عند الضرورة، فوجئنا بخبر وقوع هجوم

خاطف على المستودع واحراقه وتدميره من قبل عصابات مسلحة دون أن تبدي حامية الموقع مقاومة تذكر ولذلك بات علينا البحث عن جهة عسكرية أخرى نستطيع الاعتماد على مساعدتها.

فاتحت رئيس الوزراء بزركان بما يساورنا من قلق ثم بحثت الموضوع مع نائبه انتظام وبالتالي مع ابراهيم يزدي. رغم التأكيدات التي قدمها هؤلاء المسؤولين عن استعدادهم لتقديم كل مساعدة ضرورية عند الحاجة إلا أنها كانت في رأيي مجرد وعود غامضة وغير دقيقة ولا يمكن الركون اليها كثيراً. كما أن الاتصال بهؤلاء وغيرهم من المسؤولين لم يعد شيئاً سهلاً بسبب ما لديهم من مشاكل عديدة أكثر أهمية وخطورة تتطلب وتأخذ فعلاً كل ما لديهم من وقت وجهد وتفكير. مع ذلك زودني كل من مهدي بزركان وانتظام بأرقام هواتفهما السرية للاتصال بهما مباشرة في الطوارىء.

في هذا الجو من القلق والغموض الذي كان يكتنف سفارتنا طلبت من معظم موظفي السفارة الذين لا تعتبر وظائفهم أساسية وذات واجبات خاصة البقاء في بيوتهم حتى اشعار آخر. لذلك لم يكن عدد الأمريكيين في السفارة يوم 14 شباط/ فبراير 1979 يتجاوز المئة ومثلهم تقريباً من الايرانيين. رغم ما كان يساورنا من قلق ومخاوف كان ذلك اليوم هادئاً بشكل غريب.

وصلت الى مكتبي في صباح ذلك اليوم ووجدت برقية من واشنطن بانتظاري تفيد أن حكومة الولايات المتحدة قررت استمرار علاقاتها الدبلوماسية مع ايران رغم التغيير الذي حصل في حكومتها وتفوضني بارسال مذكرة رسمية لوزير الخارجية الجديد لإعلامه بهذا القرار. طلبتُ من عدد من الدبلوماسيين العثور على مكان وزير الخارجية الجديد ثم جلستُ أحرر المذكرة المطلوبة. بعد أن فشلتْ محاولات الموظفين بالعثور على وزير الخارجية اتصلت هاتفياً بنائب وزير الخارجية ـ وكان دبلوماسياً قديماً ـ وبلّغته فحوى البرقية التي استلمتها من واشنطن فوافق على أن يستلم المذكرة ومن ثم تسليمها للوزير الجديد. في العاشرة صباحاً حمل سائق سيارتي الأمين «هايكاز» المذكرة وتوجه بسيارته نحو منزل نائب وزير الخارجية، بعد مرور نحو عشرين دقيقة اتصل بي نائب الوزير

وأخبرني أنه تمكن من العثور على مكان وزير الخارجية الجديد واقترح أن أبعث سائق السيارة مع المذكرة إلى المنزل الذي يقيم فيه الوزير، بما أن التعليمات التي تلقاها السائق مني تقضي أن يسلم المذكرة لنائب وزير الخارجية فإنه رفض الامتثال لتعليمات النائب وحمل الرسالة الى مكان اقامة وزير الخارجية ما لم يتلق أمراً مني شخصياً ولذلك اقترحت على نائب الوزير الاحتفاظ بالنسخة الثانية من المذكرة ويعيد النسخة الأصل الى السائق الذي كلمته هاتفياً لاستلام المذكرة من نائب الوزير وايصالها لوزير الخارجية في العنوان الذي سيزوده النائب به.

عند مجيء هذه المكالمة من نائب وزير الخارجية صادف ان كنت في تلك اللحظة في مكتب أمين مكتبي الخاص وبدلاً من الرجوع الى مكتبي أجريت المحادثة التي أشرت اليها آنفاً من جهاز هاتف أمين المكتب. بعد انتهاء المكالمة استدرت للذهاب الى مكتبي وفوجئت برؤية الملحق الصحفي «باري روزن» واقفاً مع اثنين من المراسلين الأمريكيين في مدخل الغرفة فتأكد لدي فوراً أن ثلاثتهم كانوا يستمعون لحديثي مع نائب وزير الخارجية، الأمر الذي أثار استيائي وغيظي على الملحق الصحفي وخاصة وأن برقية واشنطن أوعزت بصورة واضحة بعدم نشر الخبر في طهران إذ أن قرار الحكومة سيعلن عنه رسمياً في واشنطن. أشرت للملحق الصحفي أن يحضر الى مكتبي بمفرده ووجهت اليه تقريعاً شديداً على هذا الاهمال ثم سألته عن سبب مجيئه مع الصحافيين فأجاب مغموماً أنهما جاءا للحصول على الأوراق الرسمية اللازمة من السفارة لاجراءات شحن جثمان زميلهما جو موريس الى عائلته في اثينا. طلبت منه وأنا أشعر بالارتباك أن يحاول الحصول على وعد منهما بعدم نشر الخبر الذي سمعاه بطريق الصدفة والانتظار حتى صدور التصريح الرسمي في واشنطن.

بعد مرور دقيقتين أو ثلاثة وبينما كنت أهم باستلام مكالمة هاتفية انهال فجأة على كافة أبنية السفارة وابل من الرصاص من عيار 50 ملم و 30 ملم وتأكد لنا أنها آتية من أسطح البنايات العالية القريبة من مجمع السفارة فتحطم زجاج النوافذ وتطايرت الشظايا في كل اتجاه فما كان من الجميع إلا الانبطاح على الأرض ثم الزحف تدريجياً إلى أمكنة آمنة. استعملت جهاز الراديو الصغير للمكالمات القريبة «ووكي ـ توكي» الذي كنت أحمله معي للاتصال بحرس

مشاة البحريـة المنتشرين في أنحاء مختلفـة لقطعـة الأرض التي تقدم فـوقها أبنيـة المجمع طالباً اليهم استقصاء ما يجري في الخارج. بعد قليل من الوقت أخبروني أن حـوالي 70 مسلحاً مـزودين بأسلحـة أوتومـاتيكية يحـاولون تحت ستـار النـار الكثيفة التي انصبت علينا من البنايات القريبة تسلق سياج حديقة المسكن وليس هناك محاولة مماثلة للدخول الى مبنى السفارة ذاتها. بعد وصـول هذه المعلومـات إلي طلبت من الجنود المرابطين بالقـرب من المسكن الانسحاب من ذلـك المكان والانتقال الى موقع قريب من المطعم الصغير الكائن في الركن الشمالي الغربي من المجمـع. كما طلبت من مشـاة البحريـة المتمـركـزين خـارج المبنى الانتقـال الى مكاتب السفارة وطلبت من الجميع بشكل واضح وصريح عدم اطلاق النار على المهاجمين وكررت أمري بعدم استعمال المسدس الشخصي الا في حالة الدفاع عن النفس. بعـد مرور فـترة قصيرة اتصـل بي عريف شـاب في مشاة البحـريـة عن طريق جهاز الراديو الصغير وقال انـه بات محـاصراً من قبـل المهاجمـين من جميع الجهات ويطلب أن أذن له باطلاق النار فمنعته عن ذلك وأمرته أن يسلم نفسـه إذا تمكن من ذلـك واللجوء الى مسـدسه في حـالـة رفضهم استسـلامـه. ورغم علمي بصعوبة تنفيذ مثل هذا الأمر بالنسبة لشاب يعتز بنفسـه وبسلاحـه إلا إنه نفذ الأمر حرفياً كجندي منضبط ومطيع. بعد عدة دقائق اتصل بي هذا العريف مرة أخرى وأخبرني أنه استسلم لهم وأنهم قادوه الى جهة المـطعم الصغير،ولسبب غير مفهوم لدي لم يستولِ الذين أسروه على جهاز الاتصال الذي يحمله معه.

الهجوم على مسكن السفير واحتلاله من قبل العنـاصر المهاجمـة استغرق نحـو ساعة ممـا منحنا وقتـاً كافيـاً لإجراء الاتصـال مع مختلف الجهـات الايرانيـة طلباً للمسـاعدة. في أثنـاء ذلك كـان اطلاق الـرصـاص عـلى مبنى مكـاتب السفـارة متواصلاً بـدون انقطاع، الأمـر الذي جعـل من العسير علينـا التنقل من مكـان لآخر داخل المبنى. مع ذلك تمكنـا شيئاً فشيئـاً من التجمع في الـردهة ومنهـا الى غرفة الاتصالات في الطابق الثاني ولم يبق في الطابق الأرضي غـير عدد من مشـاة البحرية والملحق العسكري للقوات الـبرية. بعـد أن سيطر المهـاجمون عـلى مبنى مسكن السفير وتمكنت عناصر اضافية من دخول حرم السفـارة بدأ الهجـوم على مبنى مكاتب السفارة. وقد أثبتت بنادق G-3 التي كان يستعملها المهاجمون قـدرة

كبيرة على اختراق الأبواب الحديدية التي كنا أقمناها في جميع المداخل. الدفاع عن الطابق الأرضي كان لا جدوى منه ولـذلك طلبت من مشاة البحرية اقامة حاجز دخاني مسيل للدموع بالقرب من جميع المداخل والالتحاق بالآخرين في غرفة الاتصالات. بعد أن تم هذا بقينا ثلاثة فقط خارج الغرفة هم الملحق العسكري ومترجم ايراني وأنا ونحن نسمع الطلقات النارية تخترق الأبواب المعدنية في الطابق الأرضي.

في تلك اللحظات ونحن نتوقع وصول المهاجمين الى الطابق الثاني بين لحظة وأخرى تعالت فجأة أصوات جديدة في الخارج ترافقها بين حين وآخر عدة زخات من رشاشات ذاتية فتبادر الى ذهني وصول قوة الانقاذ ولعلهم يتبادلون النيران مع العناصر الثورية المهاجمة. ولكني طبعاً لم أكن متأكداً من وصولهم الينا قبل المهاجمين ولذلك قررت أن أية محاولة لمقاومة المهاجمين من داخل غرفة الاتصالات سوف تكون بمثابة انتحار جماعي فوضعت الملحق العسكري ومعه المترجم الايراني أمام الباب الحديدية المعدة لحماية الطابق الثاني وانسحبت للانضمام الى الآخرين في الغرفة وأمرت جميع الحاضرين بتكديس أسلحتهم الشخصية في ركن من أركان الغرفة وأن يكونوا مستعدين للتسليم دون مقاومة. أحدث طلبي هذا شيئاً من الدمدمة بين الحاضرين وأخذ بعضهم يبدي احتجاجه ولكن الجنرال رئيس البعثة العسكرية الأمريكية أسكتهم وأشرف شخصياً على جمع الأسلحة بأسرع ما يمكن. عندما وضعت الملحق العسكري والمترجم الايراني أمام الباب الحديدية أوصيتهم بالانبطاح على الأرض بالقرب من الباب وإخبار من يصل من المهاجمين باستعدادنا للتسليم دون مقاومة والطلب منهم عدم اطلاق النار. بعد دقائق وصل المهاجمون الى الأبواب التي فتحت للسماح لهم بالدخول.

عندما شعرت أنهم باتوا قريبين من الغرفة التي كنا بداخلها فتحت الباب أمامهم وتقدمت خطوة خارج الغرفة ويدي مرفوعتان فوق رأسي يتبعني الجنرال والآخرون. اقتادنا المهاجمون الى غرفة الانتظار الملحقة بمكتب السفير وهناك أجروا تفتيشاً جسدياً لجميعنا للتأكد من عدم وجود أسلحة مخبأة لدينا. جلست

قريباً من باب الغرفة ويجانبي مساعدي الذي يمكنه أن يقوم بدور المترجم عند الحاجة.

لم يكن من السهل أن نعرف في بادىء الأمر ما إذا كانت الجماعة التي أسرتنا هي من الأعداء المهاجمين أو الاصدقاء المنقذين ولكن المناقشة الحادة التي قامت بينهم بعد قليل دلت على أنها تتألف من الأعداء والاصدقاء وهو ما زاد في قلقي وحيرتي. وعلى أي حال، المهم أنه صار بإمكاننا أن نميز بين أولئك الذين هجموا على السفارة والذين جاءوا لانقاذنا. كان رئيس قوة الانقاذ شاباً في مقتبل العمر لا يحمل من السلاح غير حربة عسكرية بينما كان رئيس القوة المهاجمة شاباً آخر يحمل رشاشة من نوع A.K.-47.

بينما كان النقاش ما زال دائراً بين الجماعتين إذ برصاصة تنفذ خلال احدى النوافذ وتصطدم بالجدار فوق رؤوسنا فألقى جميع الواقفين أنفسهم على الأرض. رئيس القوة المهاجمة الذي تصور أن الرصاصة أطلقت داخل الغرفة وليس من الخارج توترت أعصابه وأخذ يحرك رشاشته بعصبية في وجوه الأمريكيين الذين باتوا عبارة عن مجموعة متشابكة من الأذرع والسيقان وكل يحاول الحصول على رقعة من الأرض لاتخاذ موضع الامتداد. في تلك اللحظات القليلة وقع بصري على الصحافيين اللذين أثار وجودهما مع ملحقنا الصحفي قبل وقت قصير غيظي واستيائي وهما ممدان على الأرض بجانب بعضهما خلفي فأردت أن أمازحهما وقلت إني آمل أن يتمكنا من تسجيل وقائع هذا اليوم بصورة شاملة ودقيقة.

بعد وقت قصير عاد الهدوء إلى النفوس طلب الايرانيون من الأمريكيين مغادرة الغرفة الواحد بعد الآخر والتجمع في الساحة الواسعة أمام مبنى السفارة حيث كان ابراهيم يزدي في الانتظار. بقيت في مكاني لأكون آخر من يغادر الغرفة وقبل النزول الى الطابق الأرضي قصدت غرفة مكتبي لآخذ الماكنة التي كنت تركتها هناك عند بدء اطلاق النيران على المبنى، هبطت السلالم إلى الطابق الأرضي وخرجت من البناية الى الساحة وأنا أسير بين حامل الحربة وحامل رشاشة A.K.-47 لأجد أمامي جمعاً غفيراً من رجال الصحافة العالمية الذين

أخـذوا عشرات الصور لي بجـانب الشاب الـذي يحمل الحـربة والـذي كان في الحقيقة منقذاً وليس كما أشارت الصحافة ووصفته واحداً من أفراد العصابة التي هاجمت السفارة.

كانت الساحة تعج بالناس من مختلف الأجنـاس والأشكال والألبسـة. فهناك بـالقرب من سيـاج موقف السيـارات اصطف الأمـريكيـون يحيط بهم عـدد من الإيرانيين المسلحين. وهناك خـارج البوابـة وداخلها جمـع غفير من المـارة الذين تجمعوا لمشاهدة ما يحدث من باب الفضول وحب الاستطلاع. ثم مجموعة كبيرة من مراسلي الصحافة العالمية ووكالات الأنباء ووسـائل الاعـلام الأخرى وهنـاك عـدد من رجال الـدين بلباسهم المحتشم وعـمائمهم البيضاء والسـوداء. وهنـاك مجموعة من العناصر التي هاجمت السفارة يرتـدي معظمهم الكـوفية الفلسـطينية المرقطة للدلالة على أنهم تلقـوا تدريبهم العسكـري في معسكرات يشرف عليهـا جورج حبش عضو منـظمة التحـرير الفلسـطينية. ورأيتُ بـين هؤلاء رجلاً قـد ابيض شعر رأسه حسن الهندام وبجانبه واحد من آيات الله وهما يقفـان حاجـزاً بين قوتين عسكريتين ويحاولان بهدوء اقناع مجموعة من المسلحين لمغادرة المكان. في احـدى أركان مـوقف السيارات رأيتُ ابـراهيم يزدي يقف عـلى غطاء محـرك سيـارة من السيارات الـواقفة وبيـده مكبر للصـوت وهو يـوجه نـداءات متكررة للجمهـور الغفير من المتفـرجين لمغـادرة أرض السفـارة والانصراف إلى شؤونهم الخاصة. ولما كانت آثار الغاز المسيل للدموع ما زالت قوية في كل مكـان لم يكن معـظم المتفرجـين الفضوليـين بحاجـة لاقنـاع كبـير من يـزدي لمبـارحـة المكـان والانصراف.

كان همي الأول في هذا الوضع الفوضوي التخلص من الحراسة وكـذلك من رجال الصحافة لأذهب إلى آية الله ومصافحته. عنـدما فعلت هـذا بدا الـرجل لأول وهلة منذهلاً وكأنه صادف شيئاً لم يكن يتوقعه إلا أنه سرعان مـا صافحني بحرارة ثم استمر في محاولته لاقنـاع المهاجمـين بالانصراف. بعـد ذلك تـوجهت نحـو ابراهيم يـزدي الذي مـا ان رآني حتى هبط من مكانـه فوق السيـارة وهـو يعتذر بحرارة عما حدث مؤكداً السيطرة على الموقف. عاد يزدي الى مكـانه عـلى ظهـر السيارة وواصـل حديثـه بـواسـطة مكـبر الصـوت. بعـد أن أديت واجب

المجاملة نحو الرجلين. اللذين أسرعا لمساعدتنا التحقت ببقية الموظفين وسرعان ما أحاطت بنا مجموعة من القوة التي جاءت لانقاذنا بغية حمايتنا من أي خطر طارىء.

بعد أن انصرف أفراد القوة المهاجمة وكذلك جمهور المتفرجين انضم الينا ابراهيم يزدي وقال ان من رأيه أننا سنكون أكثر أماناً لو غادرنا السفارة الى مكان آخر، ثم أشار لأحد مساعديه للمجيء بحافلة ـ ولعلها كانت نفس الحافلة التي أقلت جماعة الانقاذ وأمر سائقها بالتوقف بالقرب من مكاننا واقترح أن نصعد جميعاً لتأخذنا ال مكان أمين. ترددت بالصعود لعدم رغبتي بمغادرة السفارة. لذلك اقترحت على يزدي أن ننتقل جميعاً الى مسكني الخاص ليتسنى لنا التحدث في مكان خاص وليس في العراء. وافق يزدي حالاً على اقتراحي وهكذا مشينا جميعاً يرافقنا حوالي مئة مراسل صحفي ومصور ومجموعة صغيرة من المسلحين تتألف أكثريتها من جنود القوة الجوية المزودين ببنادق ج ـ 3 لحمايتنا. بعد وصولنا الى المسكن جمعت الموظفين في الشرفة الواسعة وطلبت من رؤساء الأقسام التأكد من حضور جميع موظفي أقسامهم. وتحققت من موظفي قسم الاتصالات انهم أتلفوا جميع الوثائق المحفوظة في الغرفة المصفحة كما قاموا بتخريب أجهزة الشيفرة وأجهزة الاتصالات عبر الأقمار الصناعية فور بدء اطلاق النار على مباني السفارة وبذلك لم يعد بامكان أية جهة محاولة الاستفادة من أجهزة اتصالاتنا ومخابراتنا.

طلبت من نائبي شارلي اجراء تعداد أخير على الأمريكيين الحاضرين، وبينما كان مشغولاً بتنظيم وقوفهم في صفوف لهذا الغرض سمعنا فجأة صوت رصاصة تمر فوق رؤوسنا باتجاه الاشجار في الحديقة فألقى الجميع بأنفسهم على الأرض دون أن نعلم مصدر الطلقة فاتجه تفكيرنا بطبيعة الحال لاحتمال وجود عدد من القناصين فوق نفس الأبنية التي جاءت منها في صباح ذلك اليوم نيران الرشاشات تمهيداً للهجوم على مباني السفارة. ولكن مخاوفنا تلاشت بعد عدة لحظات عندما قال أحد الجنود الايرانيين بلسان متلعثم أن الرصاصة انطلقت من بندقيته صدفة بسبب نسيانه تثبيت مسمار الأمان في موضعه. رغم أن الحادث مر بسلام إلا أنه نبهني بأن وجودنا في الشرفة المكشوفة غير مناسب وقد

يعرضنا لخطر حقيقي لهذا طلبت من الجميع الانتقال الى غرفة الاستقبال الرئيسية داخل المبنى رغم حالتها المزرية وزجاج نوافذها كالغربال وستائرها الممزقة وأثاثها المقلوب والمهشم.

قام شارلي بالمهمة التي لم يتمكن من القيام بها في الشرفة واحصى عدد الأمريكيين الحاضرين وتبين أن جميع الموظفين الذين كانوا في مبنى السفارة عند بدء الهجوم صباحاً كانوا ضمن العدد الحاضر. ورغم ارتياحي لهذا الخبر لكني كنت أشعر بالقلق على مصير مشاة البحرية الذين كانوا خارج سور مجمع السفارة أثناء الهجوم.

طلب ابراهيم يزدي أن يلقي كلمة قصيرة أمام الحاضرين قال فيها ان الهجوم الذي تعرضت له سفارتنا قامت به عناصر من داخل الثورة ولكنها عناصر غير نظامية وغير منضبطة وأعرب عن اعتذار حكومة الثورة وأسفها مرة أخرى وأكد أننا سوف نتمتع بعد الآن بحماية كاملة. وقال يزدي متابعاً كلامه ان حكومة الثورة لا تضمر عداءً للولايات المتحدة ولكن العلاقات بين ايران والولايات المتحدة سوف تختلف عما كانت عليه في عهد الشاه.

بعد أن أنهى ابراهيم يزدي كلمته القصيرة اقترحت على الحاضرين الانتقال الى المطعم الصغير (كافتريا) لتناول شيء من الطعام الخفيف والمرطبات ورجوت ابراهيم يزدي والجنرال رئيس البعثة العسكرية الأمريكية وملحقنا العسكري التأخر للتداول في بعض الشؤون المتعلقة بالاجراءات الأمنية المطلوب اتخاذها لحماية مجمع السفارة. بعد قليل انضم الينا الرجل الكبير السن الذي سبق ورأيته في الساحة قبل وقت غير طويل والذي علمت أنه ضابط متقاعد برتبة عميد، لم يكن العميد يتكلم الانكليزية ولكنه كان يتحدث باللغة الفرنسية بطلاقة وإتقان كبيرين.

بعد تداول الآراء فيما يجب اتخاذه من اجراءات أمنية تم الاتفاق مع ابراهيم يزدي وأيده العميد المتقاعد على خطة أمنية جديدة يرابط بموجبها 40 جندياً ايرانياً حول محيط مجمع السفارة من الخارج لحماية الطرق المؤدية إلينا بالاضافة الى 40 جندياً آخرين في داخل حرم السفارة. ومع أن هذه الترتيبات الامنية

تختلف في حجمها عن الحماية التي توفرها الحكومات عادة للسفارات الأجنبية إلا أني فضلت أن يكون هناك وجود عسكري ايراني قوي لحماية السفارة من أي اعتداء على حرمتها في المستقبل. بعد موافقة يزدي على هذه الاجراءات أضاف اقتراحاً آخر حول حمايتي الشخصية. وقدم لي اسم شاب قال إنه يتقن اللغة الانكليزية وأنه يترأس مجموعة من الشباب وأنه يزكيهم لتوفير حماية لي وان بالامكان أن يصبحوا ضمن المجموعة التي سوف ترابط في الداخل لحماية السفارة فوافقت على اقتراحه.

وقد اكتشفت من خلال أحاديثي العابرة مع بعض أفراد هذه المجموعة فيما بعد أنهم كانوا أعضاء في خلية ثورية سرية من طلاب الجامعة وان زمرتهم قد كلفت فعلاً في السابق باغتيالي، ولكنهم على أتم الاستعداد الآن لضمان حمايتي من أي اعتداء قد يقع علي! كلام جيد ولكنه غير مريح ولا يبعث الطمأنينة في النفس.

ما عدا هذه المجموعة الصغيرة من طلاب الجامعة فإن بقية أفراد قوة الحماية التي رابطت داخل حرم السفارة كانت تتألف من مجندين في القوة الجوية الايرانية والمجاهدين الذين كان يترأسهم جزار ضخم الجثة مفتول العضلات من سكان جنوبي طهران وهي منطقة كانت تعتبر دائماً مركزاً مهماً لنفوذ آية الله خميني. وقد كشفتِ الأيام التالية أن الخلافات الايديولوجية والسياسية بين المجموعات الثلاثة جعلت العلاقات فيما بينهم سيئة ومتوترة بحيث كنا نضطر للقيام بدور الحكم والوسيط لإنهاء النزاعات الحادة التي كانت تقع أحياناً بين مجموعة وأخرى.

بعد انصراف ابراهيم يزدي وصديقه العميد المتقاعد باشرنا بجرد الأضرار والخسائر التي لحقت بمباني المسكن والمكاتب والتفكير بما يجب عمله. كان مسكننا في حالة يرثى لها؛ معظم النوافذ مخلوعة والستائر ممزقة والمرايا والجدران مرصعة بثقوب الرصاص وقطع الاثاث مهشمة بالاضافة إلى عملية السلب والنهب. رغم ذلك قررت أن أمضي تلك الليلة ومعي ضيوفي الذين كانوا يقيمون معي في المسكن. بعد هذا اتجه اهتمامنا لموضوع الاضاءة بعد أن

انقطعت خطوط الكهرباء أثناء الهجوم وتمكن أحد جنود مشاة البحرية من اعادة تشغيل المولـد الكهربـائي القديم في السفـارة وعاد النـور يتلألأ في جميـع نواحي السفارة.

العدد القليل من مشاة البحرية الذين وقعـوا أسرى بيد الفئـات التي هاجمت السفارة تمكنوا بـطريقة أو أخـرى التخلص من أسرهم وعادوا الى السفـارة عدا عريف شاب كان أصيب بجروح خفيفـة من بندقيـة الصيد التي زودتـه وزملاءه السفارة بها فنقل الى المستشفى وقد بذلنا جهداً كبيراً لمحـاولة التـأكد من مكـان وجوده دون أن نتمكن من ذلك فاعتبرناه مفقوداً.

خلال اليومين التاليين قام بزيارة سفارتنا جميع زملائي في الهيئـة الدبلومـاسية للاعراب عن أسفهم وغبطتهم بسلامة الجميع. كان السفير السويدي الـذي لا تبعد سفارته عن موقعنا إلا بمسافة قصيرة أول القـادمين فعـرض علي الاستفـادة من وسائل الاتصالات في سفارته فقبلت عرضه شاكراً وأبلغت واشنطن بسـلامة جميع موظفي السفارة عدا عريف من مشاة البحرية الذي ما زال مفقـوداً. قسم كبير من السفراء حملوا رسائل من رؤسـاء دولهم الذين كنت عـلى معرفـة سابقـة بهم. الأمر المدهش والمذهل هو أن تصلني مثل هذه الرسائل التي تحمل عواطف كريمة من مـرسليها من عـواصم أخرى غـير عاصمـة بلادي حيث لم أستلم من البيت الأبيض أية رسالة أو برقية تدل على أن الذين يقيمون داخل جـدرانه قـد لاحظوا ولو بصورة عابرة الأزمة التي مررنا بها.

بعد مرور يومين على عملية الهجوم زار سفارتنـا أحد كبـار رجال الـدين من الـذين يحملون لقب آية الله وكـان رجلاً وقـوراً جم الأدب وبرفقتـه ثـلاثـة من رجال الدين الشبان. قال لي أنه موفد من قبل آيـة الله خميني للإعـراب باسمـه عن أسفه واعتذاره عما تعرضت له سفارتنا من اعتداء وأنه شعر بالارتياح لعـدم اصابة أحد منا بالأذى. وتابع موفد الخميني قائلاً انه مستعـد الآن لابقاء رجـال الـدين الشبان في سفـارتنـا ليقتنـع كـل من تسـول لـه نفسـه من المجمـوعـات الاسلامية بالاعتداء عـلى السفارة. وأخيـراً استفسر عما إذا كـان هناك أي شيء آخر يستطيـع هو شخصيـاً أو آية الله خميني عمله من أجلنـا في هذه الـظروف.

أعربت للموفد عن شكري العميق لهذه البادرة الكريمة من آية الله خميني وقلت أنني لا أرى ضرورة لبقاء الشبان معنا في السفارة بعد أن اتفقت مع الوزير ابراهيم يزدي على ترتيبات أمنية ملائمة. ثم قلت إنه يستطيع مساعدتي بالعثور على العريف الامريكي الشاب الذي اختفى ولا ندري عن مصيره واعادته إلينا سالماً في أقرب وقت ممكن. بدا على الرجل بعض الارتباك من طلبي وتساءل إذا كان بامكاني اطلاعه على تفاصيل ظروف اختفائه فأخبرته بجميع التفاصيل التي أعرفها. بعد أن انتهيت من كلامي قال ان اجراءات فورية سوف تتخذ لمعرفة مكانه واعادته الينا في أقرب وقت. في مساء ذلك اليوم عاد العريف الشاب الى السفارة سالماً.

موضوع هذا العريف أصبح في وسائل الاعلام الامريكية قضية الساعة وشُغل به الرأي العام مدة من الوقت بعد نشر خبر اختفائه ثم بعد عودته سالماً إلى السفارة.

بعد أول اشارة بعثتها الى واشنطن بواسطة السفارة السويدية عن سلامة موظفي السفارة واختفاء العريف الشاب استلمت منّ واشنطن مكالمة هاتفية تطلب ابلاغ البيت الأبيض بخبر عودة العريف المفقود فوراً ليعلن الرئيس كارتر خبر عودته شخصياً في واشنطن، أجبت من كان يكلمني على الطرف الآخر من الخط أنه نظراً للأوضاع الحالية في ايران من المستحسن الامتناع عن اعلان أي خبر يتعلق بالعريف حتى ما بعد مغادرته لايران بطائرة عسكرية أبقيتها جاهزة للاقلاع في المطار لهذا الغرض. بعد دقائق معدودات جاءت مكالمة هاتفية أخرى قال فيها المتكلم ان موضوع توقيت الاعلان عن عودة العريف أمر تقرره واشنطن وحدها ولذلك المطلوب مني ابلاغ واشنطن فور رجوعه الى السفارة سالماً!

بعد وقت قصير وبينما كنا نتناول طعام العشاء دخل العريف الى الغرفة مسلماً فسررنا برجوعه ودعوته لتناول الطعام معنا. التهم الشاب الطعام الذي قدم اليه بسرعة قياسية وهو يحدثنا في الوقت نفسه تفاصيل ما حدث بعد أن أسره المهاجمون ونقلوه الى سجن بقي معتقلاً فيه عدة ساعات ثم أطلقوا سراحه

وأوصلوه الى السفارة. ودق جرس هاتف واشنطن من جديد وقبل انتهائنا من تناول الطعام. سألني المتحدث على الطرف الآخر فيما إذا كان العريف قد وصل الى السفارة فأجبت بالايجاب وقلت أنه يتناول الآن طعام العشاء معنا. قال محدثي ان عامل البدالة في البيت الأبيض يود التحدث اليه. ترددت برهة قصيرة وأنا مستغرب من هذا الطلب ثم ناديت العريف وسلمته سماعة الهاتف وعدت الى مكاني. بعد عدة دقائق عاد العريف الى مكانه مذهولاً وقال متلعثماً انه كان يتحدث مع رئيس الولايات المتحدة وكذلك مع والدته وان الرئيس سيعلن هذين الخبرين حالاً. من حسن الحظ أن اعلان الخبر في واشنطن على مستوى رئيس الولايات المتحدة لم ينتج عنه في ايران أية مضاعفات فورية فتمكن العريف من التسلل بهدوء الى خارج البلاد على الطائرة التي كانت تنتظره في المطار.

25

خيول الثورة ورحيلي عن ايران

بعد أن تغلبت على آثار الصدمة الناجمة عن الهجوم على السفارة وجهت اهتمامي الى القضايا الثلاثة التالية: أولاً، اجلاء بقية المواطنين الأمريكيين سريعاً من ايران، ثانياً، اعادة السفارة الى وضعها الطبيعي ونشاطها المعتاد، وثالثاً، تحديد نوع علاقاتنا المستقبلية مع حكومة الثورة.

فيما يتعلق بعملية الاجلاء نشرت السفارة بياناً على أفراد الجالية ذكرت فيه ان السفارة ليس بمقدورها بعد الآن توفير الحماية للمواطنين الأمريكيين في ايران ولذلك تنصح الجميع بضرورة مغادرة الأراضي الايرانية وأن دائرة خاصة أنشئت في السفارة مهمتها تسهيل اجراءات السفر.

خلال مدة قصيرة زودتنا القوة الجوية الأمريكية في المانيا الغربية بعدد من الطائرات العسكرية كما ساهمت شركة الخطوط الامريكية «پان ام» بعدد آخر من طائراتها وبذلك تكوّن لدينا أسطول جوي متواضع لاجلاء المواطنين الأمريكيين. عندما بدأت عملية الجسر الجوي كان العدد الباقي من الأمريكيين في ايران يقدر بثمانية آلاف شخص موزعين في مختلف انحاء البلاد حسب الأعمال التي كانوا يؤدونها.

عندما أعود بالذاكرة الى تلك الأوقات العصيبة أشعر أن عملية تسفير هذا العدد الكبير خلال فترة قصيرة نسبياً وفي ظروف مليئة بشتى الاحتمالات دون أي

حادث مكدر يعتبر عملاً غير اعتيادي. والذي لا شك فيه ان الفضل في نجاح العملية يعود أولاً وآخراً للمواطنين الأمريكيين أنفسهم الذين كانوا دائماً مثالاً للانضباط والنظام وروح التعاون. كانوا يقبلون بجداول الأسبقية التي كنا نضعها اعتباطاً دون اعتراض وكانوا يتذرعون بالصبر والاحتمال وهم ينتظرون في السفارة ساعات طويلة لحين توفير وسائل النقل لايصالهم الى المطار، كما كان بعضهم يضطر لتمضية الليل في السفارة والاكتفاء بوجبة الطعام الخفيفة التي تقدم لهم دون تذمر أو شكوى. استلمنا سياراتهم الخاصة مقابل وصل استلام للاحتفاظ بها حتى حلول فرصة مناسبة لبيعها بالنيابة عنهم. أعددنا قوائم خاصة سجلت فيها عناوين الأماكن التي حفظوا فيها ما لديهم من أثاث وأدوات منزلية بأمل شحنها في الوقت المناسب الى أماكن إقامتهم في الولايات المتحدة.

من أجل تنفيذ عملية الاجلاء بالسرعة الممكنة كان علينا التعامل مع عدد من اللجان الثورية التي كانت تتغير بصورة مستمرة والتي يتصف اعضاؤها بتأثير نزواتهم الخاصة، الأمر الذي كان يتطلب التكيف مع قرارات عشوائية يصدرها أولئك الذين وضعوا في مواقع السلطة، مؤقتاً على الأقل، في مختلف الدوائر الحكومية كدائرة الجمارك في مطار مهراباد.

في اليوم الثاني أو الثالث من بدء عملية اجلاء المواطنين الأمريكيين استلمت مكالمة هاتفية من سفير اسرائيل الذي كان مختفياً مع موظفي سفارته منذ أن استولت مجموعة من الفدائيين على مبنى السفارة الاسرائيلية وقدمتها هدية الى منظمة التحرير الفلسطينية. بما أن طائرات «العال» الاسرائيلية لا تستطيع المجيء إلى طهران فإن السفير ناشدني بحرارة مساعدته لاخراج موظفي سفارته بأسرع وقت ممكن من ايران ضمن عملية اجلاء الأمريكيين. قال ان عددهم اثنان وثلاثون موظفاً وانه يستطيع ايصالهم للمطار خلال ساعتين من لحظة ابلاغه بالوقت المطلوب لحضورهم.

هذا الطلب كان مشكلة بالنسبة لنا، إذ أن تحقيقه يستلزم اجراء تعديل في قوائم السفر المعدة لكل يوم واخراج نفس العدد من الأمريكيين وتأخير سفرهم. ولكن بالنظر لكون الاسرائيليين أكثر تعرضاً للخطر من المواطنين

الأمريكيين لم يكن بوسعنا رفض مساعدتهم وهكذا أجرينا الترتيبات اللازمة لوضع الاسرائيليين على متن احدى طائراتنا المسافرة وتمكنا أيضاً بعد سلسلة من الاشارات المعقدة من ايصال الخبر اليهم. في الموعد المحدد وصل الاسرائيليون الى المطار ولكنهم كانوا ثلاثة وثلاثين وليس اثنين وثلاثين وحلت المشكلة الجديدة بعد أن تنازل أحد الأمركيين عن مقعده للاسرائيلي الاضافي فغادروا جميعهم طهران وهم يتنفسون الصعداء ثم استلمت بعد مدة رسالة شكر رقيقة من وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان.

عملية تسفير الأمريكيين العاملين في المناطق الجنوبية من ايران كانت أكثر تعقيداً ولكن أمكن اجلاء عدد من العائلات الأمريكية التي كان أربابها يعملون في الموانىء الواقعة على ساحل الخليج بمساعدة بريطانيا وبواخرها العاملة في الخليج. الحادث الطريف الذي حصل أثناء التقاط البواخر البريطانية أولئك الأمريكيين الذين تجمعوا في الموانىء هو أن ربان احدى البواخر رفض السماح لعائلة امريكية بالصعود الى سفينته ومعها كلبان وبالتالي رفضت العائلة السفر وفضلت المخاطرة بالسفر الى طهران بالسيارة مع الكلبين على التخلي عنهما. تم تسفير العائلة بالطائرة من طهران بعد أن ضم الكلبان الى مجموعة الحيوانات الأخرى التي سافرت بدورها كمجموعة بطائرة خاصة الى فرانكفورت.

القضية الثانية، أي محاولة اعادة السفارة الى وضعها الاعتيادي لم تكن أكثر سهولة من قضية اجلاء المواطنين الأمريكيين. فاعادة اتصالنا بالعالم الخارجي أخذت ما تستحق منا من جهد ووقت. ثم واجهنا مشكلة الآثار المتخلفة عن استعمال كميات كبيرة من الغاز المسيل للدموع فتشربت بها قطع الأثاث والستائر وكل شيء آخر في المكاتب بحيث أصبح المكان غير صالح للاقامة فيه غير دقائق معدودات يندفع الانسان بعدها الى الخارج لاستنشاق الهواء ولذلك كان علينا الاستغناء عن الاثاث والستائر وكل شيء آخر تشبع بالغاز ونقله الى خارج المبنى. بالاضافة الى ذلك فإن النوافذ المخلوعة والأبواب المحطمة جعل سير أعمال الموظفين بطيئاً وغير مريح.

القنصليات الأمريكية في تبريز وأصفهان وشيراز تعرضت بدورها للمتاعب

والأخطار. قنصلية تبريز هوجمت مرتين على الأقل ثم أحرقت أخيراً. في اصفهان اعتدي على القنصل بالضرب المبرح عندما حاول انقاذ امريكي مخمور من يد جمهور غاضب. في شيراز مع أن أعمال العنف كانت أقل حدة إلا أن القنصل قرر اغلاق أبواب القنصلية والمجيء الى طهران بعد أن تلقى عدة رسائل تهديد. وكذلك فعل قنصلا تبريز وأصفهان.

كان للولايات المتحدة في شمالي ايران محطتين للانصات على تحركات الصواريخ السوفييتية داخل الأراضي السوفييتية بادارة عدد من الخبراء الأمريكيين ومعهم عدد من جنود القوة الجوية الايرانية لغرض التدريب. استلمنا أخباراً من الشمال تفيد أن هؤلاء الإيرانيين سيطروا على المحطتين واحتجزوا الخبراء الأمريكيين رهائن لديهم بسبب تأخر دفع رواتبهم واعتقادهم بتوقف الحكومة الأمريكية عن اداء التزاماتها المالية نحوهم بعد قيام الثورة. قدمت لرئيس الوزراء بزركان شرحاً مطولاً عن عمل محطتي الرصد ومدى فائدتها للسلطات الايرانية حيث توفر للحكومة معلومات استخبارية عن تحركات القوات السوفييتية وأية قوات أخرى قد تهدد أمن ايران لذلك فإن مسؤولية تشغيلها وادامتها والمحافظة عليها بحالة سليمة ستكون بعد الآن مسؤولية ايرانية بعد انسحاب الخبراء الأمريكيين. وافق رئيس الوزراء على العمل بنصيحتي وبالتالي سمح للملحق الجوي الأمريكي ومساعده بالسفر إلى مواقع المحطتين بطائرة ايرانية لدفع الرواتب المتأخرة واعادة الفنيين المحتجزين الى طهران حيث أجرينا ترتيبات مغادرتهم ايران بعد أيام قليلة. هذا واستمرت سفارتنا بدفع رواتب العاملين الايرانيين في الموقعين طيلة مدة بقائي بعد ذلك في ايران.

القضية الثالثة، أي العثور على صيغة ملائمة لعلاقاتنا المستقبلية مع الايرانيين كانت أكثر صعوبة من القضيتين السابقتين. ولم يكن هذا بسبب عدم توفر النية الحسنة لدى حكومة بزركان ولكن بسبب حالة الفوضى السائدة في البلاد والادارات الحكومية. في أول برقية بعثتها الى واشنطن بعد اعادة الاتصال بالاقمار الصناعية شخصت باسهاب أوضاع البلاد وأشرت إلى واحدة من المشاكل الحادة وهي مشكلة اللجان الثورية التي نبتت في جميع أنحاء البلاد

والتي تتألف من أناس عاديين ولكنهم ثوريون وأخذت على عاتقها توطيد الأمن والنظام ومعاقبة مخالفي القانون. ومع أن هذه اللجان مسؤولة (نظرياً على الأقل) أمام «مجلس الثورة الاسلامية» إلا أنها عملياً حرة طليقة تتصرف حسب نزواتها من جهة وارتباطاتها العقائدية من جهة أخرى. فقسم منها ينتمي لجماعات مجاهدي خلق (اشتراكية علمية) وأخرى موالية للحركة الاسلامية (الفدائيون) وقسم آخر يتلقى تعليماته وعقيدته السياسية من حزب تودة (الشيوعيون) هذا بالاضافة الى لجان ثورية أخرى لا تنتمي إلا لمصلحتها الخاصة. قلت ان الشيوعيين وحدهم يعملون حسب خطة مدروسة وأهداف واضحة من جملتها السيطرة على الاذاعة والتلفزيون وبالتالي على الصحافة أيضاً. ولما كانت القوات المسلحة في حالة تبعثر وتفكك فإن احتمال سيادة القانون والنظام يبقى احتمالاً ضعيفاً لفترة غير معلومة. أما حكومة بزركان فقلت عنها انها دفنت في مكان ما وسط هذا الهرج والمرج وأني أشك في قدرتها على القيام بأعباء مسؤولياتها. وتابعت أقول في برقيتي أنه في مثل هذه الظروف من المستحسن بل والضروري أيضاً أن يكون سلوك الولايات المتحدة صريحاً وواضحاً وأن تكون طموحاتنا متلائمة ومتكيفة مع واقع الظروف وأن يكون وجودنا وحضورنا في ايران قليلاً قدر الامكان.

فيما يتعلق بسياستنا الحالية تجاه ايران أوصي باتباع الخط السياسي الذي كنت اقترحته في تشرين الثاني الماضي أي المساعدة على قيام تفاهم وتعاون بين جماعة خميني «بزركان» من ناحية والقوات المسلحة من ناحية أخرى لوجود تماثل واسع في مصالحهما، الأمر الذي يلزمهما بالتعاون للتخلص من خطر الشيوعية. ولكن عندما رفضت واشنطن اعتماد هذه السياسة وحاولت تأليب جهة على أخرى حدث فعلاً ما كنا نخشاه ونحذر منه طوال الوقت وأصيبت القوات المسلحة بالتفتت والتبعثر وأدى بالتالي الى وقوع ما لا يقل عن مئة ألف قطعة سلاح مختلفة في أيدي مختلف الفئات السياسية والعقائدية. وهذا كله يعني بالنتيجة ان الولايات المتحدة فقدت المؤسسة العسكرية التي كان يمكن أن تكون سريعة الاستجابة لبقاء نفوذنا والمحافظة على مصالحنا. أما الفئات المختلفة الاتجاهات التي وقعت الاسلحة بيدها فإنهم باتوا يكنون الحقد والكراهية للولايات المتحدة

لأننا نحن الذين كنا نحرض القوات المسلحة للتصدي للثورة والقضاء عليها بدل التعاون معها.

اختتمت برقيتي بالقول بأنه من غير المحتمل أن أفهم يوماً ما الأسس المنطقية لما تريد واشنطن تحقيقه لسبب بسيط هو أنها سياسة خلت من أي هدف سياسي استراتيجي. رغم كل ذلك اقترحت أن يكون سلوكنا في المستقبل نابعاً من ادراكنا ان هناك مصالح أساسية مشتركة بين ايران والولايات المتحدة ومن واجبنا أن لا نوصد جميع الأبواب أمام ايران المستقبل إذا ما رغبت يوماً ما باقامة علاقات ودية معنا.

خلال فترة ما بعد الهجوم على السفارة بقيت مواصلاً سياسة ابقاء الجسور سالكة فيما بيننا وبينهم عن طريق عقد اجتماعات منتظمة مع رئيس الوزراء بزركان وبعض أعضاء حكومته بسبب اعتقادي الوثيق ان العلاقات فيما بيننا ولو أنها ستكون متغيرة عما كانت عليه في أيام الشاه إلا أنهم في كل الأحوال يرغبون باخلاص الابقاء على علاقات ودية معنا واستمرار التعاون معنا في المجالين الاقتصادي والعسكري. كان بزركان ووزراؤه يؤكدون على هذه الناحية مراراً عدة وعلى هذا الأساس جرى البحث بيني وبينهم لوضع القواعد الجديدة لهذا التعاون المرتقب.

على الصعيد العسكري نظراً لما أصاب الأجهزة البنيوية داخل القوات المسلحة الايرانية من تفتيت وتخلخل - وهي الأجهزة التي تتعامل مع البعثة العسكرية الامريكية - قلت لبزركان أن حكومتي قد تقرر تقليص حجم البعثة العسكرية الأمريكية عما كانت عليه حتى الآن بحيث يبقى العدد الكافي من أعضاء البعثة للابقاء على صلة العمل والتعاون. هز بزركان رأسه موافقاً وقال انه يرجو أن لا تقرر الحكومة سحبهم جميعاً إذ أن حكومته حريصة على استمرار التعاون العسكري مع الولايات المتحدة وتعتبره ضرورياً للمحافظة على الكفاءة العسكرية للقوات الايرانية والقوة الجوية بصورة خاصة. أخيراً اتفقنا مبدئياً على ابقاء 25 أمريكياً في البعثة برئاسة عقيد بدل رئيس البعثة الحالي برتبة جنرال. بعد عدة أيام قدم رئيس الوزراء بزركان اسم ضابط ايراني متقاعد برتبة عميد

قال انه يلم الماماً جيداً بالوضع وانـه الشخص الذي سـوف يتعامـل مع العقيـد الأمريكي رئيس البعثة الجـديد. يبـدو أن العميد الايـراني المتقاعـد يحظى بثقـة رجال الثورة نظراً لماضيه المعروف بالنزاهـة والتقوى. مـع ذلك لم تتمكن البعثـة العسكرية الأمريكية من القيام بمسؤولياتهـا بشكل طبيعي بسبب حـالة الفـوضى السائدة في صفوف القوات المسلحة الايرانية.

بعد الانتهاء من هـذه القضايـا الرسميـة التفتُ إلى وضعي الخاص فـأخبرت واشنطن برغبتي في مغادرة ايران. ولما كان رحيلي يعني بقاء نائبي «شارلي نـاس» مدة غير معروفة بانتظار وصول سفير جديد اقـترحت على واشنـطن الموافقـة على منح شارلي اجازة لمدة شهر واحد أبقى أثناءها في مـركز عمـلي لحين عـودته كـما اقـترحت أن يتمتع فـوراً بهذه الإجـازة لتمضية شهـر شباط/ فـبراير في امـريكا والعودة في بدايـة شهر نيسـان/ ابريـل لأغادر ايـران بعد عـودته بفتـرة قصيرة. وافقت واشنـطن حالاً عـلى هذا الـترتيب وأتصور أنها فعلت ذلـك وهي تتنفس الصعداء ارتياحاً وسروراً بذهابي.

كان شهر شباط/ فبراير في ايران كالكابوس المزعج. فئات تتصارع من أجل ضمان مكانة وسلطة لنفسها داخل محيط الثورة. ولما كانـوا جميعاً يملكـون أسلحة من مختلف الأنـواع والأشكـال فقـد تحـول الصراع السيـاسي إلى قتـال ضـار في الشوارع والحارات. أثناء الليل يبدأ اطلاق النار على سفارتنا فترد عليها القوات المكلفة بحماية سفارتنا والدفاع عنها بالمثل وأشـد قوة. تمكنت فئـات يساريـة من الشيوعيين ومجاهدي خلق من السيطرة على الاذاعة والمرئيـة وبدأت حملة دعـائية شرسة ضد الولايات المتحدة ومن تبقى من عهد الشاه. أقيمت محاكم ثـورية في مختلف الأمـاكن وأصبح تنفيـذ أحكام الاعـدام ظاهـرة يـوميـة وخـاصـة بعض الشخصيات التي كانت على علاقات طيبة مع سفارتنـا في عهد الشـاه. عمليات السلب والنهب انتشرت على نطاق واسع وتوقفت الخدمات في العاصمة بصـورة شبه كاملة.

قطعنا كل اتصال لنا مع أي ايراني لا يتبوأ مركزاً رسمياً في الحكومة مخافـة أن يعرض ذلك حياتهم للخطر. العدد القليل من الهيئة الدبلومـاسية التي مـا زالت

في أماكنها في طهران بدأت تلتقي كل يوم تقريباً لتبادل الشائعات والتداول في احتمالات المستقبل التي كانت تبدو بنظرنا جميعاً قاتمة وكئيبة.

في أثناء ذلك كان الشاه ما يزال مقيماً في مصر بعد أن مدد اقامته عدة مرات قبل أن ينتقل أخيراً الى المغرب، السبب في تغيير خطته المبدئية التي كانت على أساس قضاء يوم واحد في أسوان ثم مواصلة سفره الى الولايات المتحدة هو الأمل الذي كان يسيطر على أفكار رجال حاشيته بحدوث انقلاب عسكري والبطش برجال الثورة ومن ثم استدعائه للعودة الى عرشه كما حصل عام 1953. كما أنهم نصحوه بالبقاء داخل العالم الاسلامي بدل الذهاب الى دولة غربية لحين وصول الدعوة اليه للرجوع إلى ايران.

ولكن بصرف النظر عن كل هذا فإن موضوع مجيء الشاه الى الولايات المتحدة موضوع شائك في نظري وعلينا أن نعالجه بمزيد من التبصر والتأمل. إذ كنتُ أرى أن قدومه إلى الولايات المتحدة وهو يدلي بتصريحاته في كل مكان ومناسبة حول تمسكه بحقه في العرش لن يجد الايرانيون تفسيراً له غير أننا نريد مساعدته على تحقيق طموحه وهو ما سيؤدي بطبيعة الحال إلى قطع هذا الخيط الرفيع من علاقاتنا الحاضرة مع الحكومة الإسلامية الجديدة ولا أعتقد أن ذلك سيكون في مصلحتنا. أما إذا جاء إلى بلادنا بنية التنازل عن العرش والاقامة مثل أي لاجىء سياسي آخر فإن الأمر يصبح مختلفاً. في يوم 26 شباط/ فبراير وبعد استلامي برقية من سفيرنا في المغرب طالباً تجديد دعوة الرئيس كارتر الرسمية للشاه للقدوم الى الولايات المتحدة أرسلت بدوري برقية الى واشنطن أحذر فيها المسؤولين من عواقب توجيه دعوة جديدة الى الشاه إذ سوف تعتبره حكومة الثورة بمثابة التآمر ضدها واعادة الشاه إلى السلطة. قلت أيضاً أننا إذا كنا نريد حقاً الاحتفاظ بعلاقات معقولة مع السلطة الجديدة يترتب علينا أن نتجنب اثارة شكوكهم ومخاوفهم من نوايانا تجاههم ولذلك أرى أن يختار الشاه مكاناً آخر غير الولايات المتحدة.

بعد ارسال هذه البرقية أرسلتُ رسالة أكثر وضوحاً وألمحت الى مخاوفي من أن تؤدي مثل هذه الخطوة في ظروف ايران الراهنة إلى احتجاز جميع موظفي

السفارة كرهائن من قبل احدى الفئات الثورية المتطرفة. في الوقت نفسه كلفتُ نائبي شارلي أن يبحث مثل هذا الاحتمال مع كبار المسؤولين بوزارة خارجيتنا أثناء وجوده مجازاً في واشنطن. يبدو أن رسالتي الصريحة الى واشنطن ومباحثات شارلي في وزارة الخارجية أقنعت المسؤولين بوجود خطر حقيقي مما أدى الى تغيير في موقف الحكومة من مسألة تجديد الدعوة الرسمية للشاه. في اجتماع عقده اثنان من الوسطاء الأمريكيين بالنيابة عن الشاه مع بعض المسؤولين بوزارة الخارجية صارحهما نائب وزير الخارجية «نيوسم» بما يساور الحكومة من قلق على مصير موظفي السفارة الأمريكية في طهران واحتمال احتجازهم رهائن من قبل بعض الفئات المسلحة إذا قرر الشاه المجيء الى الولايات المتحدة. كما بعث الرئيس كارتر رسالتين موجهتين الى ملك المغرب وضيفه الشاه تضمنتا نفس المحتوى واعتذر بعدم ملائمة الظروف الحالية لقدوم الشاه الى الولايات المتحدة. وهكذا أمكن تفادي حدوث توتر جديد في علاقاتنا مع ايران.

بعد هذا باشرت أهيّىء نفسي للسفر حالما يعود نائبي من اجازته القصيرة. قررت أن يبدو سفري وكأني ذاهب الى واشنطن لاجراء مشاورات مع المسؤولين حول مختلف القضايا التي تهتم بها كل سفارة وذلك خشية أن تحاول إحدى الفئات الثورية المتطرفة اعاقة خروجي من ايران فيما لو انتشر خبر مغادرتي لها بصورة نهائية. وكان قراري بتقديم استقالتي في واشنطن وليس في طهران اجراءً احترازياً أيضاً. ولكن البيت الأبيض اختار لأسباب غير واضحة تسريب خبر عودتي الى واشنطن وارسال سفير جديد الى طهران للصحافة الأمريكية فانتشر الخبر في أوساط الهيئة الدبلوماسية في طهران دون أن يلفت انتباه الايرانيين بسبب انشغالهم بقضايا أكثر أهمية والحاحاً. مع ذلك قررنا عدم المجازفة لمواجهة أي موقف طارىء فوضعنا خطة محكمة ومفصلة لعملية مغادرتي طهران. الرجل الذي وضع الخطة وأخذ على عاتقه تنفيذها هو «مايك كوفلن» ضابط الأمن المسؤول عن حمايتي الشخصية في «مانيللا» والذي نقل الى طهران بناءً على طلبي ليحل محل ضابط الأمن السابق الذي أعدته إلى الولايات المتحدة بعد الهجوم على السفارة بسبب ضعفه وتخاذله وعدم كفاءته.

عاد نائبي شارلي ناس من اجازته في الموعد المحدد وهو يبدو أكثر نشاطاً

وأفضل صحة. في ذلك الوقت كان قد تم ترحيل الجالية الأمريكية بسلام واستعادت السفارة جزءاً غير قليل من نشاطها الاعتيادي. وعاودت شركة الطيران الأمريكية رحلاتها الى طهران بعد أن خفضت من عدد الرحلات. علاقاتنا مع الحكومة الجديدة أخذت تستقر تدريجياً.

مطار العاصمة «مهراباد» ولو أنه صار يعمل بشكل طبيعي نسبياً بعد أن أنهى موظفو برج المراقبة اضرابهم إلا أن الأوضاع في بعض أقسامه كقاعة المسافرين ومنطقة الجمارك وسلم صعود المسافرين كانت في غاية السوء والإزعاج. فلقد كان يعمل في المطار ثلاث لجان ثورية على الأقل لا يعرف أي منها صاحبة الكلمة الأخيرة عند الحاجة. ويبدو أن البعض اكتشف أن وجوده في المطار فرصة ذهبية يحسن استغلالها من أجل الفائدة الذاتية والكسب المادي نظراً لما لديهم من سلطة تمكنهم من منع المسافر أو السياح له بمغادرة البلاد أو عرقلة الاجراءات الرسمية اللازمة لإكمال حمولة طائرة ما أو عدمه وغير ذلك من الوسائل الملتوية التي تدر على أصحابها فائدة مالية.

تمكن مايك بوسائله الخاصة من التفاهم مع اللجان المشرفة على قاعة المسافرين والمنطقة الجمركية ولكن المجموعة التي تسيطر على سلم الصعود الى الطائرة تنتمي لجماعة الفدائيين الذين هاجموا السفارة ولذلك كان مايك يخشى أن يحاولوا اختطافي أثناء صعودي الى الطائرة. كان من رأيه أن تسريب البيت الأبيض خبر عودتي للصحافة ليس من المستبعد أن تكون بعض الجهات قد اطلعت عليه وقد تتصور أن اختطافي الآن لن يؤثر على العلاقات الأمريكية الايرانية. وهكذا ركز مايك اهتمامه على مأزق السلم وكيفية تجنب خطر الوقوع بيد الفدائيين. بعد تقليب الأمر على مختلف الوجوه والاحتمالات قرر مايك أن أسافر على طائرة «پان ام» الأمريكية التي تهبط في مطار طهران في الساعة الثانية والنصف من صباح يوم 6 نيسان قادمة من نيودلهي وتقلع بعد ساعة واحدة في طريقها الى أوروبا وبذلك أغادر طهران تحت جنح الظلام في وقت يكون فيه عدد الموظفين في المطار في حده الأدنى.

في اليوم الذي سبق موعد سفري اتخذ مايك مزيداً من الاحتياطات الأمنية

فأمر المجموعة التي أناط بها ابراهيم يزدي مهمة حمايتي بالانتقال ليلاً الى المطار والتأكد من سلامة المدرج وخلو المكان من كمائن مزودة بصواريخ سام 7 المحمولة على الكتف بعد أن زودهم بجهاز اتصال المسافات القصيرة «ووكي توكي» بعد أن وضع فيها بلورة تمكنهم من الاتصال بالسفارة. بعد هذا وضع ترتيب تشكيل قافلة السيارات التي ستنقلنا الى المطار. في هذه العملية اعتمد مايك على مجاهدي خلق بالدرجة الأولى ورئيسهم الجزار الذي أصبح في هذا الوقت شديد الاعجاب بالأمريكيين ونذر نفسه وجماعته للدفاع عنا وحمايتنا في كل ظرف ومكان. كان لهذا الجزار أخ يصغره سناً وهو عضو في الفريق الايراني الأولمبي للمصارعة. تمكن مايك بواسطته ان يجند عدداً من زملائه المصارعين وشكل منهم ما يشبه فريق اقتحام وزودهم برشاشات «عوزي» الاسرائيلية وبعد اعطائهم بعض الارشادات عما يمكن أن يطلب منهم عمله وضعهم في سيارات نقل من نوع «ڤان» لا نوافذ لها الا بجانب السائق على أن تسير السيارة في مؤخرة القافلة ثم احاط سيارتي «الكرايسلر» المصفحة بسيارات مصفحة أخرى ومع ذلك منعني من ركوب سيارتي ووضعني في سيارة أخرى من نوع «شيفروليه» وهي الأخرى مصفحة أيضاً على أن تسير هذه السيارة خلف سيارتي الأصلية مباشرة التي جلس فيها مايك في الناحية اليمنى من المقعد الخلفي حيث يجلس السفير عادة أي أنه جعل نفسه الهدف الأول لأية خطة محتملة لاغتيالي.

في الساعة الثانية صباحاً خرجت هذه القافلة من بوابة السفارة الرئيسية الى سكون الليل وهدوء نظام حظر التجول. اجتزنا الشوارع بسرعة الواحدة بعد الأخرى وتركنا مركز المدينة خلفنا ثم استدرنا يميناً في الشارع الذي كان يسمى قبل الثورة شارع «أيزنهاور» حيث يوصلنا الى المطار. في هذا الشارع تقع جامعة طهران حيث ترابط عدة فئات راديكالية.

عند اقتراب قافلتنا من الجامعة جوبهنا بحاجز للتفتيش يقف خلفه عدد من المسلحين. توقفت القافلة وتقدم اثنان من المسلحين نحو السيارة الأولى التي كان يقودها صاحبنا الجزار وطلبا التفتيش على السيارات. اعترض الجزار على هذا الطلب مبرزاً ما يحمله من وثائق تثبت عضويته في حركة مجاهدي خلق والثورة غير أن المسلحين أصرا على اجراء التفتيش وتحول الكلام الهادىء الى

مناقشة حامية بأصوات عالية. عند ذلك طلب مايك من سيارة المؤخرة وحمولتها من المصارعين التقدم الى الأمام ومساعدة السيارة الأولى. خرج فريق المصارعة وبيدهم الرشاشات من سيارتهم المقفلة واشتركوا جميعهم في النقاش المحتدم بينما تحركت بقية السيارات بهدوء متجاوزة موقع الحاجز من جانبه الأيسر واختفت في الظلام. تمكنت السيارتان المتخلفتان من اللحاق بالقافلة قبل الوصول الى المطار وعلمنا أن المشكلة حسمت بطريقة ودية. عند وصولنا إلى المطار مررنا على البوابة الرئيسية التي تدخل منها السيارات عادة للوصول الى المبنى الرئيسي وواصلنا السير الى مدخل جانبي كان مايك متفاهماً مع عدد من الأشخاص لفتح بوابته عند وصولنا فدخلنا من هناك وبعد اجتياز عدد من الأبنية خرجنا الى الساحة والمدارج واتجهنا نحو الطائرة الأمريكية «بان ام» التي كانت تتزود بالوقود. يبدو أن عدداً من الفدائيين الجالسين في سيارة جيب متوقفة على مسافة من الطائرة لاحظوا قدوم قافلتنا من المدخل الجانبي وسيرنا باتجاه الطائرة فتحركت سيارة الجيب بسرعة وتوقفت في طريق سياراتنا للحيلولة دون وصولنا الى الطائرة. مرة أخرى أعطى مايك الاشارة لسيارة المصارعين. وبينما خففت السيارة الأخرى من سرعتها خرجت هذه السيارات من الرتل وأسرعت الى مكان وقوف سيارة الجيب وبعد أن توقفت خرج فريق المصارعين وهم يحملون رشاشاتهم واشتبكوا مرة أخرى في نقاش مع الفدائيين. بعد مناقشة قصيرة فضل الفدائيون الأربعة انهاء المناقشة والانسحاب بسيارتهم من الدخول في معركة يبدو أنهم قدروا انها لن تكون لصالحهم.

قائد الطائرة الذي كان واقفاً في أعلى السلم يراقب عملية تزويد خزانات الطائرة بالوقود فوجىء بوصول قافلتنا واستبد به القلق من رؤية عدد كبير من المسلحين بجوار طائرته. ترجلتُ من السيارة وبدأت أودع جميع الذين رافقوني في هذه الرحلة غير المريحة من السفارة الى المطار بمصافحة كل فرد منهم ثم أعربتُ عن شكري للجميع وخاصة صديقي «مايك» وسائق سيارتي «هايكاز» ثم ارتقيتُ درجات السلم الى داخل الطائرة. كاجراء احتراسي ضد تعرض الطائرة لأي محاولة من قناص أو أكثر يحتمل وجودهم في منطقة المطار اتفق مايك مع قائد الطائرة على اطفاء أنوار الطائرة حين الاقلاع وابقائها كذلك حتى

الابتعاد مسافة كافية في الجو. بينما كنتُ أتحدث مع قائد الطائرة ونائب مدير شركة «بان أم» الذي صادف وجوده على نفس الطائرة سمعنا ضوضاء وجدلاً حامياً بين ضباط أمن الطائرة والايرانيين بسبب اصرار الايرانيين الذين ودعتهم قبل دقائق على الصعود الى الطائرة للقيام بواجب توديعي حسب مقتضيات الآداب والعادات الايرانية. على إثر تدخل مايك لحسم المشكلة سمح للايرانيين بالصعود الى الطائرة الواحد بعد الآخر على أن يتركوا أسلحتهم خارج الطائرة. وهكذا بدأت مراسم التوديع الايرانية حيث كان كل منهم يحتضنني بذراعيه وبعد تقبيلي على الخدين ينسحب بهدوء ليقوم الذي يليه بنفس العملية. بعد الانتهاء من هذه المراسم الوداعية واستعدادنا للحركة اشتدت الضوضاء مرة أخرى في أسفل السلم وعلمت أن فريق حمايتي الشخصية الذي وصل الى المطار قبلنا بعدة ساعات حسب تعليمات مايك يصرون بدورهم على الصعود الى الطائرة لتوديعي. وهكذا تكررت العملية مرة أخرى ولكن المجموعة هذه كان أفرادها من الطلاب الحليقي الذقن وذوي الهندام الحسن. بانتهاء مراسم التوديع الثانية أصبح كل شيء جاهزاً للاقلاع فأطفئت الأضواء ثم أقلعت وهي مظلمة دون أي حادث مزعج.

علمت فيما بعد أن معركة حامية قامت بعد اقلاع طائرتنا بين جماعة حمايتي الشخصية وجماعة مجاهدي خلق ولكنها اقتصرت لحسن الحظ على تبادل الكلمات دون اللجوء إلى السلاح وقيل لي ان سائق سيارتي «هايكاز» كان يقوم بدور الوسيط والحكم بين المجموعتين.

كانت الرحلة الى الولايات المتحدة مريحة مع توقف قصير في فرانكفورت حيث وجدت باستقبالي القنصل الأمريكي مع اعضاء قنصليته. في مطار «دالاس» كانت زوجتي بانتظاري.

26

الخاتمة

قبل مباشرتي بـالاجازة قمت بـزيارة لـوزارة الخارجيـة وطلبتُ تحديـد موعـد قريب لمقابلة الوزير فانس فاستقبلني في اليوم الأول بعد رجوعي. قال فانس ان الرئيس كارتر يريدني أن أستلم سفارة أخـرى! هذا العـرض من الرئيس كـارتر أدهشني وأثار استغرابي، إذ أن علاقاتي بالبيت الأبيض، وخاصة خلال الأشهـر الأخـيرة من خدمتي في ايـران، كانت أبعـد شيء عن كونها جيـدة أو وديـة. لما أبديت دهشتي لفانس قال ان الرئيس يقصـد من غرضـه أن يدلـل على اقتنـاعه بصحة مواقفي وسلامة توصياتي بشأن احداث ايران واقراراً منـه أيضاً بـاختلاط الآراء والنصـائح التي كـان يستمع اليهـا ويتصرف على ضـوئها. وتـابع الـوزير كلامه وهو ينصحني أن علي الآن النظر الى عرض الرئيس بمثابة ترضيـة شخصية لي واثبات لسلامة موقفي. ولكن، بما أني لم أكن مستعداً أن أمـر بتجربـة مماثلة مرة أخرى كررتُ تحفظاتي وقلت أن لا فائدة من تجـربة أخـرى لأني سأواجـه في سفارتي الجديدة نفس المواقف والظروف التي عانيت منها الشيء الكثير في طهران ولهذا لا أعتقد أنـه سيكون بـوسعي القيام بـأعباء مسؤوليـاتي كسفير طـالما ظـل بـريجنسكي قادراً عـلى توريط وزارة الخـارجية، لا بـل والسفير أيضـاً، في شباك أحابيله. أجاب فانس بالقول انه واثق الآن أن تجربة ايران كانت درساً لا يمكن نسيانه أو إهماله ولـذلك لا يتصـور أن ما حـدث معي في ايران سـوف يتكرر في مكـان آخر! مـع ذلك، كـانت تحفظاتي وشكـوكي أقـوى وأعمق من أن تتغلب

عليها وتمحوها هذه الوعود والآمال فأبديتُ للوزير مرة أخرى رغبتي في التقاعد. بعد نقاش طويل اقترح الوزير تأجيل القرار النهائي في الوقت الحاضر على أن أفكر في الأمر ملياً أثناء التمتع باجازتي فأبديت موافقتي على هذا الحل. بعد هذا تطرق الوزير الى موضوع آخر وتحدث عن الضغوط الشديدة التي تمارسها بعض الجهات المؤيدة للشاه من أجل تغيير موقف الحكومة الرافض لمنح الشاه حق اللجوء الى الولايات المتحدة وقال انه ما يزال يقاوم هذه الضغوط لأنه يشاركني مخاوفي على مصير موظفي سفارة طهران واحتمال احتجازهم رهائن إذا قرر الشاه المجيء إلى الولايات المتحدة. ثم تساءل الوزير فانس ما اذا كنتُ أرغب في مساعدته والاشتراك معه أثناء مناقشة الموضوع مع العناصر المناصرة للشاه فأعربت له عن استعدادي لمشاركته في النقاش عندما يطلب الي ذلك. لكن الوزير فانس لم يطلب ذلك أبداً.

قبيل مغادرتنا واشنطن الى فلوريدا اتصل بي هاتفياً بعض الأصدقاء بصفتهم «أمناء المجلس الأمريكي» وهي منظمة مرتبطة بجامعة كولومبيا تأسست عام 1950 في عهد الرئيس أيزنهاور يعرف دستورها الغاية من انشائها بكلمات قليلة: «القاء الأضواء على القضايا السياسية الحيوية للولايات المتحدة». يشرف على نشاط المجلس هيئة من الأمناء الذين يمثلون كلا الحزبين الجمهوري والديمقراطي وجميعهم من الشخصيات المرموقة على الصعيد القومي.

نظراً لبلوغ الرئيس الحالي للمجلس سن الخامسة والستين ورغبته في التقاعد في الخريف القادم استفسر الذين اتصلوا بي فيما إذا كنت أوافق على أن أحل محله لرئاسة المجلس. لكن عندما حاولت إعطاء ردي النهائي بعد عودتي من الاجازة أصروا على أن أفعل ذلك خلال مدة أقصاها سبعة أيام أي قبل الاجتماع الرسمي الموسع لهيئة الامناء لانتخاب رئيس جديد.

وهكذا ذهبت الى فلوريدا وذهني منشغل بهذين العرضين. قضيت أربعة أيام مع عائلتي في جو فلوريدا المعتدل أمارس رياضتي المفضلة في الغولف صباحاً ونزور الأصدقاء والأقارب وأنا أستمتع بحريتي الجديدة في الذهاب والاياب كما أشاء بدون حراسة وبدون رجال الأمن والحماية وقد ارتاح بالي من مشاكل

الوظيفة ومسؤولياتها ومشاكلها فتمكنت في هذا الجو المريح أن أقرر بصورة نهاية الاستقالة من الخدمة الخارجية وقبول منصب رئاسة المجلس الأمريكي. ولعل ما ساعد على سرعة اتخاذ هذا القرار النهائي هي الرسالة التي استملتها من وزارة الخارجية لابلاغي أن البيت الأبيض يرغب في تعيين خلفٍ لي في ايران ويطلب تقديم استقالتي من الوظيفة حالاً! اتصلت بوزارة الخارجية هاتفياً وطلبت تحرير استقالة شكلية وتزوير توقيعي وارسال الكتاب فوراً بيد أحد السعاة الى البيت الأبيض. بعد ظهر نفس اليوم اتصلت هاتفياً بالمجلس الأمريكي في مقره في نيويورك وأبلغتهم بموافقتي على ترشيحي رئيساً جديداً للمجلس. بعد هذا جلست لتحرير رسالة خطية الى وزير الخارجية أبلغته فيها باستقالتي من الخدمة الخارجية بسبب عدم ثقتي بحكمة قرارات الرئيس في أوقات الأزمات.

بهذه الخطوة الأخيرة وضعت نهاية لخدمتي الطويلة في حكومة الولايات المتحدة لمدة خمسة وثلاثين سنة أمضيت الجزء الأكبر منها في أماكن موبوءة بالأزمات الحادة والعنف كما قضيت الجزء الآخر في أماكن جميلة وساحرة. ولكن هذه الخدمة بسنواتها الطويلة كانت مفيدة ومجزية.

ولقد كنت أرجو وآمل أن تكون التجارب العديدة التي مرت بها السياسة الخارجية للولايات المتحدة دروساً مفيدة تزودنا بحصانة كافية ضد تكرارها في المستقبل، ولكن شاء سوء الحظ مرة أخرى أن يتبدد هذا الأمل الجميل خلال الأشهر القليلة التالية. فالطريقة العقيمة التي تعالج بها ادارة كارتر القضايا السياسية الحساسة والشائكة استمرت كما هي دون تغيير، وطموحات بريجنسكي الضالة لم تتوقف عند حدود معقولة والعجز المشين عن فهم طبيعة احداث ايران فهماً عقلانياً سليماً لم يطرأ عليه تغيير أو تحسن وكانت نتيجة هذه الأسباب بمجموعها احتجاز موظفي سفارة طهران في تشرين الثاني 1979 وبذلك دخلنا جميعاً في فترة من الاذلال القومي والاحباط بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخنا.

«انتهى»

المحتويات

أمريكا وإيران

هذا الكتاب الذي يسرد فيه المؤلف تجربته كدبلوماسي لأمريكا في ايـران، ويروي فيه أحداثاً بالغة الخطورة وقعت، يكشف أيضاً عن حقيقة ثابتة وراسخة ـ وإن كانت غائبة عن الكثيرين ـ وهي أن الادارات الأمريكية لا تكترث حتى بالأنظمة التي تدور في فلكهـا وتلك المتحالفـة معها فـما بالـك بالشعـوب الرافضـة لهيمنتهـا وغـطرستهـا وسياستها المرتكزة على ارهاب الدولة الرسمي المنظم.

وإذا كنا على يقين لا يخامره شك بـأن العلاقـات الدائمـة هي علاقـات الشعوب، وليس علاقات الحكومات، فإننا ندرك ـ بشهادة هذا الكتاب ـ بأن أمريكـا تراهن دائـماً على قوة أسـاطيلها وطـائراتهـا ناسيـة أو متناسيـة أن إرادة الشعوب أقـوى من جبروتهـا وطغيانها.

الناشر

دار الملتقى للنشر
AL-MOULTAKA Publishing Co. LTD
ليماسـول ـ قبـرص ـ ص.ب. 6527

الثمن: [illegible] دولار أو ما يعادلها